مِن طرابلس إلى فزان

مذكرات الرحالة الانجليزي جون فرانسيس ليون

١٨١٨



نقله الي العربية

دكتور

مصطفى جودة

الدار العربية للكتاب

ليبيا - تونس



A NARRATIVE OF TRAVELS IN NORTHERN AFRICA,

IN THE YEARS 1818 - 1819 - AND 1820



G. F. LYON

TRANSLATED BY

DR. MUSTAFA GOUDA

ADDAR AL-ARABIA LILKITAB
LIBYA - TUNIS

، ومضيت

من طرابلس إلى فزان

مذكرات

الرحالة الإنجليزي جون فرانسيس ليون

١٨١٨

ترجمة

مصطفى جودة

الدار العربية للكتاب

ليبيا - تونس

الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م

من طرابلس الى فزان

مذكرات الرحالة الانجليزى جون فرانسيس ليون

١٨١٨

الفصـــل الأول

فى شهر سبتمبر من عام ١٨١٨ وصل الى مالطة(١) رجل على قدر كبير من العلم والمعرفة يدعى السيد ريتشى (Ritchie) ، قادما من مارسيليا • وكانت الحكومة البريطانية قد كلفته بالقيام ببعثة علمية الى دواخل أفريقيا • ووصل ريتشى يرافقه رجل فرنسى يدعى ديبو (Dupont) وكان يستخدمه لجمع وإعداد بعض الدراسات التى تتعلق بالتاريخ الطبيعى لحساب السيد ريتشى •

وكان مفهوما أن العقيــد البحرى ماريات (Maryat) من البحرية الملكية سيرافق السيد ريتشى فى رحلته الى أفريقيــا ، الا أن ظروفا معينــة اضطرت السيد ماريات الى أن يعدل عن رغبته فى الانضمام للبعثة •

وبمجرد وصول السيد ريتشى الى مالطة ، كان لى حظ لقائه والتعرف عليه وكم كنت آسفا لعدم قدرته على اصطحاب العقيد البحرى ماريات • ورغم أننى كنت أعرف أننى لا أملك من المواهب ما أســتطيع أن أفخر به فقــد جازفت وعرضت عليه خدماتى بأن أحل محله آملا أن يعوض الحماس الذى حفزنى الى ذلك عن نقائصى فى النواحى الاخرى•وقبل السيد ريتشى عرضى دون تردد وكتب على الفور الى الفريق أول بحرى س•ف• بنروس (C. C. Benrose) القائد العام للقوات البحرية فى البحر الابيض المتوسط يرجوه أن يسمح لى بالقيام بهذه الرحلة ، وتفضل الفريق أول بحرى بنروس بالموافقة وكتب بدوره الى رؤسائه فى البحرية الملكية يطلب الموافقة على انضمامى لهذه البعثة •

وانشغل السيد ريتشى فى الاعداد للرحيل ، وانضم الى مجموعتنا الصغيرة نجار سفن يعمل فى مالطة يدعى جون بلفورد (John Belford) • وفى العاشر من أكتوبر غادر ريتشى مالطة فى طريقه الى طرابلس ، وبقيت أنا فى مالطة فى أنتظار خطاب الموافقة من انجلترا • وأمضيت فترة الانتظار فى الاعداد

(١) نشر كتاب « قصة مالطة » تعريف مصطفى جودة ، وهو من المراجع القليلة التى نشرت بالعربية عن هذه الجزيرة •

للرحيل ، وفى تعلم حروف الهجاء العربية • وفى التاسع عشر من نوفمبر وصلنى خطاب الموافقة بعد طول انتظار • وفى الواحد والعشرين من ذلك الشهر رحلت عن مالطة فى طريقى الى طرابلس وبلغتها فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٨١٨ م • وحين وصلت الى طرابلس لم يكن السيد ريتشى قد غادرها بعد ، وكان واضحا أنه ينوى قضاء بعض الوقت بها ، وكان ينزل ضيفا على (العقيد) وارنجتون القنصل الانجليزى الذى استقبلنى بحفاوة وترحاب وأصر على أن أجعل اقامتى تحت سقف منزله • وكان هدف السيد ريتشى هو السفر الى «مرزق» (عاصمة) فزان بصحبة المكنى (سلطان فزان) ، وعلى هذا كان رحيلنا مرتبطا بموعد سفر (السلطان) ، وكان يقوم بجمع عدد كبير من الرجال للاغارة على أهل واداى أو برقو السود (Borgoo of Brown) وتقع هذه البلدة جنوبى وشرقى فزان • ولما كان أهل طرابلس لا يرغبون كثيرا فى القيام بهذه الحملة ، ولم يكن السلطان يميل كثيرا الى الضغط عليهم •• فقد بات من المتعذر معرفة الموعد المحتمل للرحيل •

وكان رجلا فى الخمسين من عمره ، ميالا للحرب وذا شخصية قوية تجتمع فى صدره نوازع الطموح والتقتير الشديد وهم يطلقون عليه فى طرابلس لقب « بك فزان » وحينما يدخل دائرة نفوذه يحمل لقب السلطان •، وخلال فترة حكم أبيه ، كان محمد المكنى أحد كبار مساعدى الباشا المقربين اليه ، وكان له اليد الطولى فى قمع الاضطرابات التى صاحبت اغتصابه العرش ، اذ كان المكنى آنداك يتمتع بشعبية ومنزلة كبيرتين ، وأصبح بعد وفاة أبيه « بك النوبة » أو المسئول الذى يقوم بجمع الخراج من سلطان فزان • وكان يسافر الى فزان كل عام لتسلم الخراج • وعلى الرغم من ضآلة المبلغ الذى يقوم بتحصيله ، فقد كانت وظيفة « بك النوبة » وظيفة هامة • والجدير بالذكر أن فريدريك هورنمان(١) رافق المكنى خلال رحلته الى فزان • ولقد اتاحت زيارات المكنى المتكررة الى فزان أن يتحقق من ضآلة المبالغ التى يدفعها سلطان فزان اذا قورنت بمكاسبه • وحينما قرر المكنى أن يقبض على زمام السلطة فى

---

(١) أنظر يوميات الرحالة فريدريك ، الرحلة من القاهرة الى مرزق عام ١٧٩٨ ترجمة مصطفى جودة ــ مكتبة الفرجانى ــ طرابلس ليبيا •

فزان ، كانت لديه القدرة على التأثير فى باشا طرابلس ليزيح العائلة المالكة فى فزان على وعد بأن يضاعف له الخراج اذا ما تولى أمر فزان • وفى عام ١٨١١ م قام المكنى على رأس عدد كبير من الرجال وبلغ جبال غريان ونجح فى الوصول الى مرزق دون أن يفطن اليه أحد•على أن تفاصيل توغله داخل الاقليم ليست مسلية على الاطلاق ، ويكفى أن نذكر هنا أن مطامعه كلها قد تحققت وتسبب فى شنق السلطان وأخيه ، وواحد من كبار المماليك وأكبر ولديه • وتعلل المكنى بخطر مغادرة مرزق بعد هذه الاحداث ، واستطاع أن يقنع الباشا بأن يعينه نائبا له ، وأعدا اياه أن يدفع له خراجا قيمته ١٥ر٠٠٠ دولار كل عام ، فى حين أنه لم يكن يتجاوز خمسة آلاف دولار أيام حكم السلطان الأسبق• بعد أن أستقرت له الأمور شن حربا على كل جيرانه العزل وأستطاع أن يغنم مابين أربعة وخمسة آلاف عبد كل سنة ، وعاد الى طرابلس بعد واحدة من غزواته فى «كانم» على رأس عدد كبير من الأسرى والجمال ، الأمر الذى ضاعف من قدره لدى الباشا •

وحينما وصلت الى طرابلس عرفت أن السيد ريتشى تمكن من لقاء الباشا أكثر من مرة ، وقدم اليه هدايا قيمة كما علمت أن الباشا كانت لديه فكرة كاملة عن الرحلة التى يعتزم ريتشى القيام بها • وعلى الرغم من أن السيد ريتشى لم يتحدث الى بما كان يدور فى لقاءاته مع الباشا فان لدى من الاسباب مايجعلنى أستنتج أن الباشا كان يؤيد هذه الرحلة تماما ، وأن أمر حمايته فيها مكفول تماما فى دائرة نفوذه •

ومن ناحية أخرى فقد أسرف سلطان فزان فى وعوده بالحماية وأعلن أنه ينتظر الفرصة ليؤكد نيته الصادقة ، وحالما يصل ريتشى الى فزان فسوف يبذل قصارى جهده لمساعدته وسيعامله معاملة الأخ• وقدر لى أن التقى بالمكنى شخصيا ، وسمعته كثيرا وهو يعبر عن مشاعره الطيبة تجاه السيد ريتشى ، كما وعدنى أيضا بالحماية والمساعدة •

وازاء هذه الوعود المطمئنة واعتمادا على هذا الحليف القوى الودود كنا نشعر بالطمأنينة والثقة فى مستقبل البعثة ، ولم نكن نشك فى أن كل تلك الوعود والتأكيدات سوف تصبح حقيقة واقعة لدى وصولنا مملكة فزان •

ولم يكن قد انقضى على وصولى طرابلس سوى بضعة أيام حين قدمنى القنصل البريطانى الى الباشا ، غير أنه لم يتح لى أن أتعرف على روعة بلاطه وفخامته فلم تكن زيارتى له سوى زيارة خاصة • ونصحنا الباشا أن نرتدى الثياب المغربية ، واذن لنا القنصل بالاقامة فى «منزل» كان ذات يوم مقرا للقنصلية البرتغالية ، لنكون أكثر قدرة على الاستعداد للرحيل • وأشتريت لنفسى حصانا وجانبا كبيرا من مستلزمات الرحلة اذ لم يكن لدى السيد ريتشى مال يكفى كل متطلبات الرحلة •

وحينما ذهبت للقاء الباشا كان ضروريا أن ألقب بال «قبطان» حتى نضفى على بعثتنا قدرا من الاحترام والاهمية ، وهكذا قدمونى للباشا على أنى «رئيس» أو قائد سفينة حربية وبالطبع لو كنت أحمل رتبة أقل فربما كان لقائى بشخصية عظيمة ـ كالباشا ـ أمرا لا يرضى غروره•

وفى الخامس من ديسمبر عام ١٨١٨ قبلنا دعوة لقضاء الأمسية عند «شيخ البلد» أو حاكم المدينة ، وأرسلنا فى طلب حلاق عجوز ليقص لنا شعرنا ويهذب لحانا التى أطلقناها •

ولبسنا ذلك اليوم أفضل مايلبسه أهل المكان ، وهم يرتدون هنا نوعين من اللباس ، أحدهما طويل ، ويلبسه كبار السن وذوو المكانه ، والآخر قصير ويلبسه العامة •

وسأورد فيما يلى وصفا للملابس التى يرتديها أهل طرابلس •

واللباس القصير يتكون من :

(١) صديرية : **(Sidrea)** وهى قميص يلتصق بالصدر ، به فتحات عند الرقبة والذراعين وتشبه ما يسمى **(Guernsey Fork)** الذى يلبسه البحارة •

(٢) فرمله : **(Farmela)** وهى صديرية ثانية مفتوحة عند الصدر وموشاة بالذهب ومحلاة بالازرار دون أن يكون ثمة عراو ، وتلبس فوق الصديرية الاولى •

(٣) زبون **(Zibboon)** وهى سترة « جاكتة » ذات أكمام مطرزة وتلتقى القطع الثلاث (الصدرية والفرملة والزبون) بالسروال عند الوسط حيث حزام

عريض من الحرير أو الذهب • وتغطى الزبون صديرية أخرى دون أكمام تسمى صـدرية (Cidriah)

وغالبا ما تكون هذه الملابس من ألوان مختلفة ، ويزيد الطلب على الالوان البراقة الصارخة • وعند الخروج يرتدى الرجال عباءة من الصوف الابيض دقيق الغزل تغطى كل شيء • أما فى المناسبات فيلبسون عباءة أخرى مطرزة وموشاة بالذهب يسمونها « البرنس » ، أما السروال فهو فضفاض ، ويصنع من الحرير أو القطن تبعا لقدرة ومكانة لابسه •

اللبـــاس الطويل

ويتكون من الصديرية والفرملة ويلبس فوقهما قفطان ـ وهو رداء فضفاض طويل مطرز عند الصدر والاكمام ويلبسون فوقه ما يسمى بنيعيش (Beneish) ويشبه القفطان فى الشكل • ويختلف عنه فى مواضـع التطريز • وهناك أيضـا ما يسـمى (جبـة) (Jetba) وهى عبارة عن قفطان ذى أكمام قصيرة ، يلبس غالبا بدلا من « بنيعيش » •

وفوق هـذه الملابس جميعهـا يلبس «برنس» من الصوف أو القطن •• أما غطاء الرأس فهو يختلف حسب ذوق لابسه ، فربما كان شالا من الكشمير أو تقليدا لما يلبس فى أوربا • والعمائم الخضر منتشرة ولا يلبسها سوى الشرفاء الذين ينحدرون من نسل النبى ، أما العمائم الزرق فلا يضعها سوى اليهود •

وعند السفر يلبسون أحذية مغربية حمرا أو صفرا ، ويلفون شريطا حول الكاحل لحماية القدم من ضغط الركاب ، كما يلبس خف أصفر ذو نعل من نفس الجلد ، وتخلع هذه الاحذية فى العادة عند أبواب الحجرات قبل الدخول ، وهناك أيضا النعال الحمراء ويلبسها رجال الطبقة المتوسـطة ، أما اليهود فلا يلبسون سوى النعال السوداء وتغطى سرج الجياد بأغطية مزركشة ، والسرج ذاتها مقوسة من المنتصف وتشبه الى حد بعيد مثيلاتها فى أسبانيا • وتحت السرج تفرش خمس أو ست قطع من القماش المختلف الالوان وترتب بحيث تظهر نهايتها • وتغطى السرج ـ فى الغالب ـ بأغطية من القطيفة المزركشة • ويبلغ طول الركاب من قدم واحد الى عشرين بوصة وهو مطرز فى أغلب الاحوال



وبعد أن استعرضت مع القارىء صورة سريعة للباس أهل طرابلس ، أجد

ضروريا أن يعرف القارىء أننا لبسنا كما يلبسون وأصبح لنا مظهر المسلمين ، وحاولنا جهدنا أن يكون سلوكنا كسلوكهم . وانتحل السيد ريتشي اسم يوسف الريتشي واختار بلفورد اسم علي أما السيد ديبوفقدراق له اسم مراد ، واخترت أنا اسم سعيد بن عبد الله . واستطاع أحد خدم المساجد أن يعلمنا القراءة كما علمني الصلاة بعد الحاح شديد ، وحينما أجدتها علمتها بدوري للسيد ريتشي .

كل شيء يبشر بالنجاح فيما يتعلق باقامتنا بطرابلس ومع هذا فقد كان السيد ريتشي قلقا ، فلم يكن لديه مال يكفي حتى لاستئجار الدواب الى مرزق ، وكان يأمل في الحصول على بعض المال من الحكومة . أما عن الرحلة الى ما بعد مرزق فلم نكن ندري كيف ندبر لها المال اللازم . وكان السيد ريتشي قد أحضر معه كثيرا من البضائع بغرض بيعها ، ولكنا علمنا أنها لن تفيدنا كثيرا ، فهي لا تتضمن شيئا من البضائع التي يفضلها سكان الدواخل .

وتعرفنا على سيدي محمد الدغيس (Sidi Mohamed d'Gheis.) وكان وزيرا لدى الباشا ، تقاعد بعد أن أصابه العمى ، وأولانا الرجل كل رعاية واهتمام وقدم لنا معلومات طيبة . وكان الرجل قد سافر كثيرا الى أوربا ، ويعرف عادتنا وتقاليدنا جيدا ، وكان بهذا قادرا على أن يحيطنا علما بكثير من الامور ، التي كان جهلنا بها كفيلا بأن يكشف لاهالي الدواخل حقيقتنا كمسيحيين

ربما كانت أية محاولة مني للتعرض لوصف مدينة طرابلس محاولة عديمة الفائدة فقد سبقني الى ذلك كتاب هم أقدر مني .. ورغم هذا فانني على يقين بأن القارىء سيأذن لي بالحديث عن بعض المظاهر التي لفتت انتباهي ابان اقامتي بالمدينة .

يتمتع المرابطون . ولعلهم أكثر النماذج غرابة ، بشهرة عريضة في كل البلدان الاسلامية . ولعل أكثر ما أثار انتباهي أن الشروط الواجب توافرها في المرابط تختلف من بلد لاخر . ففي الوقت الذي يلتزم فيه المرابط في الداوخل بالتمسك بمظاهر الورع والتقوى ، كالامساك عن شرب الخمر واللفظ الشائن والوفاء لزوجاته الاربع وعدم اشتهاء زوجات الاخرين ، نجد أن هذه الامور لا تعتبر ضرورية في طرابلس . وهناك ينقسم المرابطون الى فئتين :

أولاهما فئة البلهاء ممن لا قيد على سلوكهم قولا وفعلا . وثانيتهما فئة عاقلة ممن يمارسون أعمال الشعوذة ويقدمون على مختلف الاعمال الخرقاء المقززة ، وهم بذلك يختصرون نموذجا من أكثر النماذج التى يمكن أن تلتقى بها ، تشردا وازعاجا .

وهناك بعض المساجد التى يجتمع فيها هؤلاء الناس بعد ظهر كل جمعة ، حيث يأكلون الثعابين والعقارب ... الخ ويتظاهرون بأنهم ملهمون ويقترفون أكثر الافعال تطرفا وغرابة ..

وفى التاسع من يناير عام ١٨١٩ بدأت احتفالاتهم السنوية واستمرت ثلاثة أيام بكل ما فيها من مراسم همجية . ويفترض أنه فى ذلك اليوم، وربما قبل ذلك ، أن يكون المرابط الكبير قد ألهب حماس المشاركين .

والمخبولون مستعدون دائما للسير فى المواكب ، ولعله من المسلى أن تلحظ فى ذلك اليوم نظرات الدهشة فى عيونهم أكثر من أى يوم آخر . وخلال تجوال المرابطين فى الشوارع يواكبهم الحراس والتابعون ، لايجرؤ مسيحى أو يهودى على الظهور دون أن يقامر بحياته . وحينما يبدون من شرفات منازلهم لا يسلمون من القذف بالحجارة .

ولما كنت فى ذلك اليوم أتخفى بلباس أهل المكان خاطرت واتخذت طريقى الى المسجد حيث يبدأ الموكب يرافقنى دليلنا . وكان يخامرنى احساس بدقة موقفى ، غير أن اصرارى على المخاطرة والتأكيد على الدليل بأن يتبعنى حيث أذهب ، طمأننى الى أن اندفع وسط الجموع ونجحت فى أن أقترب من «الاولياء» بشعرهم الاشعث يدورون ويرقصون وقد أسلموا أنفسهم الى أقصى حالات الهياج والخبل ، وفرقة موسيقية بربرية تصاحبهم ، بينما انشغل آخرون برش ماء الورد على الرؤوس .

ولا شك أنه لو اكتشف أمرى لتعرضت الى مالا يحمد عقباه ولكنى استطعت لحسن الحظ أن أمضى رابط الجأش ولم يفطن الى أحد . وحينما بلغ هياج الجميع مداه ، انطلقت الجموع تسير فى الشوارع والدروب .

ان أحدهم أعمل ظفره الطويل فى خديه والجميع يعضون ألسنتهم وينسال الدم واللعاب على الذقون . لقد كانوا جميعا أنصاف عرايا ، وبين الحين والاخر

تنطلق صيحات قصيرة حادة • وبينما يمضون يترنحون يمنــة ويسرة يرمون برؤوسهم الى الوراء فى حركات سريعة متشنجة يندفع الدم الى رؤوسهم فتجحظ عيونهم رعبا وفزعا •

وبشعورهم الطويلة السوداء التى تنبت من قمة الرأس حيث بقية الشعر حليق ، يتراقصون يمينا ويسارا • وكان هنــاك واحدا أو أثنين،وكانا أكثر الجميع هياجا ودأبا على مهاجمة الجموع •• ومضى الاثنان يحيط بكل منهما رجل يكبح جماحهما • وبينما يمضى الموكب فى أحد الشوارع اكتشف أمر بعض المالطيين وبعض المسيحيين فى احدى الشرفات وعلى الفور انهالت عليهم الحجارة من كل صوب وحدب •• وحينما يمر الموكب على بيت مسيحى ، يتظاهر المرابطون وكأن قوة خفية تدفعهم اليــه ، يتشممون بأنوفهم مواقع الــكفرة •

ومضت ساعة أو اثنتان (قبــل أن أعود الى المنزل) شهدت فيهما أكثر المشاهد رعبا وتقززا •وهناك علمت لدهشتى • أن اشاعة راجت مؤداها أننى قد اعتدى على وانني قد طعنت احد المرابطين دفاعا عن النفس وفررت هاربا لا أحد يدرى الى أين ، ولكم كنت سعيدا أن استطعت نفى هذه الشائعة وأن أثبت أننى شهدت الموكب دون أن يصيبنى أذى ودون أن يفطن الى أحد •

ولقد شاركت فرقتان من المرابطين، تنافس كل منهما الاخرى ، فى ذلك اليوم ••• وعلى هذا فقد روعى أن تسير كل فرقة فى طريق غير الطريق • ولقد كانت الفرقة التى لم أشهدها هى الفرقة الاكثر مقاما وعددا • وانطلقت من عند أسوار القلعة على رأسها « محمد » الذى كان يتردد على منزلنا يرعى الدواب ويقضى حوائجنا • ولم أكن أدرى حتى ذلك اليوم مكانة الرجل •

وقبيل الاحتفال قيل أنه أقصى الى منعزل نظرا لحالة الهياج التى انتابته •• وحينما اتخذ لكل شيء عدته •• واتخذ الباشا جلسة فى شرفته التى تطل على مستودع السلاح •• أطلق سراح الرجل الذى أندفع لفوره ألى حيث يقف أحد البغال •• وبقبضة يد واحدة بقر بطن الدابة وأعمل يده فى أمعائها •• وبدأ فى التهامها •• ان كثيرا من المرابطين يأكلون الــكلاب ومختلف

الحيوانات الاخرى ••وفى ذلك اليوم •• قتل غلام يهودى ربما على يد أحد المرابطين أو واحد من الاتباع (١) •

ان القدرة على الامساك بالثعابين والعقارب واحدة من صفات المرابطين • وقررت أن أحظى بشرف اللقب • واشترى لى السيد ريتشى بعض الثعابين وتعلمت سريعا كيف أقبض عليها دون أن أتعرض للدغاتها •• ورغبت أن أشهد الاسلوب الذى يمارسه المرابط فى القبض على الثعابين ، فأرسلت خادما فى طلب أكثر المرابطين شهرة بحجة رغبتى فى أن أصبح مرابطا • ومضى صاحبنا يقوم بالطقوس ويتمتم بالصلوات وبين الحين والاخر يبصق على يدى ويرش بفمه ماء الورد على وجهى •• وفى النهاية غسل فمه ويده بماء الورد وحينما أخذ يصب هذا الماء فى قنينة ، أمرنى بأن أشربه فى يوم حدده •• حينئذ سأصبح مرابطا أنافسه منزلة وعلو مقام •• هكذا بلغت تعليماته ، التى لم ألتفت اليها •

ويعقد كل أسبوع سوقان كبيران : أحدهما يوم الثلاثاء فى مكان رملى خلف طرابلس ، والاخر يوم الجمعة على بعد أربعة أميال من المدينة • وفى حدائق المنشية التى تحتل رقعة مساحتها أربعة أميال تتوسط الشاطىء والصحراء •

ويوجد بالمدينة حوانيت كثيرة تفتح كل يوم ، كما توجد شوارع مغطاة رصت على جانبيها بعض المحال الصغيرة • وهناك يقف المزايدون يبيعون العبيد وبعض السلع الاخرى ، ويحدثون جلبة وضوضاء ، وينادى كل محددا اخر سعر •

ولليهود حى خاص بهم ويسمى « زنقة اليهود » وهؤلاء الناس مكروهون كثيرا فهم يحتكرون كل أنواع السلع ويغنمون من وراء ذلك كثيرا ، ومحرم عليهم كما قلت من قبل لبس الملابس المزخرفة ويسمح لهم بلبس العمائم الزرق •

وهناك منازل كثيرة أعدت لاستقبال التجار وتقديم المشورة الى القوافل

---

(١) من الواضح ان معلومات المؤلف عن هذه الفرق كانت سطحية وتعتمد على السماع والانطباعات السريعة التى قصد بها احاطة رحلته بجو من الغرابة لاثارة الفضول وتضخيم المغامرة (المترجم) •

التى تسير شرقا وتسمى هذه المنازل « فنادق » • وهناك عدد قليل من المدارس التى تعلم القراءة والكتابة بطريقة مزعجة • والالمام بالقراءة والكتابة أمر غير ضرورى لأى رجل له مكانتــه ، ويوجد هنا مثال حى على ذلك ؛ فالوزير الحالى « سيدى حامد » الذى كان يشــغل وظيفة رئيس المرسى ، لا يعرف القراءة أو الكتابة ، وكثيرا ما سمعنا عن أمثلة أخرى كهذه ، وذات يوم أعطيناه مصحفا مقلوبا ورجوناه أن يقرأ لنا بعضا من سطوره ، وتظاهر بأنه يقــرأ لنفسه ، والكتاب مازال مقلوبا ، ووضع على عينيه كل ملامح الحكمة وهو يرد المصحف وقال « صدق الله العظيم » أما شيخ البلد فان العامة يعتبرونه متعلما وبارعا فى الحساب بالرغم من أنه كان يعمل نوتيا فى المرفأ •

لقد لاحظت أن هناك عادة واحدة منتشرة بين جميع المغاربة العرب ، من الباشا حتى أفقر سائس جمل ، وهى عادة التجشؤ يمارسونها معظم الوقت ، ويتجشأ العظماء منهم بهيبة وكرامة ويربتون على لحاهم ويشكرون الله على ما حباهم من صحة وراحة • ولقد كان المكنى استاذا فى هذا المضمار وكان ابنه يوسف ـ الذى لم يكمل عامه الثامن ـ يوحى بأنه سيماثله براعة • وكان لكل من المكنى وابنه طريقة فريدة فى التمخط فى طرف العمامة •

ويشغل المماليك (وهم أما من الطارئين على الاسلام أو من «العبيد») المجلوبين من جورجيا وشركس ، أعلى المناصب ، ولا يسمح لبنات الباشا بأن يتزوجن من غيرهم • ووصل أحد المماليك وكان من مواليد اسكتلنده ويدعى مرادالريس (Mourad Rais.) الى وظيفة قائد الاسطول • وأثناء زيارتنا كان منفيا وسمعنا من القنصل وبعض السادة أنه كان شخصية ممتازة •

والحمامات العامة الموجودة بطرابلس تشبه الى حد بعيد حمامات تركيا ومصر على الرغم من أنها لا تتميز بالفخامة فيما يتعلق بالزينة والحجم وحينما يخلع الرواد ملابسهم يلتفون برداء من القطن ويطرحون اخر على أكتافهم يتركونه قبل دخول غرفة البخار ، وهى حجرة مستديرة تعلوها قبة بها فتحات زجاجية ضيقة يتسلل منها بعض ضوء ولا يتسرب منها هواء • وتترك بضع قناديل موقدة ، فبخار الماء يجعل الرؤية صعبة وعلى جوانب الحجرة رصت مقاعد حجرية عريضة ، وفى المنتصف يتربع قرص حجرى كبير مشيد فوق

الافران • ولا بد أن تستلقى فوقه قليلا لتكون جاهزا للرجال الذين يقومون بتدليك وتنظيف أجساد الرواد ، وينتظر المستحم قليــلا حتى يتفصد عرقا ويتناوله الخدم بعد ذلك يدلكون جسده بقفازات من الشعر حتى تنزل الاوساخ قشورا فى لفات طويلة سوداء مهما كان الجسد نظيفا قبل ذلك • وبعد أن تنتهى هــذه العملية ويسمونها « التمرس » يؤتى بقطعة من الصــابون الى المستحم ثم يظل طويلا تحت صنبور يتدفق منه ماء ساخن ، ويتسلم المستحم بعد ذلك لباسا جافا يلتف به جيدا ويجلس فى غرفة أخرى تقدم فيها القهوة ، و«النرجيلة» والعطور •• ثم يرتدى المستحم ملابسه ويمضى لحاله • وأجر الحمام ، دون صابون •• يســاوى ما قيمته خمسة بنســات وهو مبلغ كبير نسبيا • ويرتاد الرجال الحمامات فى الصباح وتأتيه النسوة فى المساء •

وحين يركب الباشا حصانه متجها الى المنشية ، وهى منطقة الحدائق القريبة من المدينة ، يصحبه أبناؤه ومجموعة كبيرة من الفرسان من المماليك ورجال البلاط والجميع فى أبهى حلل ، يمضى الركب فى فوضى ، ويتجمعون حول الباشا وربما عن لبعضهم أن يتركوا القافلة ، ويسرعوا الخطى ، يسبقون الجميع ويصيحون ويطلقون النار ثم يعودون أدراجهم ملتحقين بالموكب • وحينما يعود الجميع الى المدينة ينتظم الرجال فى مجموعات صغيرة ، وكل يطلق النار فى الهواء بينما تركض الخيول بأسرع ما تستطيع ، وحينما تسمع الجياد طلقات النار تجمح وترفع رؤوسها وترتكز على أقدامها الخلفية وتصهل بقوة وتعطى صلابة رمال الشاطىء فرصة طيبة للفرسان للقيام بمثل هذه المناورات • وأكثر من نصف حراس المكنى من السود ويلبس كل منهم لباسا مختلفا ويبــدو منظرهم مثيرا للغرابة ولا يوجد أى تناســق فى شكل أو لون الخيــول وهم يلجمونها بقسوة ولا تجد حصانا الا وينزف دما من فمه ، ويستخدم الفرسان المهماز بقسوة وتترك طعناتهم علامات واضحة على جسد الدابة ، واعتاد الاهالى كى الخيول على أفخاذها بعلامات على شكل خطوط ونجوم •

ان أسلوب العقاب المتبع فى طرابلس وربما ـ فيما أعتقد ـ فى كل البلدان الاسلامية ، يختلف كلية عما هو متبع فى أوربا • وتعتبر بعض الافعال جرائم عقوبتها الاعدام بحكم القانون ، الا أن العديد منها يخضع لهوى الباشا ، وفى

هـذه الاحوال تطبق عقوبات الشنق أو ضرب العنق أو الخنق ، ولا يشتغل المغاربة بوظيفة الجـلاد وانما يختار لها أحد اليهود ، ويساق المذنب برفقـة الحراس والاهالى الى احدى الاستحكامات التى تقع أعلى بوابة المدينة ويلف الحبل حول عنق الضحية ويدفع من احدى الفتحات ليسقط جسده ويظـل معلقا ليره الرائح والغادى • وحينما تطبق عقوبة ضرب العنق يعرض الرأس فقط أمام العامة •

ووسائل التعذيب معروفة أيضا بالاقليم ، ولكن لمـا كان هـذا الاسلوب مقصورا فقط على سجون القلعة فلا يجرؤ أحد على أن يصفه • والسرقة (كما تقضى الشريعة الاسلامية) (١) بتر اليـد ، وربما القـدم أيضـا ، واذا تكرر الجرم يمتد البتر الى اليد والقـدم الاخريين • ولقـد شاهدت أحدهم ذا يد مبتورة ، ولا شك أنه اقترف جريمة كبيرة • وهم يقطعون الاوصال بموسى ، وقبل البتر يلف حبل حول الساعد أو الكاحل باحكام ويغمس ما بقى من العضو المبتور فى قار ساخن ، ويمضى المجرم وسرعان ما يشفى ـ لدهشتى ـ دون علاج سوى ما ذكرت • أما الضرب بالعصا على الاقدام أو المؤخرة فهو عقاب الجرائم الصغيرة وربما يؤدى هـذا الضرب أحيانا الى الوفاة • ويجلد المجرم فى الغالب ما بين أربعمائة وخمسمائة جلدة(٢) ، الا أن خمسين جلدة هى الحصة المعتادة • ويستطيع بعض المجرمين ـ عن طريق الرشوة ـ أن يتحايلوا عند تنفيذ العقوبة عليهم بحشو سراويلهم ببعض الملابس • وتطبق هذه العقوبة على كل المستويات وربما تعرض لها أحد أبناء الباشا أو وزيره أو شيخ المدينة ويقبلون عليها رغبة فى ادخال السرور على الباشا دون أن يشعر واحد منهم بأمتهان ، أو بأن كرامته قد أصابها مكروه •

وقضينا فترة ليست بالقصيرة فى طرابلس حتى رأيت الزى الذى تلبسه النساء داخل البيوت ، وهو يتكون من عباءة تلف الجسد كله والرأس ، ولا

---

(١) حد السرقة ـ كما هو معروف فى الاسلام ـ لا يقام الا اذا تحققت شروط خاصة •• وعند تحققها •• يقام الحد ،فاذا تـكررت السرقة يقام الحد على نظام خاص ففى المرة الأولى تقطع اليد اليمنى•• وفى المرة الثانية تقطع القدم اليسرى ثم اليد اليسرى فى المرة الثالثة •• وفى المرة الرابعة تقطع القدم اليمنى (المراجع)

(٢) فى تحديد هذا العـدد مبالغة واضحة •

يظهر من صاحبته سوى عين واحدة ، كما يرتدين أحذية حمرا ، وحينما يكن بالمنازل يلبسن خفا أصفر أوأحمر وتلبس نساء الطبقة الغنية لباسا رائعا ، يتكون من قميص حريرى تتخلله خطوط متعددة الالوان وصديرية مطرزة، وسروال حريرى وعباءة من الحرير أو القطن الناعم ذات ألوان زاهية تلف حول الوسط كما لو كانت تنورة ، ويرتفع طرفها يغطى الرأس والاكتاف ويلبسن على رءوسهن غطاء مطرزا من القماش وموشى بالذهب • وتطلى الاجفان بمسحوق أسود يزيد من بريق العيون ، وتسوى الحواجب لتبدو مستقيمة تماما وتميل قليلا عنـد نهايتها ، كما يستعمل الصبغ الاحمر بكثرة وتلبس الاقراط الذهبية والفضية فى الاذن وتتدلى قرب الكتفين كما تلبس الحـلى واساور الذهبية والفضية فى الايدى والارجل - ويختلف زى نسوة اليهود قليلا عن لباس نساء المسلمين ، الا أن لباس الخروج يختلف فى أنه يكشف عن العينين معا ، ولا يلبسن النعال السود أو الصفر ومحرم عليهن لبس الحذاء ذى الرقبة الذى يتخطى الكاحل •

والعملة المستخدمة هذه الايام ومنذ عدة أعوام خلت تحتوى على ١٤٪ من وزنها فضة وتنخفض قيمتها يوما بعد يوم •

وبالقرب من باب البحر توجد بقايا بناية رومانية مربعة وقد سد الاهالى أقواسها واستخدموها مخزنا (١) •

ومراسم الزواج بطرابلس كما سمعت - فليس مسموحا للرجال برؤيتها - غاية فى البهجة ، وتنتقل العروس من بيت أبيها الى منزل زوجها فى المساء تصحبها مجموعة كبيرة من النساء بعضهن يحملن المصابيح ويطلقن الزغاريد التى تجلجل ، وترتفع الى السماء !

أما طقوس الدفن فلا شىء منها يستحق الذكر ، ويوضع الجسد فى النعش ويغطى بالقماش وتتلى عليه آيات من القرآن ، ويحمله أصدقاؤه يودعونه على

---

(١) هناك كتابات واضحة على النـاحية الشمالية وهى كما يلى :

MP. CAES. AVRELIO. ANTONTN. AVG.PP ET. IMP. CAES.L. AVRFLIO. VERO. AMENIACO. AVG. SER.S. ORFILVS. PROCCOS CVM. VTTEDIO. MARCELLO. LEG· SVO.DEDICAVIT.C. CALVRNIVS. CELSVS. CVRATOR. MVNERIS. PVB. MVNERARIVS. IIVIR. Q.Q. FLMEN. PEA.RPETVVS. ARCV. MARMORE. SOLIDO. FECIT.

عجل وهم يتمتمون ببعض الجمل والاناشيد الدينية (أما القبر فلا يميزه سوى قطعـة من الحجر توضع عند مكان الرأس) • أما مراسم دفن النساء فلعلها أكثر اثارة وأبهة وتعقيدا•ولقد قدر لى أن أشهد جنازة ابنة الوزير ، وحفيدة السلطان ، ورأيت الناس يحملونها الى مثواها الاخير وقد لفت بكفن أرجوانى من قماش غال ، موشى بالذهب كتبت عليه بعض آيات من القرآن بخيوط من ذهب • وعنـد الرأس استراحت باقة ورد منتقاة ، وبعض حاجيات الفقيدة تعطى الكفن ، وخلف النعش تمشى النسوة يحملن باقات الزهور•وعلى عكس أبهة ما يلبسنه فى الاحوال العادية ، يلبسن ملابس قديمة وتبـدو وجوههن خاليـة من الاصباغ ، وصدورهن خالية من الحلى • وقد رأيت الوزير نفسه يتصدر الموكب ، وعلى الرغم مما يشاع عن قسوته وغلظة قلبه فقد كان بادى التأثر • ومن عادة القوم فى هذه المناسبات اعتاق عبد أواثنين ، كما توزع الاطعمة على الفقراء الذين يتجمعون بكثرة فى مثل هذه المناسبات • وتختلف هذه الاطعمة تبعا لقدرة أسرة الفقيد ، وتتباهى كل أسرة بالانفاق على روح فقيدها • وهناك بعض النسوة اللاتى يتكسبن من ارتياد منزل الفقيد ليبكين ويندبن الفقيد ويطلقن الاهات والصرخات وتستمر هذه الاحزان ثلاثة أيام ، ويبدو أن الضجة التى يحدثنها لا تكفيهن فيقمن بدق الطبول والاوعية الفارغة • ولقد أفاضت السيدة « تولى » فى كتابها(١) فى وصف مراسم هذه المناسبات وصفا يجعل أى استطراد منى غير ضرورى على الاطلاق •

ولقد وجد السيد ريتشى أن المكنى يتلكأ فى تحديد موعد الرحيـل ، وربما انقضت أسابيع عدة قبل أن يبدأ فى الرحيل ، ولهذا فقد قررنا أن نستغل هذا الوقت فى زيارة بنى وليد وجبال غريان • ووافق الباشا على أن يرافقنا واحد من رجاله •

وفى هذه الاثناء قرر السيد ديبو فجأة أن يتخلى عن وظيفته التى رافق السيد ريتشى من أجلها ، وتركنا فى مأزق حرج ، وكان واضحا انـه أعطى أذنه لبعض الحاقدين على الرحلة •

---

(١) عشر سنوات فى طرابلس ترجم الى العربية ونشرته مـكتبة الفرجانى طرابلس ـ ليبيا •

الرحلة الي جبال غريان وبني وليد

الأحد ٧ فبراير ١٨١٩ ·

تركنا السيد بلفورد فى طرابلس وغادرناها فى العاشرة وخمس دقائق وقطعنا شوطا طويلا عبر حدائق المنشية قبل أن نبلغ فى الحادية عشرة منطقة صحراوية جنوبى منطقة الحدائق وقريبا من ضريح أحد المرابطين ويدعى « سعيد » وفى هذه المنطقة ترتفع الرمال وتشكل أكاما عارية غير منتظمة ، والمكان قاحل لا توجد به نبتة خضراء واحدة · وتابعنا المسير حتى الخامسة مساء حيث وصلنا الى بقعة معشوشبة تغطيها الحشائش الخضر التى ترعاها الماشية وقد هجع اليها بعض البدو ونصبوا بها خيامهم ، وتوقفنا قليلا فى انتظار الجمال وطلب الدليل من « شيخ العرب » عشاء فأعد لنا وعاء من اللحم «والبازين» ، وتدافعت نحونا كل الصبايا يحملقن فى الغرباء ·

الأثنين ٨ فبراير ·

استأنفنا الرحيل فى الثامنة صباحا ومضينا تجاه الجنوب الغربى عبر منطقة صحراوية وفى العاشرة بلغنا منطقة مزروعة حيث يوجد واد تغطيه بضع خيام وترعى فيه الماشية ، وتوقفنا بالمكان لنتفقد بقايا قلعة ووادى « المجينين » ولقد استخدمت هذه القلعة كواحدة من مراكز دوريات الحدود ، أقامها الباشا ليهيمن على جماعات العرب العاصية · ولما كانت القلعة مشيدة من الطين والحجارة الصغيرة فقد هدمتها الامطار ولم يبق منها سوى حائط وبوابة واحدة · ويطل الوادى على مشهد رائع لجبال غريان · وتركنا المكان واستأنفنا المسير حتى الواحدة والنصف ظهرا ، حيث توقفنا عند خيمة نزولا على دعوة صاحبها الذى استقبلنا بحفاوة بالغة وقدم لنا بلحا مهروسا ممزوجا بزيت ساخن طاب لنا كثيرا ولا يختلف ظهره كثيرا عن الصابون الناعم · وجلست النسوة خلف الستر ، ورحن يتلصصن علينا من خلال الثقوب ، وودعنا مضيفنا ، ومضينا وعبرنا مجرى ماء وانحسر الطريق بين جبلين احدهما ــ الى اليمين ــ ويسمى سيران (Smeeran) والاخر على اليسار ويطلقون عليه باتوس (Batus) ،

والمسافة بينهما لا تتعدى ميلا ونصف ميل • وارتفع الطريق قليلا وبدأت مساحات شاسعة من الكلأ تملأ العين • ومضينا على أمل أن نجد عين ماء ، واستمر بحثنا دون جدوى حتى الرابعة مساء ، حيث نصبنا خيامنا بالقرب من بعض العرب ، واستطعنـــا بعد لاى أن نشترى منهم قليلا من المـاء للدواب • وقدم لنا الشيخ طبقا من اللحم والبازين • وتجمع حولنا العرب وافترشوا أرض الخيمة وقد جلسوا القرفصاء وأخذوا يحملقون فينـــا ونحن نتناول الطعـــام • وشربنا أقداح القهوة وأعطينا بعضا منهـا الى الشيخ ، وكان يتوقع بعض المال ، ولم يكن يدرى ماذا يفعل بها ؟ وتردد كثيرا قبل أن يمـد يده،وحينمـا تأكد أننا نشرب منها رفع ألقـدح الى فمـه بكل ثقة • وشربها اخر ولم تكد القهوة تبلغ حلقه حتى بصقها على الفور وصـاح قائلا « يا رسول الله » بينما شربها ثالث وسر بها ، ورفض أن يأخذ قدحا اخر بحجة أنهـا كانت باردة أكثر من اللازم • ومن بين الاشيـــاء التى نحملهـــا حظى المشكال باعجابهم ، وندت عنهم صيحـات السرور والدهشة ، وهم يتخاطفونه كالاطفال ، ورفض الشيخ العجوز مرارا أن يأخذه أحد من يديــه •

ويوجد بالمكان الضباع والثعالب بكثرة، وتمنعهم الكلاب من الاقتراب من القطعـان •

الثلاثاء ٩ فبراير :

عاودنا الســير فى الســابعة صـباحا واتجهنا جنـوبى غريان وهنا أخـذ المكان مظهـرا مختلفـا ، فالطـرق غـير مســتوية مغطـاة بقطـع البـازلت الصغيرة • وحينما اقتربنا من سفح الجبل أمسى الطريق وعرا وغير منتظم • وفى الثالثة ظهرا سرنا قليلا على يسار الطريق ، وتسلقنا جبلا مخروطيا صغيرا من البازلت يغطى التراب قمته ويسمونه « الكلبالاسود » وبالقرب منه توجد ثلاثة تلال صغيرة من البازلت • ومضينا فى طريق وعر عبر واد جميل يفترش سفح الجبل ، وفى العاشرة بلغنا سفح جبل غريان • والمنطقة محاطة من نواح

---

(١) المشكال : اداة تحتوى على قطع متحركة من الزجاج الملـون ما أن تتغـير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لانهاية لهامن الأشكال الهنـدسية المخلتفة الألوان (المعرب) •

ثلاثة بجبال عالية وخالية من ناحية شمال الشرق ، بالمكان بضع أشجار نخيل مبعثرة يتخللها غدير • ومرت بنا قافلة صغيرة تضم ما بين عشرة واثنى عشر جملا ، من بينها واحد ، أو اثنان من جمال المهارى • والجمال محملة بالاطرون وقادمة من فزان • وكان رجال القافلة سمر البشرة تبدو على ملامحهم الغلظة ويختلفون تماما عن عرب طرابلس • ومنذ عشر سنوات قتل رسول الباشا (خزندار) Hassandar الذى أرسله لجمع الخراج وكان فى طريقه ليجبى ضريبة من سكان الجبل ، ولم يكن الباشا يستطيع أن يجمع الخراج الا بالقوة وبينما الرسول يتوضأ أصابه عيار نارى أرداه قتيلا ، وعاد رجال الباشا الى طرابلس لتعلن الحرب على الفور • وأنفذ الباشا جيشا لتأديب العصاة ، وشكل رجال الجبل مقاومة شديدة • واستغرق جنود الباشا فى تسلق الجبال أسابيع عديدة ، وفقدوا كثيرا من رجالهم ، ونجح الجنود فى النهاية فى احتلال الموقع ومارسوا كل أنواع القتل والتنكيل فى رجال الجبل المساكين ، بل وخنقوا الكثير منهم ، وقذفوا بهم فى القبور وهالوا عليهم الحطب والخشب وأضرموا فيهم النار • وحمل اثنا عشر جملا رؤوس القتلى التى بلغ عددها ألفين ، وسارت الجمال فى شوارع طرابلس تستعرض الرؤوس • ومنذ تلك الحادثة جنح رجال الجبال الى السلم وكانوا قبل ذلك غاية فى الجرأة والشراسة ، وقليل من الناس من كان يجرؤ على المرور فى أراضيهم • واسغرقنا ساعة فى صعود الطريق وتعتبر هذه المرحلة من أصعب مراحل الرحلة وأكثرها خطورة ، فالصخور ملساء ولا بد من عناية فائقة لقيادة الدواب ، فخطوة واحدة لا يحسب حسابها كفيلة بهلاكنا وسقوطنا من أعلى الجبل • وبالقرب من المكان الذى توقفنا فيه يوجد برج به فرجات أعدت للبنادق • ولقد بنى الباشا كثيرا من هذه الابراج بعد هزيمة رجال الجبل ولقد شيدها الباشا كمواقع دفاع ضد العصاة ، الا أنها لم تستخدم منذ بنائها ولهذا فقد أضحت حصونا يلجأ اليها للدفاع عن جبالهم بعناد أشد عندما يفيقون من هزيمتهم ليعودوا الى عصيان أوامره الباغية • وتوقفنا بالقرب من بضعة « أوكار » ولا أستطيع أن أسميها قرية فكل مساكنها تحت الارض • وحينما اكتشف شيخ المكان أننا تحت حماية الباشا جاء يرحب بنا وأعطانا الكوخ الوحيد حيث أنزلنا الاحمال واستراح الرجال • وفضلنا نحن منطقة فضاء وضربنا خيامنا وأحاطت بنا جيادنا وجمالنا

والمكان يسمى بنى أبعس • وسكان الجبل يسكنون فى كهوف كما أسلفت ، ولهذا فربما عبر عابر دون أن يشعر بوجودهم • وكل الكهوف نمط واحد ووصف مسكن الشيخ نفسه ينطبق على بقية الاوكار ، فالسقف عبارة عن غطاء رملى ومدعم ببعض الحجارة ويبلغ سمكه حوالى أربعة أقدام ، وتحت هذا « الغطاء » فراغ يصل عمقه ما بين خمسة وعشرين وثلاثين قدما ، وعرض الحجرة يبلغ قدر عمقها ؛ وربما شكلت الابعاد مكعبا كاملا • وجوانب المأوى سويت حتى بدت جدرانه متعامدة وشق الباب فى واحد منها ، ويسمح الباب بدخول النور والهواء • كما تحفر بعض حجرات ذات مداخل واسعة تسمح بقدر أكبر من الهواء والضوء ، وفى بعض الاحيان يحفر الحيز كله ويقسم الى عدة حجرات بينما نجد مأوى آخر لا يضم سوى حجرة واحدة وذلك تبعا لعدد ساكنيه • وفى العادة توجد بئر بجانب الاوكار ، ويمكن أن تجد الماء على عمق عشرة أو اثنى عشر قدما • أما مدخل « المأوى » فيبنى على بعد ست وثلاثين ياردة من موقع الحجرات وينتهى بفتحة فوق الارض وتكون الفتحة مقوسة فى العادة وفى اتجاه الريح ، وهى مظلمة تماما • على أن بعض هذه المداخل يكون من الكبر بحيث يتسع لمرور جمل محمل • وللمدخل سقف مدعم ويشبه الى حد بعيد منازل الاسكيمو ، كما أن له بابا ثقيلا يغلق فى الليل وفى حالات الخطر ، كما يوجد باب آخر على بعد عشر ياردات من قاع المسكن • وبهذا يصبح من المستحيل دخول أو احتلال المأوى اذا ما أراد ساكنوه الاعتصام فيه • ولا يستطيع المهاجم أن ينهى المعركة لصالحه سريعا عن طريق الحصار ، فلن يموت سكان الكهف جوعا على أية حال ، فخرافهم ودجاجهم تأوى الى الكهف فى المساء • وحينما هاجمهم رجال الباشا لجأوا الى خنق نزلاء الكهوف ، فهى سيئة التهوية ، بعد أن عجزوا عن قتلهم جوعا •

وعند تلك القرية يتمدد الجبل ليصنع واديا رائعـا تفرشه حقول الذرة والزعفران وتنتصب أشجار الزيتون على مسافات متقاربة لتعطى المشهد طابعا بهيجا جديدا يشارك فيه وحشة الجبال التى تحتضن الوادى • وفى موقع أعلى الدرب أطلت عيوننا على أروع مشهد للمنطقة كلها وجبل الكلب الاسـود يربض ناحية شمال الشرق • وعلى بعد ستة أميال من موقعنا استطعنا أن نلقى

نظرة فاحصة على الاماكن التى عبرناها ، واستطعنا أن نرى المنطقة الصحراوية التى تمتد خلف طرابلس ، أما البحر فلم نستطع رؤيته فقد حجبته عنا الضباب •

ويبدو أن شباب « الدوار » أو القرية سعداء باقليمهم ، فتراهم ، يتواثبون من صخرة الى أخرى فى خفة الماعز ، ويبدون كما لوكانوا أكثر الناس حيوية وصلابة •

لقد كانت معرفتى المحدودة بلغة أهل المكان مصدرا دائما لاسفى وندمى ، وربما ساهمت رحلتى هذه ــ فيما بعد ــ فى أن أجتهد فى دراسة هذه اللغة •

وعدنا جياعا وجلسنا الى العشاء المكون من بازين وبيض ولحم بينما وقف الشيخ يلبى طلباتنا • وتحتم آداب اللياقة أن يقوم المضيف العربى بتقديم اللحم وتقطيعه لضيفه وأن يلقب له البازين فى الحساء ، ولايجد العربى سوى أصابعه يفعل بها كل شىء وهنا يكون للجوع الكلمة الاخيرة ، وتقبل رغم أنفك ــ أن تأكل وجبة عربية •

وفى المساء غصت خيمتنا بالضيفان جلسوا القرفصاء يحملقون فى دهشة لبعض « الغرائب » التى عرضناها عليهم وكان أكثر هذه الاشياء غرابة لديهم هو « حجر المغنطيس » الذى استطاع أن يجذب سكينا من جرابها ، وكان بالتالى مادة لحدسهم وهمسهم •

ولقد كان الشيخ نموذجا للطيبة والكرم ، ولكن هل كانت حفاوته هذه ــ خوفا من رجال الباشا أم أنها نابعة من رغبة حقيقة لديه ؟ لست أدرى ! •

وان كنت أرجح التفسير الاول ، فالخوف من السادة ، وحب الهدايا والهبات يلعبان دورا له وزنه (١) ، وفى العشاء قدم الينا الشيخ طبقا رائعا يسمونه Hatrla وهو يشبه الكرونة ولا يقدم الطبق هذا على أية حال الا ــ للضيوف ذوى المكانة الرفيعة •

---

(١) هذا التفسير يخالف ما طبع عليه العربى من كرم ··· (المراجع) •

فى المساء صحبنا شيخ باتوس (Battus) وكان رجلا لطيفا شجاعا تبدو عليه سيماء الجندية وكان فى زيارة لشيخ المكان • ولقد أصبحت وشيخ (Battus) أصدقاء ، ومن خلال حديثنا الصامت قدمنا مشاهد مسلية لبقية الرفاق ودعانا الرجل للصيد فى بلده ووعدنى بهدية عربية طيبة • وأخبرنى الرجل أن المسيحيين استوطنوا جبله منذ آلاف السنين ولكنهم لم يستطيعوا البقاء به أكثر من أربعين ليلة وهذا دليل واضح على أنهم كانوا أقل شأنا من قبيلته التى كان يتزعمها أحد أجداده •

وكان الرجل أنيقا فى لباسه ، ومسلحا بسيف يطل من غمده ومسدس يتدلى من جرابه وكان قد أصيب فى ذراعه فى حرب بين رجاله ورجال الباشا وربما كان هذا الجرح سببا فى السعال الذى ينتابه بين الحين والاخر • ولم يكن يسره كثيرا أن تسخر من طريقته فى وصف مواجعه • ان جميع الكلاب هنا بيضاء اللون ••• وحينما تبعنا كلبنا البنى فزعت منه النسوة والاطفال ••• فقد حسبوه ذئبا •

وهناك يهود كثيرون يعيشون فى منطقة الجبال ويسكنون فى كهوف أكثر نظاما من الكهوف التى يسكنها بقية العرب ، وهؤلاء القوم ، كما هو حالهم فى طرابلس ، هم اصحاب الحر فالوحيدون ويبدو أنهم يتعرضون هنا لمعاملة لا يحلم بها اليهود فى مكان آخر •

وأمطرت السماء مدرارا هذه الليلة وكان الجو باردا ، واحتمينا بخيمتنا ننشد الدفء والجفاف • ومن القرية شاهدنا جبلا يسمى تكوت (Tekoot) ويقع فى اتجاه الجنوب الغربى بزاوية ٢٣ درجة من الجنوب •

الأربعاء ١٠ فبراير •

تركنا بنى أبعس فى السابعة وعشر دقائق صباحا فى طريقنا الى قلعة غريان أو قصر الترك كما يسمونها • ومضينا عبر الوادى حتى بلغنا جبلا عاليا وصعدنا منحدرا قاسيا وتابعنا السير عبر نتوء حاد على قمة الجبل ثم صعدنا جبل « تكوت » حيث اسطتعنا أن نحدد المواقع التالية •

بنى أبعس شمال شرق ٣٣ درجة ، قصر الترك جنوب غرب ٣٥ درجة ،

جبل مروبى (Melghra) جنوب شرق ٥٥ درجة وجبل آخر جنوب غرب ٥ درجات ويقع على بعد خمسة وعشرين ميلا وكانت تسكنه فى هذا الوقت قبيلة عاصية وعلى رأسها شيخ يسمى خليفة . ونظرا لارتفاع الموقع الذى نطل منه فقد تعذر علينا أن نميز بعض المواقع التى كانت واضحة جدا للعيان من الوادى ولسوء الحظ فقد كسر البارومتر الذى نحمله أثناء الصعود ، وعليه ، فلم نستطيع أن نحدد تماما ارتفاع الموقع . وبالمكان يوجد ضريح أحـد المشايخ ويحكى عنه الاهالى حكايات عجيبة .

وحينما كانت تنشب الحرب بين الاهالى وبين الباشا كان الرجال يشعلون النار ليلا أو يطلقون الدخان نهارا كاشارة للقبائل الموالية أن تهب لنجدتهم ، وطالما تكرر ذلك فى السنوات الاخيرة . وصاحبنا ثلاثة من العرب أثناء صعودنا الجبل وكانوا يشرحون لنا الطريق وجمعوا لنا ثمارا سوداء من شجرة شوكية قصيرة ذات زهور صفراء يسمونها « دماغ » أو مخ . وللثمار مذاق قابض يشبه طعم البرقوق الناضج الا أنها أصغر حجما . وقال لنا الرجال أن عرب غريان يذكرون القنصل الانجليزى دائما بالخير فقد أقنع الباشا بأن لا يزيد عليهم الخراج المقرر (١) كما كان ينوى أن يفعل .

وعند الظهر بلغنا مجموعة كهوف ، ويطلق على المكان اسم « القواسـم » وتقع «القواسم» على بعد ستة أميال من بنى أبعس . وكهوف القواسم تشبه الكهوف التى أسلفنا شرحها فى صفحات ماضية وفى المساء بلغنا مبنى غير مأهول قررنا أن نمضى الليل به . وتدل بعض النقوش التى تملأ جدرانه على أنه بنى منذ أكثر من مائة وخمسين عاما ، حيث امضى ابو الباشا الحالى هو وجده بضع ليال به . والمبنى مشيد بنفس الأسلوب الذى شيدت به مبان كثيرة فى المنطقة وفى منتصف أحد الممرات السفلية توجد فتحة منحوتة فى الصخر تؤدى الى الطابق الثانى والثالث وهو عبارة عن قطع خشبية مبنية على الحائط والأسقف مشيدة من فروع الشجر التى تهتز تحت قدميك ، والمداخل عبارة عن فتحات ضيقة . وأسلوب بناء هذه المبانى العسكرية يدل على أزدراء متعال للمهارة

---

(١) هذا يكشف أساليب المستعمرين فى بسط النفوذ (المراجع) .

الهندسية ودقتها . وعلى حافة أحد التلال يوجد كهف هائل يقطعون منه حجر الرحى الجيد . وأمضينا الليلة بالمكان حيث استمتعنا بدفء كاف بفضل النيران التى أوقدت بوسط الكوخ . وسقطت الأمطار مدراراً طول الليل .

الخميس ١١ فبراير .

رحلنا عن المكان فى السابعة صباحا ، ومضينا عبر الجبال صوب القلعة ، وفى موقع شمالى جبل «تكوت» وعلى بعد ثلاثة أميال منه ، أكتشفنا مبنى رومانيا على هيئة معبد أو مذبح ، ويشمل المبنى مساحة قدرها الاثنا عشرقدما مربعا والشكل الحالى للبناء أو الأطلال ، ان شئت . الدقة ، يدل على أن ارتفاعه كان يتراوح بين عشرة أقدام وأثنى عشر قدما . ولم نتمكن من اكتشاف اية كتابة على المبنى ومرة ثانية امتد الطريق أمامنا عبر درب وعر ، توقعنا أن نشرف منه على مشهد رائع،لكن الجبال ـ مع الاسف ـ كانت تختفى وسط الضباب الكثيف فلم تعد تكشف عن شيء .

ويفصل هذه الجبال واد عميق ،لعله يمتد بعيدا فى بطن الصحراء. وكانت قمم الجبال خضرا تماما ، وأشجار التين والزيتون والعنب تبدو مزدهرة ، رغم الضباب ، ولاحظنا أن الاشجار مزينة بجماجم الجياد ، والجمال ، والخراف ، لتمنع عنها وعن ثمارها عين الحسود . وفى الساعة الثانية بلغنا القلعة وهى مبنى كبير معتل البناء ، ومشيدة من الصخور وينتصب برج على كل زاوية منها ، وبها بهو رحب وحظائر للجياد وفتحات واسعة للمدافع ـ سدت بالطين ـ وكوات ضيقة للبنادق . ويوجد خمسة أو ستة مدافع من عيار « ستة أرطال » مقلوبة ، وان كنت أشك فى أن واحدا من الاهالى يجرؤ على اطلاقها . ويحتفظ شيخ البلدة المجاورة بمفتاح القلعة ، والمفتاح لا يستخدمه الا القائد الذى يأتى لجمع الخراج الى « بك غريان » . وكان وجود أحد رجال الباشا معنا مهما للغاية ، فحيثما نقف يهرول الينا الاهالى ويقبلون يده ويقدمون له الهدايا . وفى المساء أحضر أحدهم مفتاح القلعة ،ونمنا بها حتى الصباح ، وقيل لنا أن الحجرة المجاورة تسكنها الغيلان والعفاريت فقد قتل بها كثير من السجناء .

الجمعة ١٢ فبراير •

خرج السيد «ريتشى» فى الصباح فى جولة لدراسة نباتات الاقليم ، ومضيت أنا لصيد حيوان يسمونه « قندى » ، واستطعت أن أصطاد ثلاثة منه وأعددتها لارسالها الى المتحف البريطانى ، وفى تقديرى أنها ستكون أول عينة من نوعها فى أوربا • ويشبه « القندى » الخنزير الغينى (١) فى مظهره ، الا أن لون فمه بنى فاتح ، وله شعر أطول من شعر الفأر • وعيناه سوداوان واسعتان ناتئتان ، وعظمتا أذنيه الملتصقتين على جانبى وجهه سوداوان أيضا وخاليتان من الشعر ، وجسده مستدير ممتلىء واسع من عند الصدر • ويعيش القندى بين الصخور ويأكله العرب بشهية فله لحم أبيض ناصع يشبه لحم الارانب •

ويوجد على بعد نصف ميل من القلعة مكان يقال له « تغسات » ويعقد بـه سوق مرة كل أسبوع • ومررنا بهـذا الموقع فى الثانية ظهرا ومضينا مسافة أربعة أميال الى الجنوب حيث قرية تسمى « تغرنة » ويسكن أهلها منازل فوق الارض وأوكارا تحت الارض أيضا • وضربنا خيامنا ، وجاءنا حداد يهودى وصنع لنا حدوات لجيادنا ، واحتفى بنا الرجل وذبح لنا نعجة وأعد لنا خبزا ناصع البياض وأعطينا لليهودى المسكين هدية ــ وكانت مفاجأة للرجل ، فلا أحد يعامل اليهود بمثل ما لقيه منا من طيبة وكرم (٢) •

وعلى بعد ثلاثة أميال من هذا المكان توجد قرية تسمى (اوسادن Usadena) ويقال أن الباشا قتل كل سكانها نساء ورجالا عند غزوه للبلاد وأن منازلها تهدمت تمـــاما •

وتشتهر غريان بجودة زيتها وزعفرانها وحبوبها وبوفرة انتاجها • ورجال غريان منتصبو القامة تلوح على محياهم الانفة والكبرياء ، ويقوم كل منهم بدفع نسبة من محصوله الى الباشا • ويقوم اليهود بوزن وتعيين نصيب الباشا ويدفع لهم الاهالى أجرا مجزيا حتى يتلاعبوا فى الموازين على الرغم من أن التلاعب

(١) حيوان صغير قارض يستخدم فى التجارب العلمية بكثرة ويشبه الارنب الى حد كبير •

(٢) هـذا كلام غير صحيح ، بدليل حياة مثل هذا اليهودى •• فى ذلك المكان البعيد •• فلولا حسن معاملة المواطنين له •• ما استطاع الحياة (المراجع) •

بالكيل والميزان يعتبرا اثما كبيرا فى الاسلام • الا أن الاهالى يعتقدون أنه لاوزر عليهم اذا تلاعب اليهودى بالكيل والميزان(١) أما عن لباس وطعام العرب فسوف أسهب فى الحديث عنه فى صفحات قادمة •

السبت ١٣ فبراير •

فى السابعة صباحا تركنا موقعنا فى طريقنا الى بنى وليد ، وامتد الدرب عبر ممرات وعرة بين الجبال وملأنا قرابنا من ماء المطر المتجمع فى بعض المناطق الواطئة ما يكفينا لمدة ثلاثة أيام • ومضينا عبر منطقة عارية صخرية ، وعند الغروب أوينا الى مكان به بعض عشب • ومضينا فى الشطر الثانى من اليوم عبر واد صخرى مقفر • وبعد أن سافرنا قرابة خمسة وعشرين ميلا تجاه الجنوب بميل ٤٠ دلجة ناحية الشرق عسكرنا عند الغروب بواد صغير تظلله بعض الاشجار • وسرد رفاقتنا المسافرون ، بعد أن استعرض كل منهم شجاعته وبسالته فى القتال ، وسردوا قصصا مفزعة عن قطاع الطرق الذين يغيرون على المكان بين الحين والاخر • ولعل أحدهم لم يفسر لنا كيف يستطيع قطاع الطرق — وربما أى انسان على الاطلاق — أن يعيش بمكان كهذا •

ووضعت البنادق والغدرات قرب رأس رجل الباشا الذى شرب قنينين من النبيذ ونام نوما عميقا حتى الصباح •

الأحد ١٤ فبراير •

المكان حولنا صورة حية للاقفار والعزلة ، وطوال النهار لا ترى مخلوقا حيا واحدا ، أما أثناء الليل فان الضباع لا تمل العواء • وعند الظهر عبرنا واديا شديد الانحدار ، وفى الخامسة عبرنا مجرى ماء جافا وتوقفنا على ضفته وأمضينا الليلة بالمكان • وقطعنا فى ذلك اليوم ثلاثين ميلا فى اتجاه الجنوبى الشرقى بزاوية قدرها ٤٠ درجة من الجنوب •

الأثنين ١٥ فبراير •

عاودنا المسير فى الرابعة صباحا صوب بنى وليد ، وكان طريقنا عبر جبال وعبر وديان يفرشها الحصى ثم قادنا الدرب الى واد صغير ضيق شديد الانحدار

---

(١) الصحيح أن الأهالى يفعلون ذلك ، لأنهم يدفعون ضرائب بدون وجه حق أنظر ص (٢٧) •• (المراجع) •

حيث تبدت لنا بعض خضرة وجماعات من طائر الحجل ذى السيقان الحمراء وتلوى بنا الوادى طويلا لساعة أو اثنتين حتى بلغنا « بنى وليد » فى الثانيـة ظهرا ، وقد أخذ منا التعب والارهاق ومن دوابنا كل مأخذ . وكنا قد قطعنا مسافة خمسة وعشرين ميلا بزاوية قدرها ٥٠ درجة الى الجنوب الشرقى . ونزلنا فى منزل الشيخ وأعطينا الدليل الذى صاحبنا من غريان أجره ، وكان الرجل على مظهره الضعيف نشطا واسع الخطوة ، وطيلة الرحلة كان يرفض النوم معنا فى الخيمة ويفضل النوم فى العراء دون غطاء رغم البرد القاسى .

الثلاثاء ١٦ فبراير .

خرجنا نتفقد المنازل الحجرية التى صفت على جانبى الوادى وكان أكثر المنازل أرتفاعا لا يتعدى ثمانية أقـدام ، والمنازل خالية من النوافذ وتستقبل الضوء من خلال الأبواب فقط . وتبدو منازل القرية جميعها كما لو كانت بقايا خرائب وأطلال . وسكان المكان هم قبيلة «ورفلة» وهم قوم يجمعون بين الرقة والأناقة وبناتهم غاية فى الجمال . ويعيش هؤلاء الناس عيشة بؤس فرضها عليهم الباشا ، ولهذا فان قلوبهم تمتلىء حقدا عليه ، وكرها له ويقومون بتأجير جمالهم ويصاحبون التجار فى قوافلهم الى أعماق القـارة .

وتعيش قبيلة «ورفلة» على هذه الحالة بعد أن كانت قبيلة شديدة البأس وطالما تحدت حكومة طرابلس وناصرت الباشا الحالى فى ريعان شبابه على جيوش أبيه ، على أن الباشا نسى معروفهم وأصبـح يسومهم اليـــوم أسوأ ألوان الاضطهاد .

وينتج الوادى نذرا يسيرا من الغـلال حيث تتركز الزراعة فى المنـاطق الشرقية ، وفى مواسم الحصاد يرحل ملاك الارض فى جماعات لجنى المحصول أما انتاج الوادى من الزيوت فوفيرو تكثر به أشجار الزيتون والنخيل . وقد لاحظت هناك أشجار الزيتون أكبر حجما . وعلمت أن الباشا يفرض ضرائب باهظة على الاشجار الكبيرة الحجم ، وفى تقديرى أن نظاما كهذا لو ساد فترة طويلة ، كفيل بأن يؤدى الى تدمير كل بساتين الزيتون فى هذه المنطقة .

وماء الاقليم ممتاز ، فالابار ذات أعماق كبيرة تصل فى كثير من الاحيان

الى مائة قدم ، بل ان هناك آبارا يصل عمقها الى مائتى قدم ، الا أن النشاط الزراعى يستنفد جانبا كبيرا من ماء العيون ، مما يجعل توافره نادرا •

وتعتبر « بنى وليد » أقصى مدينة الى الجنوب فى طريق فزان ، تدخل فى دائرة أملاك الباشا •

ورسمت رسما سريعا للقرية أثار دهشة سكانها والتفوا جميعا حولى وعيونهم تنطق بالاستغراب •

الأربعاء ١٧ فبراير :

تركنا المنزل الذى أقمنا به الى مبنى كبير يسمونه قلعة ، حيث ينزل القائد فى زياراته المتعددة للمكان • وسبقتنا مجموعة من الزنوج تخلى لنا الطريق وبلغنا القلعة ، واحتل الدليل أفضل حجرة بالمنزل وراح يجمع الاموال باسم القاضى وكان الاهالى المساكين يحيطون به طيلة اليوم يتوسلون اليه أن يعفيهم من الدفع لمساعدتهم على اعالة أسرهم • ولقد كان البؤس الذى يعيش فيه هؤلاء القوم أمرا محزنا وكان عليهم أن يلبوا رغبات ثلاثة سادة ، كل واحد منهم يريد أن يستأثر بكل شيء ، فالباشا يفرض عليهم مبلغا محددا من المال ويبعث اليهم بالقاضى ليجبيه ، ويقوم بدوره بمضاعفة المبلغ لحسابه ويحدث فى كثير من الاحيان أن يتركهم القاضى لواحد من رجال الباشا الذى يستنفد أموالهم تماما بعد أن كانت القرية تعمر بالعبيد والجمال والخراف والحبوب تجدها اليوم تفتقر الى كل شيء • وأثناء فترة اقامتنا كان يوجد بالقرية ثمانية سجناء ووصل رجل الباشا الذى يرافقنا أمر بقتلهم ، وعلمنا أنه قد تم تنفيذ الحكم فيهم بعد رحيلنا بيوم واحد • وهنا يعقد سوق فى أحد أيام الاسبوع ، ويحضر التجار الضروريات ويعرضونها بحذر وخوف خشية أن يبدو أحدهم غنيا أكثر من اللازم •

الخميس ١٨ فبراير :

اليوم هو يوم السوق ، امتلأت المنطقة الفضاء التى تواجه بوابة القلعة بالخراف والماعز والبلح والغلال والبارود ، وتجمع التجار رغم الامطار التى هطلت طوال اليوم ، وانقشع الغمام فى الليل وحضر الشيخ لزيارتنا وأحضر

معه وجبة بازين . يمكن القول بأن تعداد الاهالى يقارب الالفين ، الا أنهم مبعثرون بطول وعرض الوادى ، ولهذا يتعذر التكهن بالرقم الصحيح .

طلب الاهالى من السيد « ريتشى » أن يتوسط لدى الباشا للصفح عن سجناء القلعة ، وكانت تهمتهم أنهم رفضوا أن يسوقوا خرافهم بعيدا عن أرض الباشا ، ووعد «ريتشى» بالتدخل وفى طريق عودتنا الى طرابلس قابلنا احدهم، وأخبرنا بأنه قد تم تنفيذ حكم الاعدام ، فيهم .

حدد السيد «ريتشى» موقع (بنى وليد) على خط عرض ٤٥ ٣١ درجة

الجمعة ١٩ فبراير :

تركنا المكان فى الثانية صباحا وعبرنا الوادى وتابعنا السير فى منطقة صخرية عارية وتوقفنا فى السادسة مساء بعد أن أكملنا مسيرة ثلاثين ميلا الى الشمال بزاوية قدرها ٢٠ درجة غربا .

السبت ٢٠ فبراير :

تحسن الطريق ، ومضينا عبر وديان خصبة خضراء ، والتقينا بقطعان كثيرة من البعير وصغارها وبقطعان الخراف . وعندالساعة الثالثة ارتفع الطريق قليلا وطالعتنا خيام عديدة لعرب « ترهونة » وبعضهم يرعى الماشية بينما يحزم آخرون أمتعتهم ليرحلوا عن المكان . وفى السابعة بلغنا منطقة الجبال وبلغنا وادى ام اللغا (Melghra) حيث الماء طيب المذاق .

الاحد ٢١ فبراير :

تركنا منطقة الماء فى الثامنة صباحا ، ومضينا خلال دروب وعرة تتلوى عند أقدام الجبل ، وعند الظهر بلغنا منطقة رملية رحبة تتبعثر عليها بعض رقع خضر ومررنا ببضع خيام ، وهرول الاطفال نحونا وبيدهم ثمار تشبه البطاطس الا أنها تشبه الطحلب مذاقا ورائحة ، وهى تنمو فى الرمال ويسميها أهل المكان « ترفاس » وهنا شربنا لبن الناقة لاول مرة ، وهو أقل دسامة من لبن البقر وطعمه أكثر ملوحة ، وأعطانا أحدهم قربة ملأى باللبن المتخمر ويسميه العرب « لبن » .

وفى الخامسة مساء بلغنا عين ماء بالقرب من ضريح أحد المرابطين ، وكان

عمق البئر حوالى ٢٨٨ قدما وماؤها مالح الى حد ما • وفى المساء جاء رجل يطلب من السيد « ريتشى » أن يرافقنـا عربى حتى طرابلس ، ورجانا أن نطلب من الباشا العفو عنه ، فقد كان الرجل هو الوحيد الباقى على قيد الحياة من قبيلة بأكملها ، وكان مختبئا بالضريح فعده الاهالى وليا •

الاثنين ٢٢ فبراير :

انتظرنا قدوم الرجل ، واضطررنا فى النهاية الى أن نمضى فى طريقنا بدونه ، وكان الطريق وعرا وصخريا وبلغنا طرابلس فى الثالثة بعد الظهر بعد أن قطعنا مسافة عشرين ميلا فى اتجاه الشمال الغربى •

العرب

العرب بصفة عامة قوم معتدلو القامة ، طوالها ، يميلون ـ بحكم أسلوبهم في المعيشة ـ الى النحافة والقوة ، يتميزون بالوسامة ، والوجه البيضاوى المعبر والانف الاقنى • وبالرغم من أن بشرتهم بيضاء فقد استحالت الى سمراء لتعرضهم الدائم للشمس • وهم نشطون لديهم قدرة هائلة على التحمل دون تعب ، وعلى ترك الطعام ، حركاتهم تتسم بالحيوية ، مقدامون ماكرون ، وهم فقراء كرماء نزاعون الى الانتقام (١) لا يصفحون • ويلبس الرجال قمصانا فضفاضة وسراويل من القطن وينتعلون « صنادل » أو أحذية ذات رقبة تلتف باحكام حول الكاحل وتصل الى منتصف الساق • ويرتدون غطاء رأس أحمر طويلا يميل قليلا الى اليمين أو اليسار ، ويتدلى منه شرابة من الحرير الازرق ويلتفون برداء صوفى يصل طوله مابين عشرين وخمسة وعشرين قدما وعرضه حوالى ستة أقدام يغطى الرأس وينسدل على الكتف اليسرى ، ويتدلى خلف الظهر • ولهذا الرداء أسماء عدة تبعا لنوع نسيجه ، فالثقيل منه يسمى «عباءة» أما ما كان نسيجه وسطا فيسمى « حولى » ويسمون الرداء ذا النسيج الناعم « جردا » أما فى طرابلس فانهم يطلقون على الانواع الثلاثة لفظة « براكن » (Barracan) ، كما يلبس العربى معطفا فضفاضا يغطى الرأس ، دون أكمام أو فتحة على الصدر ويسمونه «البرنس» ويرتدونه على البراكى فى الامسيات الباردة الممطرة • ولباس النساء لا يختلف كثيرا من حيث نوعه ، وهن يلبسنه بطريقة مختلفة وتلبس أكثر النسوة فقرا الرداء المسمى ب «براكن» فقط يغطى الرأس ويعقد عند الوسط ، ويلبس بعضهن قميصا فضلا عن الرداء وتجدل الفتيات شعورهن فى جدائل ويعلقن بها الخرز ، وحجر المرجان ، أو قطع الفضة ويثبتن حلية فضية على هيئة هلال على يمين الرأس ويغطين رءوسهن فى كثير من الاحيان « بعمامة » زرقاء وتتدلى من آذانهن أقراط فضية عديدة ، وتلتف حول رقابهن صفوف الخرز المتعدد الألوان وتعمد

---

(١) لا ندرى من أين حكم المؤلف على العرب بأنهم ما كرون •• محبون للأنتقام ؟ ! (المراجع) •

العجائز الى خصلة ضخمة من الشعر على الجباه ويصبغنها بالحناء فيبدو الشعر وكأنه صوف أحمر • والوشم ظاهرة واضحة على وجوه النساء جميعا ، فنجده على الذقون والأنوف وما بين الحاجبين ، كما يشمن رقابهن وأذرعهن فى كثير من الأحوال والشكل المألوف هو يد مفرودة ، يرسمونها منعا للحسد •

والفتيات ما بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة لهن ملامح حلوة وقوام جميل ممشوق، الا أنهن يفقدن حلاوتهن وجمال أجسامهن سريعا • وللعربية عيون سوداء كبيرة وأنف مستقيم يناسب ملامحها وشفاه صغيرة رقيقة تكشف عن أسنان بيضاء لامعة ، ولا شيء فى الواقع يفوق الصبية العربية جمالا ، ولا شيء أيضا يفوقها قبحا ودمامة حينما يتقدم بها العمر • ويضع كلا الجنسين الكحل حول العيون فيضفى لمعانا على بريق عيونهم الحوراء كما يضع الجميع أعدادا كبيرة من الأحجبة تجلب السعادة وتجنب الشقاء •

ويحمل عرب الصحراء نفس السلاح الذى يحمله سـكان طرابلس ، فتجد البنادق والمسدسات والسيوف والخناجر، وهم رماة مهرة حينما يتريثون ويتحكمون فى سلاحهم • وتعلق البندقية على الكتف ، ويتدلى المسدس من حزام الوسط • وهم يتسلحون بالبندقية والمسدس دائمـا أما السيف فلا يحملونه الا اذا كانوا على سفر وحينما يمتطون خيولهم ، وحينئذ يثبتون السيف على جانبى السرج وهم يجلبون البـارود والرصاص من طرابلس الا أن بعضهم يستطيع أن يصنع نوعا من البارود الأقل جودة •

وفى ولاية طرابلس وفزان تجد نوعين من العرب، العرب الرحل والعرب الحضر الذين يسكنون المدن • وعرب المدن (كبنى وليد) يسافرون كثيرا الا أنهم دائما يعودون الى مسقط رءوسهم أما العرب الرحل فهم يرتحلون من مكان الى آخر وليس لهم موقع دائم بل ينصبون خيامهم حيث يجدون الماء والكلأ حسبما تقضى به الظروف • وتصنع الخيام من الصوف الخشن ، والخيمة واسعة واطئة ، ولا يتجاوز أرتفاع مدخلها ستة أقـدام • وتقسم الخيمة من الداخل بالبسط والحصائر وتسكن النساء حجرات منفصلة عن أماكن الرجال ، ويحتجبن بها عن أعين الغرباء ، على أن النسوة فى الغالب لديهن القدرة على رؤية الآخرين خلسة دون أن يراهن أحد • ويسمى الأهالى الخيمة ب «بيت الشعر» أو نجع،

ويحيط بكل خيمة سياج من الأعشاب ، وتدق الأوتاد على مقربة من الخيمة وتربط اليها الجياد • والعرب كرماء واذا حل بهم غريب فانهم لايبخلون عليه بالترحاب وطيب الطعام اذا كانوا يأكلون، أو يعدون له طعاما على شرفه ، وعلى أية حال فان الضيف يتوقع دائما حفاوة بالغة •

ولا وجه لمقارنة بدو البربر ببدو مصر فى البراعة والقدرة أو الخصال الحميدة • فمهما كانوا فى الماضى ، فانهم الان نتيجة لاستبداد حكامهم قد فقدوا كل شخصية وباتوا لا يختلفون عن العبيد من كل ناحية ولا يوجد الان أكثر من قبيلة أو اثنتين لا تخضع للباشا الا أنهم لن يفلتوا من قبضته طويلا • ويحكم كل قبيلة أو حتى مجموعة من الخيام ، رجل يسمونه « الشيخ » ويبجلونه ويحترمونه لكبر سنه ، أو لانه معين من قبل الباشا ، على الرغم من أن وظيفته لا تتعدى جباية الخراج منهم • ومعظم هؤلاء المشايخ قادوا قبائلهم فى غزواتهم وحروبهم ابان شبابهم واختارهم الناس اليوم لبطولاتهم وشجاعتهم • ومنذ توقفت الحروب لم يعدللشيوخ هيبتهم وسلطانهم ، بلان كثيرا منهم يرفضون وظيفة الشيخ حتى لا يسائلهم الباشا عن أخطاء قبائلهم •

والعرب متعصبون فيما يتعلق بعقيدتهم ، يؤمنون بالخرافة وبالشيطان واليه يرجعون سوء الحظ والمرض ويحرصون على الصلاة يؤدونها فى مواعيدها ، الا اذا كانوا على سفر • ولا يخلو حديثهم من ذكر الله ويقدسون (١) المعتوهين ويعتبرونهم من أهل الاخرة وأنهم لا يفكرون فى أمور هذه الدنيا•

ويعقد الزواج فى معظم الاحوال دون أن يرى أحد الطرفين الاخر • ولا يؤخذ رأى العروس فالرأى كل الرأى لوالدى الزوجين ، ولا بد أن يقدم الزوج لزوجته أو خطيبته ـ ان صح التعبير ـ الهدايا والهبات • وعلى الرغم من أن الاسلام يحل للرجل أربع زوجات فان العربى نادرا ما يتزوج أكثر من واحدة ، وقليل منهم لديه زوجتان أوأكثر • وليس من عادة العرب ـ أيضا ـ اقتناء الاماء السوداوات ، ويمكن أن نعزو هذه الظاهرة الى عدم رغبة الاباء أن يكون لهم أبناء ملونون • وتزف العروس الى منزل زوجها فى

---

(١) لقد خان التعبير المؤلف •• وعجز عن عطف الناس على أمثال هؤلاء ، وعلى كل فالتعميم خطأ (المراجع) •

احتفال رائع ، قدر لى أن أشهد نموذجا له ..وقمت برسم جميل يمثل الهودج على ظهر الجمل لتجلس العروس بداخله ، ويغطى الهودج عادة بالبسط والشيلان ويزين بريش النعام .

وحينما يسافر العرب من مكان الى مكان أو ينتقلون سعيا وراء الكلأ والماء يضعون ما يشبه الهودج على ظهور دوابهم ، غير أنهم فى مثل هذه المناسبات لا يغطونه ، ويجلس به الاطفال والنساء . ولعل مظهر الاسرة العربية فى مسيرتها هذه ، يبدو مسليا للغاية ، فالجمال محملة بالخيام ، وأوعية الطبخ والنسوة والاطفال ، بينما يسير الرجال أمام القافلة أو يركبون جيادهم دون لجم أو سرج ، واذا طالت الرحلة عن مسيرة يوم كامل ، يضربون خيامهم فى الهواء حينما يحل المساء ، وعند الفجر تلم الخيام وتوضع على ظهر الجمال . والملاحظ أنهم لا يضيعون وقتا طويلا فى ضرب خيامهم أو لمها فالنسوة يساعدن الرجال ويتم العمل سريعا . وتقوم الكلاب بدور الحراسة خلال الليل ، وهى شرسة جدا ، لونها أبيض ولا تختلف كثيرا عن الذئاب ، ولها ذيول طويلة كثة . وتدور الكلاب تذود عن القطيع وتعوى ، ويعلو نباحها وتهجم بجرأة فائقة على الغرباء ، الا أنها ترتد سريعا اذا أمسكت بعصا أو تناولت قطعة صغيرة من الحجر . ويحدث كثيرا أن تختار القافلة مكانا للاقامة يبعد كثيرا عن أى مورد للماء وربما يكون أقرب عين على مسافة يومين أو ثلاثة ، على أن ذلك لا يشكل أى ضيق للعربى الصبور . ان البقاء دون ماء ، والصبر عليه فترة طويلة شىء اعتاد عليه ، ليس فقط العرب وجمالهم ، بل كل الحيوانات التى تعيش بالاقليم ، وربما استطاعت الخراف أن تقضى شهرا بأكمله دون ماء . أما الظباء الوحشية والجاموس (١) فلابد أن أتصور أنها فى حالات كثيرة لا تقرب الماء ، اذ أنه لا يوجد قريبا من سطح الارض وهى لا تستطيع شيئا أمام عمق الآبار . ومن ناحية أخرى فان الذئاب والضباع والثعالب لا تستطيع الصبر طويلا دون ماء فتعمد الى نزول بعض الآبار قليلة الغور وطالما اهتدى العربى الى الآبار بتتبع آثار أقدامها .

ويزرع البدو محصولهم الهزيل من الحبوب بعد أن يقلبوا الارض

---

(١) المعروف أن الجاموس لا يعيش فى ليبيا .

بمحراث بدائى أو بفأس ، والملاحظ أن البدو الرحل يحترمون المنـــــاطق المزروعة كثيرا ، ونادرا ما تتعرض المحاصيل للسرقة . وحتى الباشا لم يكن يعمد الى تخريب الاراضى المزروعة وقت الحرب . وعادة يذهب الاهالى لجمع محصولهم قبل أن يكتمل نضجه خشية أن يفطن اليه الباشا ويحرمهم من جزء كبير منه - أما رجال الباشا فهم يعرفون مواسم الحصاد وينقضون على المزارعين الفقراء لجباية نصيب الباشا . وحينما يبدأ موسم التمور ، تهرع أسر كثيرة الى منطقة المنشـــية ، وتتقارب خيامهم ، ليشتروا حاجتهم منـــه . وهم ينزعون النواة عن البلح ويعجنونه ويحفظونه فى قراب جلدية يدفعون عنه الحشرات والرطوبة . ويشكل هـذا التمر غذاءهم الرئيسى ، يضيفون اليــه لبن المــاعز والبقر والنوق . والملاحظ أن لبن الناقة خفيف القــوام ضارب للزرقة ويشبه لبن البقر مضافا اليه ماء وبعض ملح وهو لايغل قشدة ، وينختر سريعا . ولبن النعاج رائع ، لكنهم لا يشربونه طازجا ، اذ يفضلونه متخثرا وتقوم النسوة بحلب القطيع مرة فى الصباح وأخرى فى المساء ويضعون اللبن فى قراب جلدية دون عنـــاية بنظافتها ، ويخضونها حتى تنفصـــل الزبدة من الخثارة ، وتلتصق الزبدة فى العادة على جدران القراب ويصبون اللبن المتخثر فى أوعية أخرى ، ويترك . وحين يجمعون الزبدة يغلونها مع قليل من الملح حتى تصبح فى قوام الزيت ، ثم يحفظونها فى القرب لتكون جاهزة للبيع أو للاستخدام .

وللحصول على الجبن يخلط اللبن بعشب عطرى - نسيت اسمه - ويملح الناتج وينشر ليجفف. ولم أر سوى نوع الجبن هذا وهو نادر الى حد ما

ويشكل الدهن سلعة تجارية هامة ، ويحصل عليه الرعاة من خرافهم بعد ذبحها ويملحونه ، وسواء كان فاسد أم غير فاسد فهم يغلونه ويحفظونه فى القراب الجلدية ليكون معدا للاستخدام ، ويباع الرطل الواحد منه فى الداوخل بما يساوى شلنا واحدا ، أما طرابلس فهو أرخص كثيرا . ويضاف شحم الخراف هذا الى كل الأطعمة العربية تقريبا ، وعلى الرغم من أن طعمه غير مستساغ ، فاننا قد تعودنا عليه .

وتصنع النساء من صوف الخراف الأردية والبسط والقمصان والعمائم

كما يصنعن منه الخيام مضافا الى شعر الماعز • ويصنعن الحصر من سعف النخيل ويصبغنها بألوان عدة ، أسود وأحمر وأزرق وبرتقالى ، كل الالوان تقريبا ، ما عدا الاخضر الذى يجدون صعوبة كبيرة فى الحصول عليه ، على الرغم من أن صباغى طرابلس ينجحون فى صنعه • وتستخدم النسوة أنوالا صغيرة ، دون وشيعة ، ويجدون صعوبة فى نسج الخيوط بأصابعهن ، وطالما طربت لغنائهن وهن يعملن • وحين يدخل الرجل الخيمة فانه لا يجد ما يعمله ، على عكس النسوة اللاتى يجدن دائما ما يشغلن ، ولا تأكل النسوة عادة فى حضرة الرجال ، بل يقفن خلف أزواجهن حتى يفرغوا من طعامهم •

وتعيش الحيوانات الاليفة ، كالخراف والماعز والخيول والجمال والدجاج والكلاب ، تحت سقف واحد مع أصحابها ، وهى تتمتع بحقوق طيبة ، فالخيول تعيش مع أطفال الاسرة ، وكان يمكن أن تكون خيولا ممتازة لولا قلة ما يقدم لها من غذاء • هذا الى جانب أن الاهالى هنا لا يتوفر لديهم الطموح لاقتناء خيول ممتازة خشية أن يطمع فيها أحد رجال الباشا ، وحينئذ لن يستطيع صاحبها أن يرفض أى ثمن • على أنه ما زال هناك قليل من العرب يعتنون بانتاج سلالات طيبة يعدونها للبيع •

وقد رأيت مجموعة من هذه الخيول ، وكان منظرها رائعا ، يختلف كثيرا عن بقية الجياد • وفى أسواق طرابلس رأيت بضعة خيول ممتازة يباع الواحد منها لقاء أربعين أو خمسين دولارا • (أو ما يقارب اثنى عشر جنيها استرلينيا) • والخيول العربية لها ذيول طويلة وغير مخصية ، على أن هناك عيبا واضحا فيها جميعا وهو أن ظهورها غائرة وأرجلها الخلفية أعلى من الامامية ، وربما يرجع ذلك الى استخدامها قبل الاوان ، وكثيرا ما ترى حصانا لم يتعد عامه الاول يئن تحت ثقل صاحبه وسلاحه ومائه وطعامه • ويعجب العربى بالحصان ذى البطن الكبيرة ، وكثير من الخيول تبدو بطونها المنتفخة كأنها حبالى وذلك نظرا لطبيعة غذائها •

وهم لا يرغبون فى الحصان الكستنائى اذا كان لون رقبته وذيله فاتحا ، ويعتبرون ذلك شؤما • وعلى الرغم من شيوع اللون الكستنائى فانهم لا

يفضلونه ويقولون أن قدم مثل هذا الحصان غالبا ما تكون رقيقة وناعمة . واللون البني الضارب للحمرة هو اللون المفضل ، الذى يلى الرمادى الاشهب والاخير هو اللون الذى يفضله الباشا .

ويعطى العربى أهمية كبيرة للون قدم الحصان ومواضع اللون الابيض بها ، ويمكن أن يعتبر الحصان أفضل حصان أو اسوأ حصان تبعا لمواضع اللون الابيض على قدميه .فاذا كانت كلتا القدمين الاماميتين مبرقشة باللون الابيض كان ذلك مقبولا ، واذا كانت قدم الحصان اليمنى الامامية واليمنى الخلفية ، مثلا ، ملونتين بالابيض يكون ذلك دليل شؤم ، ونفس الحال اذا كانت قدم واحدة ملونة ، أما اذا كانت القدم اليمنى الامامية بيضاء والقدم اليسرى الخلفية بيضاء ، أو العكس ، فلا شىء يفوق حصانا كهذا وعجيب أمر العرب وتمسكهم بهـذه الامور التى تؤثر بالطبع على ثمن الحصان ، وربما انخفض الجواد الى سدس ثمنه العادى اذا كان به عيب من هذا القبيل .

وفى المناطق الرملية لا تركب حدوات للخيول ، أما اذا كان على الدابة أن تسير عبر الجبال فان الحدوة تكون شيئا أساسيا . وتركب الحدوات بطريقة سيئة ، ولا تجد سوى بضعة خيول سليمة الاقدام .

والكير العربى غاية فى البساطة ، ويحتفظ معظم الاهالى بادوات الحـدادة ويبنون حائطا قصيرا لا يزيد ارتفـاعه عن قدم واحدة به فتحة فى مستوى يمر منها منفاخ ، وهو عبارة عن قطعتين من الجلد تخاطان معا وينتهيان بقطعتين من الخشب ويمتلىء المنفاخ بالهواء ويلفظه ليزيد النار اشتعالا ويستخدم روث الجمال ، الذى يعطى نارا قوية ، حينما يندر الفحم . أما السندان فهو عبارة عن قطعة مربعة من الحديد مثبتة فى جذع شجرة وهناك المطرقة ايضـا ، وتكتمل الادوات بكماشة أو اثنتين .

أما الرحى فهى فى مثل بساطة أدوات الحدادة ، وهى عبارة عن قرصين مستديرين من الحجارة يوضع أحدهما على الاخر . وبالقرص الاعلى يد .

وهم يستخدمون الدقيق فى أكلات كبيرة كالكسكسى والبـازين والدويدة والعصـيدة والزميطة والخبز والفتات . وساحاول فيما يلى أن أستعرض طريقة صنع كل وجبة من الوجبات سالفة الذكر .

لصنع الكسكسى ،يطحن الذرة جيدا ، وتغسل الايدى ويوضع بعض الدقيق فى وعاء خشبى ويدعك براحة اليـد اليمنى ، بينما اليسرى تصب القليل من الماء بين الحين والاخر • وبعد فترة قصيرة يستحيل الدقيق الى حبيبات صغيرة ، وبحركات بارعة من اليدين تنفصل الحبيبات ولا تلتصق ، وحينما يعدون الكسكسى للطعام ، يوضع فى سلة أو آنية أخرى فيها لحم وماء أو ماء فقط ، وحين يغلى فانه يلفظ بخاره ، ويمر على حبيبات الكسكسى ويراعى تقليبها بين الحين والاخر حتى لا يتعجن • وحينما يتم نضـــجه يضاف اليه اللحم وقليل من الزبد أو الشحم ، واذا غاب اللحم ، فان كمية كبيرة من ألفلفل الاحمر تجعل من الوجبة أكلة شـهية •

أما البـازين (ويسمى عصيدة فى فزان) فهو من أكثر الاكلات شعبية لسهولة صنعه • ويعد من أى دقيق (يستخدمون دقيق الشعير أوالبشنة بالقرب من طرابلس) بالطريقة التالية• يوضع وعاء حديدى أو نحاسى على النار وبه قليل من الماء،وحينما يغلى يدفع اليه بالدقيق ويترك حتى يكتسب قوام العجينة، حينئذ يقلب جيدا بعصا كبيرة ويرفع ويوضع فى آنية أخرى ويكرر ، وتصنع به فجوة فى المنتصف ،يصب فيها الحساء أو الزيت أو الزبد أو الشم ليصبح جاهزا للأيدى تقطعه قطعا صغيرة وتغمسها فى الشحم أو الحساء • واذا غاب الشحم أو الحساء فهم يستعضون عنه بقليل من الدقيق المخلوط بالماء الساخن « الصفايا » ويحتاج البازين فى صنعه الى ساعدين قويتين •

ولصنع الدويدة،يشكل العجين على هيئة حبوب صغيرة ليست فى كبر حبة الأرز لكنها مبططة ، وتترك لتجف ، وحين تغلى مع قليل من الماء وتخلـــط بالزبد ، يكون لها طعم شهى•

اما العطيلة Atila فهى تصنع بنفس الطريقة السابقة لكنها أكبر حجما وتشبه كثيرا كور المكرونة ، وتغلى كالدويدة •

ولصنع المقطع Magotta تفرد العجينة جيدا حتى تصبح رقيقة كالفطيرة، وتترك لتجف وتكسر الى قطع صغيرة ، تغلى مع الماء وتضاف اليها كمية كافية من الشحم والفلفل •

أما الزميطة فهى تصنع من دقيق الشعير المحمص ويضاف اليه قليل من الماء البارد ليصنع عجينة تخلط بكثير من الزيت ويقطعونها بالايدى قطعا صغيرة وتكور بالاصابع وتؤكل • ويضاف اليها البلح فى بعض الاحيان • وتعتبر الزميطة الغذاء الوحيد الذى يتناوله العرب فى رحلاتهم ، وهى سهلة الاعداد ومغذية •

ويصنعون الخبز بنفس الطريقة التى يصنع بها فى أوربا • وهناك أيضا ما يسمى «بالفتات» وهو يشبه الكعك،ويعد بنفس طريقة «الرشدة» دون أن يضاف اليهاخميرة ، وتسوى فىالافران ، وحينما تنضج توضع كعكة «الفتات» فى وعاء ويصب عليها الحساء والخضروات ثم توضع الواحدة تلوالاخرى مع صب قليل من الماء فى كل مرة حتى يمتلىء الوعاء ، والجدير بالذكر أن كل هذه الوجبات تؤكل بالايدى •

وهم يعدون اللحم بطرق عديدة ، مشويا أو مسلوقا أو محمرا ، كما يعدون نوعا آخر من اللحم يستخدمونه فى رحلاتهم ويعمدون الى طريقة بارعة فى حفظه ، فيقطعونه الى شرائح صغيرة تجفف فى الشمس ، وتقلى بعد ذلك بقليل من الدهن • ولقد لاحظت مرارا أنهم يأكلون أعشابا صغيرة خلال رحلاتهم ، وحينما سألتهم كيف عرفوا أنها غير ضارة ؟ أجابوا انه ما دام الحيوان يأكلها دون ضرر فلا بأس بها للانسان طعاما • وهناك نوع من الحشائش تسمى (الطرخشقون أو الهندباء البرية) مرة المذاق وتنز رحيقا أبيض ، تحبها القطعان كما يأكلها الرجال وحين تذوقتها وجدت أن طعمها ليس طيبا على الاطلاق ولكننى سرعان ما اعتدت عليها • وتنبت ثمرة الحنظل فى بعض مناطق من الصحراء بكميات كبيرة وتكاد أن تكون الدواء الوحيد الذى يستخدمه العرب•وكثيرا ما يلجأون الى الكى بالنار لاظهار الحب العنيف ويستوى فى هذا الجنسان حينما يودون تقديم برهان قوى على حبهم المشبوب

وعلى الرغم من أن لحم الذئاب والكلاب الصغيرة والقطط والقنافذ محرم فان بعض المرضى يأكلونه اعتقادا منهم أن له مفعولا طيبا أو «دواء» كما يقولون • وهم يستخدمون الرقى والتعاويذ كثيرا ، ويكتبها لهم المرابطون وكتاب طرابلس • ولا يقتصر استخدامها على الرجال فقط بل تستخدم هذه

أيضا لحماية الجياد والسلاح وكل شيء • ولا شيء يخشونه قدر ما يخشون «الحسد» ، حين يبدى أحد الغرباء اعجابه بطفل أو حصان أو أى شيء آخر له قيمة ، اذ يجلب هذا الاعجاب ـ على حد قولهم ـ النكد والخسران على مالك الشيء • على أنه يمكن رد شر العين الحسود بالمرور على الشيء المحسود باصبع يبللونها بلعابهم ، أو برقية على هيئة اليد المفرودة تثبت فى اللباس كحلية أو يوشم بها الجسد • ولقد لاحظت أن العربى لا يحب أن يتناول سكينا أو مقصا من يد آخر ، اعتقادا منهم بأن ذلك يجلب النحس •

وتسلية العربى لا تتعدى الرقص ولعب « الخربقة » ، وهى تشبه لعبة الداما ، ويلعبونها ببعر الجمال أو نوى البلح فى فجوات يصنعونها فى الرمال وفى الافراح والاعياد يطلقون الزغاريد العالية التى تسمع من مسافات بعيدة وهى عبارة عن صرخة حادة (والفم مفتوح) ويتحرك اللسان على الجانبين ليلون الصوت • وللزغاريد مفعول طيب ، وحينما تعتاد الاذن عليها تصبح نغمة مقبولة •

وأسلوب التحية العربية غريب تماما ولا يخلو من رشاقة ، وحين يلتقى الاصدقاء يتصافحون بأيديهم اليمنى،ويرفعون أطراف أصابعهم الى أفواههم وتسقط اليد المفتوحة تربت على موضع القلب ، ويصحب ذلك ايماءات من الرأس • وحين يلتقى واحد بعزيز لديه فمن المألوف أن يترك كل واحد يده فى يد الآخر ويرفعونها حيث أفواههم وكل يقبل ظهر يد الآخر مرات عديدة ويرددون •• كيف حالك •• بخير •• كيف حالك •• الحمد لله .. كيف حالك •• الله يبارك فيك •• كيف حالك •• ، وتحية الرجل ـ المهذب لا ينبغى أن تقل عن عشر دقائق ، ومهما كان الحديث بعد ذلك فان للعودة الى « كيف حالك » تدل على طيب معدن الرجل وحسن خلقه ، على الرغم من أن الرد على هذا السؤال ليس ضروريا بالمرة وفى أغلب الاحوال لا يستقبله الآخر ، وربماكان مشغولا بالنظر الى ناحية أخرى أو يفكر فى شيء آخر • سألنى أحدهم أن أناوله قطعة عشب جاف كانت بجانبى ليخرج بها شيئا سقط فى كوبه ، وحينما سألته : أهى ذبابة ؟ قال الرجل انه لا يصح أن تذكر الكلمة ـ يقصد لفظة ذبابة ـ أمام شخص له أعلى مكانة •

ولقد كانت تساؤلات وملاحظات العرب فيما يتعلق ببلادنا وثرائها غاية في الغرابة،فمن بين العديد من الخرافات يعتقدون أن بلادنا تقع في بحر الظلمات أو بحر الظلام حيث لا يوجد شمس ولا قمر ، وكنتيجة لذلك يعتقدون أن سفننا حينما تسير في البحار تعلق قناديل كبيرة ليلا ونهارا تضيء لها الطريق وهم يعتقدون أيضا أن المسيحيين يشربون لبن الخنازير . وهم لا يكادون يصدقون أن لدينا جيادا وأبقارا وخرافا ، ويأسفون كثيرا لأن بلادنا ليس بها بلح ، والواحد منهم لا يستطيع اطلاقا أن يتصور كيف نتجنب السقوط أو التدحرج من على الجزيرة التي نسكنها ، ويتصور أغلب الأهالي أن بلادنا مفرطة في الثراء وحينما علموا أننا نسكن جزيرة أحسوا بالأسف والرثاء لنا . ويحظى نابليون أو بونابرتو كما يسميه العرب ، يحظى باحترام كبير ليس لبطولاته العسكرية ، ولكن لأنهم سمعوا أنه يربح ٢٠٠٠٠٠ دولار في الساعة وأنه يجلس على عرش من الذهب (١) .

والعربي فارس ماهر وشجاع ، وعلى الرغم من أنه يستخدم جواده في رحلات طويلة فهو لا يقدم له طعاما كافيا . ولقد قل الطلب كثيرا على الجياد السريعة منذ توقفت الحروب . ولكن أيام أولاد سليمان كان الطريق من طرابلس الى فزان في قبضتهم وتحت رحمتهم ، وكانت الرحلات آنذاك غاية في الخطورة ومليئة بمغامرات لا زالت ذاكرة المسنين تعيها . ولقد كانت قبيلة أولاد سليمان تهيمن على كل المسالك التي تصل طرابلس بفزان وكان أفرادها مرهوبي الجانب ، ولم يكن يجرؤ على السفر في تلك المناطق الا القليل حتى بعد أن ساد السلم بينهم وبين الباشا . والجدير بالذكر أن أولاد سليمان هم الذين تحدث عنهم « لوكاس » في مذكراته وذكر أنهم أعلنوا الحرب على طرابلس ، وحكى لنا « لوكاس » كيف أنهم استوقفوا العائلة التي كان يرافقها ولم تستطع السفر من زناتة الى فزان . أما اليوم فقد انتهت دولة اولاد سليمان فمنذ عشر سنوات قام باشا طرابلس بهجوم واسع النطاق عليهم ، ونظرا لتفرقهم وصغر عدد مجموعاتهم فقد باتوا هدفا سهلا للقوات النظامية . وأثناء هذه الحرب والحروب التي سبقتها لم يعتد المحاربون تسليم أسرى ،ومن يقع

---

(١) ذلك أمر بعيد عن التصديق !! (المراجع) .

أسيرا فى يد العدو يتعرض للتنكيل والقتل • ولقد لقى ٢٥٠ ممن أسروا فى احدى مدن وادى الشاطىء ، لقوا جميعا حتفهم على الرغم من أن شروط استلامهم كانت تقتضى بالابقاء على حياتهم • ولقد كان من الممكن أن تستمر هذه القبيلة وتزدهر فى فزان ، ولكنها تركت مواقعها وعمدت الى مصر لتشن حربا على بعض القبائل هناك وتركت ممتلكاتها اعتقادا منها أن (المكنى) لن يحاول الهجوم عليهم ولكنه انتهز هذه الفرصة واستولى على مرزق ، ولم يكن يستطيع ذلك لولا غيبة أولاد سليمان • وعاد أولاد سليمان سريعا ، واستطاعوا حصاره فى المدينة ، وتركوا حدودهم غير محصنة ، مما شجع باشا طرابلس على الانقضاض عليهم وابادتهم عن آخرهم ، وفر من فر ومات من مات ، وفضل من بقى على قيد الحياة أن يعيش فى كنف القبائل الاخرى • هذه حكاية أولاد سليمان الذين لاوجود لهم اليوم الا فى قصص وحكايا العجائز • وقل أن يوجد مكان فى هذا الجزء من أفريقيا لا يتردد فيها اسم أولاد سليمان

وسمعت أن أحد المسافرين معنا سبق أن أبقى على حياة أحد مشايخ أولاد سليمان فى فترة الحروب الاولى ، وحينما عاد صاحبنا من فزان بعد شهور من الحرب ، على رأس قافلة كبيرة من التجار ومعها الكثير من البضائع والعبيد ، وفى منطقة بين الجبال هجم عليهم أولاد سليمان وحاصروهم وساقوهم الى الزعيم ، ودار شبح الموت على القافلة بأسرها ، وفجأة ، ولحسن الحظ تقدم الزعيم وتعرف على الرجل الذى أنقذ حياته ، وتبدل المشهد سريعا وذبحت الخراف والماعز والابقار ، ونزلت القافلة بأسرها فى ضيافة أولاد سليمان ورد لها كل البضائع والعبيد •

وعندما عدنا الى طرابلس علمنا أن الباشا لن يرسل (المكنى) على رأس قوة الى الدواخل كما كان يعتزم • وتقرر أن يصحب المكنى عدد من أتباعه فقط ، وعليه فقد طلب منا أن نستعد للرحيل خلال أيام • واستعد السيد ريتشى للرحلة واشترى طعاما مناسبا للطريق وقربا جلدية للماء ، وكتب الى اللورد باترست (Bathurst) يطلب منه بعض المال ، وسحبت أنا مبلغا من حسابى الخاص وأعطيته للسيد ريتشى • وكان السيد ريتشى قد أحضر الى (المكنى) بعض الحاجيات من مالطة ، وبات مدينا لنا بـ ٣٠٠ دولار وعد أن

يدفعها بمجرد وصولنا فزان • وبهذا المال فقط كان علينا أن نقوم برحلتنا ، ولم نكن ندرى كيف نحصل على بعض العون ، فالجمال يجب أن يدفع ايجارها مقدما ، أما عن المتطلبات الاخرى الضرورية فلم نكن نستطيع أن نوفرها بشكل أو بآخر •

أما عن الالفى جنبه التى خصصت للسيد ريتشى أنفقها عن آخرها فى شراء البضائع والادوات والاسلحة • ولكن ما اشتريناه من بضائع اختير فى انجلترا،ولسوء الحظ لم يكن ذا فائدة تذكر فى الدواخل ، باستثناء السكاكين واكتشفنا بعد فوات الاوان أن مالدينا من خرز وزجاج لايحظى بقبول الزنوج وتحقق لدينا أنهم تركوا عاداتهم القديمة وراقت لهم أساليب المجتمعات الاكثر تمدنا • وهكذا اكتنفت رحلتنا منذ البداية ظروف غير مواتية ، ولكنا عزمنا على أن نتم ما جئنا من أجله مهما كلفنا من جهد •

وفى الثانى عشر من مارس حضر الباشا احتفالا عاما حضره (المكنى) والقنصل الانجليزى ، وتعهد المكنى أمام الجميع أن يساعدنا وأن يقدم لنا كل عون •

الفصل الثانى

الرحلة من طرابلس الى مرزق

فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٨١٩ ، استعد الجميع للرحيل بعد طول تلكؤ ، ووصلت الجمال الاثنان والعشرون ، وحملت أمتعتنا وسبقتنا الى المنشية • وفضل السيد « ريتشى » البقاء فى طرابلس ، بينما لحقت أنا وبلفورد بالقافلة ، ونصبنا خيامنا بالقرب من بضائعنا • وتزايد عدد المسافرين كثيرا ، ولحق بها كثير من الزنوج الذين أعتقهم سادتهم ، فى طريقهم الى أوطانهم ، ونصبوا خيامهم الصغيرة بالقرب منا •

٢٣ مارس : عدت الى المدينة ، ووجدت أن المكنى لن يلحق بالقافلة الا صباح اليوم التالى ، واستغل السيد ريتشى هذه الفرصة فى توفير بعض المستلزمات التى كنا قد نسيناها •

٢٤ مارس : لم يصل (المكنى) فى هذا اليوم ، لكنه بعث جاريتيه الخصوصيتين وبعضا من جواريه الاخريات ، ونصبن خيامهن على مقربة منا • وقد جاءت هذه النسوة على ظهور الجمال يخفيهن هودج يسمونه « شبليه »(Shiblia) ، وهو عبارة عن اطار من الخشب تغطيه الستائر • وكانت احدى جاريتى (المكنى) قد رافقته منذ مدة فى رحلة الى الجنوب ، وتدعى زيتونة ، أما الاخرى فهى أم أصغر أبناء (المكنى) وتدعى « زمان دنيا » • الهرج والمرج يسودان القافلة ، والبضائع مبعثرة ، والدواب تسير على هواها ، وأكوام السرج والاغراض ملقاة على الارض فى غير نظام ، ومع هذا فان المشهد يعطى انطباعا بالنشاط والحيوية • وبينما كنت جالسا بخيمتى أكتب خطابا ، دخل بعض العرب وبدت عليهم الدهشة عندما رأونى أكتب من اليسار الى اليمين ، وعندما قلت لهم أننى أكتب الى سيدة ضحكوا من أعماقهم لمجرد الفكرة ، ولم يتصوروا بالطبع أن هناك امرأة تستطيع أن تقرأ • وأقبل أكبر أبناء العقيد وارنجتون لقضاء الامسية معنا •

٢٥ مارس : ذهبت الى المدينة ، وودعت كل أصدقائي المسيحيين ولحقت بالقافلة . وفي الثامنة صباحا تحرك الركب وكان يضم مائتي رجل وعددا مماثلا من البعير . وحينما حل المساء نصبنا خيامنا بالقرب من أحد الآبار الذى تحيط به بضع أشجار نخيل . ولحق بنا السيد ريتشي يرافقه الدكتور « كارستنس » وأمضينا الليلة في زيارة العبيد المعتقين ، وكم كانوا سعداء اذ أنهم عائدون بعد طول غياب الى أوطانهم ، على الرغم من ضآلة عتادهم ومؤونتهم ، وعلى الرغم من أن معظمهم سيسيرون على الاقدام أكثر من ألفي ميل .

٢٦ مارس : في الثامنة صباحا واصلنا السير عبر صحراء رملية وعرة ، ووجوه الكل تتهلل بشرا بعد أن بدأت الرحلة بعد طول تأخير . وبعد أن سرنا اثني عشر ميلا الى الجنوب الشرقي ، توقفت القافلة بالقرب من بئر عميقة انتظارا لقدوم (المكني) ، وهنا غادرنا صديقنا الطبيب الدكتور « ديكسون » تلبية لامر الباشا الذى استدعاه الى القلعة . وعندما حل الظلام شاهدنا وميض البنادق التي راح رجال (المكني) يطلقونها بحثا عن موقع القافلة ، ورددنا على تلك الاشارات بمثلها ، وسرعان ما تعالت أصوات موسيقى القرب تعلن قرب قدوم السلطان . ولكم كان مشهدا مؤثرا حين دخل (المكني) معسكرنا يحيط به خمسون فارسا يلبسون أبهى لباس ، وقارعو الطبول يسبقون الجميع وثلاث رايات حريرية ترفرف على الرءوس . وزارنا (المكني) في خيمتنا وشرب معنا أقداح القهوة التي أغرم بها كثيرا ، وصحبه في زيارته هذه ابنه يوسف الذى يعتبر من الفرسان المهرة على الرغم من أنه لم يتعد عامه الثامن

٢٧ مارس : واصلنا السير في الصباح الباكر ، واكتشفنا أن هودجا آخر لحق بنا يضم سيدة سمينة جميلة وعرفنا أنها زوجة الشيخ بارود قائد قافلتنا ومدير شؤون المكني وكان طريقنا يطل على بقعة خضراء انتشرت في أرضها هنا وهناك عيدان الذرة وكثير من القطعان وبضع خيام للعرب . وبعد الظهر بلغنا حقل ذرة ، بعد أن مررنا بعدة تلال رملية واطئة ، وكم كان مؤلما أن يسير فرسان (المكني) بجيادهم وسط عيدان الذرة يدوسونها دون أدنى شفقة أو رحمة بأولئك البؤساء الذين يملكونها .

٢٨ مارس : دخلنا منطقة جبال ترهونة ، ونصبنا خيامنا هناك فى الرابعة بعد الظهر بالقرب من بئر يقال لها «ملغا» •

٢٩ مارس : سرنا ذلك اليوم عبر منطقة رائعة ، وخلال واد يقال له : مادر وبه العديد من الابار وملأنا قربنا ثم مضى بنا الطريق الى منطقة وعرة قاحلة •

٣٠ مارس : مضينا ذلك اليوم عبر منطقة صخرية حتى وصلنا بنى وليد ، وسبق رجال (المكنى) سيدهم الى التلعة يطلقون النار ويصيحون كما يفعل أهل طرابلس احتفالا بمقدم الباشا •

٣١ مارس : لما كان سوق القرية يقام اليوم ، فقد لبثنا هنا للاستجمام وحذرنا المكنى من أن ننصب خيامنا على أرض واطئة ، اذ أن المنطقة تتعرض للفياضانات فى موسم المطر ، وقال ان الماء يتجمع بالوديان فى بعض الاحيان ويغطى الماء قمم أعلى أشجار الزيتون، ومعنى هذا أن ارتفاع الماء يصل الى ثلاثين قدما على الاقل • وأكد كثير من المواطنين ما قاله (المكنى) ، وأضافوا أن الماء كثيرا ماداهم الرجال والدواب وأغرقهم ، فالسيول تسقط من على جانبى الوادى بغزارة وعنف ، ولا تمضى ساعة أو اثنان حتى يكون الماء قد أغرق الارض كلها •

حضر الى صبى صغير كان يصحبنا من طرابلس وقال ان فاطمة زوجة الشيخ بارود تدعونى لزيارتها ، ووصفها الصبى قائلا : « انها أكثر نساء الله جمالا وسمنة ، حتى أنها لا تستطيع السير ، أما ذراعها فتبارك الله فهو فى حجم جسدى كله » ومضيت اليها يرافقنى الصبى ، وعندما دخلت خيمتها أخفت فاطمة وجهها وكأنها لتستعرض ذراعها بحليه الزاهية ، وطلبت منها أن أرى وجهها فكشفته لى بشىء من التمنع ، وكانت ذقنها وقمة أنفها ، والمسافة مابين حاجبيها موشومة بخطوط سوداء ووجهها يمتلىء بالمساحيق ، أمارقبتها وذراعيها وقدماها فيغطيها وشم على هيئة زهور وأيد مفتوحة ودوائر • أما أذناها فتكاد تسقط تحت ثقل الاقراط المرصعة بالجواهر الزائفة التى تلبسها والتى لا يقل وزنها عن ثلاثة أرطال • وترتدى قميصا من الحرير المخطط وهناك أيضا رداء أرجوانى اللون يلف جسدها ومشبوك من عند الصدر بحلية ذهبية وأمام

خيمتها تبعثر متاعها الكثير المزركش ، ويتجمع حوله الاهالى المساكين يحملقون فى دهشة ، ولعلهم لم يروا أبهة ولا بهرجة كهذه • وكغيرهم من العرب راحوا يلمسون كل شيء ويبدى أحدهم اعجابه بهذا ، وآخر يبدى اعجابه بذاك ، غير أنهم يجمعون ، ولا شك ، على أمر واحد ، أن فاطمة سيدة رائعة الجمال مفرطة السمنة أيضا • والحق يقال أننى لم أر فى حياتى مثل هذه الكتلة من اللحم البشرى •

واستقبلتنى السيدة بحفاوة بالغة ودعتنى الى الجلوس بجانبها وكان أول سؤال وجهته لى هو « هل هنالك فى بلدى نساء فى مثل سمنتها وأناقتها » ؟

وأجبتها فى صراحة قائلا : اننى لم أشاهد فى حياتى سيدة تملك نصف ما تملك من لحم « واعتبرت السيدة اجابتى هذه مجاملة عظيمة ، والحق أنه بصرف النظر عن اكتنازها فقد كان لها وجه جميل وملامح حلوة • وكانت وهى تكلمنى تتسلى بقرع طبلة مصنوعة من الفخار ويسمونها «دربوكة» ولعلها لاحظت أننى أطرب لها فأمرت رجلا عجوزا أن ينهض ويرقص • وصاحبته النساء بالغناء والتصفيق ، بينما استغرق الرجل فى حركات خالية من الذوق • وحينما انتهى نهضت سيدة وقدمت رقصة بارعة ، وفكرت أن فاطمة تعرض علينا أداءها فى الرقص الا أن دخول السيد « ريتشى » وضع نهاية لكل ذلك فغطت النساء وجوهن • وأطالت فاطمة النظر الى السيد «ريتشى» ، ووجدت ، لدهشتنا ، وجه شبه بينه وبين زوجها الراحل ، فقد كان عمر زوجها حين اضطرت لتركه نزولا على رغبة الباشا خمسين عاما ، وله لحية بيضاء بينما كان « ريتشى » فى السابعة والعشرين من عمره • وأمطرتنا فاطمة بماء الورد وسمحت لنا بمغادرتها وعندما عدنا الى خيمتنا أرسلنا لها قليلا من البن والسكر

ووجدنا صعوبة جمة فى الحصول على ماء للجياد هنا نظرا لعمق الآبار ، ولان الاهالى ينهمكون طيلة الصباح فى ملء قرب الماء • وفى المساء ذهبنا الى القلعة لزيارة (المكنى) وكان يحيط به عدد كبير من أتباعه يأكلون ويشربون ودعينا لمشاركتهم الطعام • وعلى الرغم من أن الرجل هم ضيوف (المكنى) فان الاهالى المساكين يضطرون الى تقديم الطعام اليهم دون مقابل •

٢ ابريل : أعددنا ماء يكفينا ثلاثة أيام ، واستأنفنا الرحيل فى السابعة

والربع صباحا • وهنا غادرنا كل الاصدقاء ، وعادوا الى طرابلس وبقينا وحدنا بين أناس أغراب علينا ، وكم حزنا لذلك ، ومر اليــوم بأكمله دون حديث يذكر • وسار الطريق عبر صحراء صخرية حتى الظهر حين تبدل المشهد الى أرض خصبة لكنها تفتقر الى الماء •

وفي الساعة الرابعة والخمسين دقيقة دخلنا واديا آخر ورأينا به أعدادا كبيرة من الغزلان • ومضينا عبر الوادى حتى الخامســة والثلث حيث توقف الركب ، وعسكرنا بالمكان بعد أن سرنا ثلاثين ميلا باتجاه جنوب جنوب الشرق وتركنا الجياد ترعى فى حقل شعير كبير تملكه قبيلة «ورفله» ويسمى المكان قايرى .Gairi أو سوفجين Sofagie • والى الجنوب وعلى بعد ثلاثة أميال ينتصب جبل يقال له « قله » وتمتد فى نفس الاتجاه وعلى مسافة بعيدة سلسلة جبال يقال لها سوارت Sauarit وكلاهما مرعى طيب •

وعبر الطريق اكتشفنا وفاة أحد اهالى بورنو السود فوق جمله • وطفقت النسوة تصرخ وتولول وحملت الجثة بعيدا حيث دفنت على الفور • وفى المساء استطاع أحدهم أن يسرق بندقية واحد من رجال السـلطات واكتشـف أمره وجلد على قدميــه بأسلوب مفرط فى الوحشية والبربرية • وبعــد أن انتهى الجلد امتطى أحدهم جوادا وراح بأقصى سرعة واللص المسكين مربوط الى سرج الحصان ويداه معقودتان خلف ظهره •

٣ ابريل : سرنا طوال النهار عبر واد صخرى لا نبات فيه ، تغطيه قطع صغيرة من الصخور «المتزججة» ، وفى المساء بلغنا واديا آخر به بئر ماء وبضع أشجار ، وفى الليل تناهى الى أسماعنا عواء الذئاب والضباع • قطعنا اليوم ثمانية وعشرين ميلا الى الجنوب الشرقى •

٤ ابريل : فى الساعة السابعة صباحا استأنفنا السير عبر واد قاحل لا ماء فيه ، وفى الطريق جمعنا بعض العشب وقودا لوجبة المساء • سرنا اليوم تسعة وعشرين ميلا الى الجنوب الشرقى •

٥ ابريل : مضينا عبر طريق لا يختلف عن سابقه حتى الثانية ظهرا حين صعدنا تلا شاهقا ، ودارت عيوننا تلف الاقليم المقفر كله وبعض الاعشاب تتبعثر

هنا وهناك ، وعند الغروب هبطنا المنحدر ، ونصبنا خيامنا بعد أن سرنا خمسة وثلاثين ميلا الى الجنوب الشرقى .

٦ ابريل : استأنفنا السير فى السادسة صباحا ، ومررنا بوديان Hait ، وزمزم وبكل منهما أعشاب شوكية تغذت عليها جمالنا . ويمتد وادى زمزم الى مسافة كبيرة ناحية الشمال حتى يلتقى بخليج سرت .

وفى الواحدة والنصف بلغنا بئر «بونجيم» بعد أن عبرنا الوادى كله . وماء عين «بونجيم» لا تختلف طعما أو رائحة عن الماء الآسن المتعفن ، وتتفجر العين فى طبقة طينية سوداء و لايزيد عمقها على خمسة أقدام . وعلى بعد نصف ميل من البئر ترتفع قلعة رومانية قديمة بين تلال رملية متوسطة الارتفاع والقلعة مستطيلة الشكل ويوجد فى منتصف كل حائط من حوائطها بوابة يرتفع على جانبيها برجان قويان ، وعلى أية حال فلا يرى سوى حائط واحد ، أما الحوائط الاخرى فربما سقطت أو دفنت وسط الرمال . والصخور التى شيدت منها القلعة ذات حجم كبير ككل البنايات الرومانية وهى من الجرانيت الاسود . ووسط الحوائط تنتصب أعمدة قوية تعطى الاحساس بأنها كانت تحمل بناء هائلا . ويبلغ ارتفاع هذه الاعمدة حوالى عشرة أقدام . ووسط الاطلال تبدو فوهة بئر مطموسة تماما . وتمتد الحوائط من الشرق الى الغرب حوالى مائتى خطوة ، وربما يجدر بى أن أقول تمتد قمم الحوائط ، فالرمال تغطيها تماما فى بعض المواقع ويبلغ طول الحوائط من الشمال الى الجنوب حوالى مائة وخمسين خطوة ، ويبدو أن العرب قد استخدموا الابرج الشمالية فما زالت تحمل بعضا من بقاياهم . ويقال انه كانت هناك كتابات تتصدر مداخل المبنى ، وعلى أية حال فما زالت كتابات البوابة الشمالية على حالتها ، ولا بد أن البوابات جميعها تحمل الكتابات التالية :ـ

IMP. CAES. L. SEPTIMO. SEVER.
P. 10. PERTINACI. AVG. TRPOTV. III
IMP. GSIIPPET. IMP. CAES.M
AVREL.10. AVTONIINO V RI
IIII. ET SEPTIMINO CAE
AVG: O. ANICIO. FAVTO. LEG.
AVGSTORRM. CONSVLARI.
IUO. III. AVV. P. V.

وتحت هذه الكتابات حملت الحوائط ذات يوم تماثيل محفورة على هيئة نسور ضخمة الا أنها الآن متهدمة تماما ، ولا يبدو منها ما يشبه هـذا الطائر فى كثير أو قليل •

ويعتبر هذا المكان الحد الشمالى لفزان ، وحين يرسل (المكنى) عبيـــدأ الى طرابلس يكون مسئولا عنها حتى (بونجيم) ، ويلتزم باشـا طرابلس بأى خسارة تحدث بعد ذلك ، وبالمثل حين يرسل الباشا بضاعة أوجيادا الى (المكنى) فهو يتحمل مسئوليتها حتى (بونجيم) بينما يتحمل (المكنى) أى خسارة تقــع بعد ذلك •

وتقـع «بونجيم» طبقـا لتقـديرات السـيد «ريتشى» على خـط عرض ٣٢ ٣٠ ٣٥ درجة شمالا • وعند «بونجيم» مر بنا ثلاثة من العرب يركبـــون الجمال ويصحبون اثنتى عشرة جارية من مرزق • وكنا نتوقع ونحن نغـادر طرابلس أن تتعثر مسيراتنا • وأننا سنضطر للتوقف خمس مرات فى اليوم لاداء الصلاة ، الا أنه يبدو أن رفاقنا لا يشغلون أنفسهم كثيرا بهذا ، فلم أر واحدا منهم يصلى أبدا ، لا بل لعـلى رأيت اثنين أو ثلاثة • أما (المـكنى) ورجاله فواضح أن هذه المسألة لا تشغلهم على الاطـلاق • وربما كا الشخص الوحيد الورع بين القافلة بأسرها ، هو أحد أصحاب الجمال الذى لم يكف لسانه لحظة واحدة عن ترديد آيات من القرآن ، يقرؤها بصوت عال ويتلـــو عشرات الرقى والتعاويذ التى تحرق الشياطين • كان ذلك فى بداية الطريق على أية حال،أما الان فقد استحال هذا الورع الى وغد كبير ، وحينما يحـدثنا الرجل كان ينادينا بالروميين والكفرة ، وحينما عرف (المكنى) ذلك هدده بالجلد ان عاد الى مناداتنا بأى اسم عدا كلمة «مملوك» وهو اللقب الذى ينادينا به (المكنى) نفسه •

وكان أفراد القـافلة قد ازدادوا معرفة بنا فى هـذه الاثنـاء ، وسرعان ما اكتشفوا مواهب السيد ريتشى الطبية ، وتقاطر عليه الجميع يسألونه علاجا لآلامهم • وكانوا جميعا تواقين الى « الفصد » وتناول الدواء • ولجأ الى بعض من كانوا يشكون من أمراض وهمية أن أعطيهم علاجا • ولم أجد بدا من أن أعطى كلا منهم خليطا من البن والملح والخل والفلفل الاحمر مع أوامر

مشددة بكيفية ووقت تعاطى الدواء ومواعيد النوم والطعام • وفى الصباح وجدتهم - لدهشتى - يذيعون خبر موهبتى الطبية بين الجميع •

٧ ابريل : عادت الجمال التى كنا قد تركناها ترعى فى الوادى وانتظرنا حتى الواحدة والنصف مساء حتى تأهب الركب للمسير • وسبقنا عربى عجوز يدعى « عبد الله البنداق » ، سبقنا الى مرزق ليعلن خبر وصول السلطان • وسار بنا الطريق عبر صحراء قاحلة تسمى «قلية» Klia ، وفى الخامسة مساء مررنا ببناء مشيد من الحجر الجيرى غمرته الرمال ، وحينما اقتربنا منه اتضحلنا أنه برج صغير ويسمونه برج بازين أو برزين • ويطلق الأسم ذاته على المنطقة المحيطة بالبرج أيضا • ولقد كان من السهل علينا فى موقعنا أن نتحق من أن التلال الرملية القاحلة تحيط بنا من كل ناحية • وقبيل منتصف ألليل توقف الركب للراحة فى واد رملى يقال له «بوناقة»بعدأن سرنا مسافة خمسة وعشرين ميلا الى جنوب الشرق• وبينما كنا نسير هذا المساء استعرض الفرسان مهارتهم أمام (المكنى) وغنى العبيد ، وأخذ السلطان بندقيتى وهرول بين الرجال بأقصى سرعة وراح يطلق النار فى كل اتجاه ، وكانت مناسبة هذا الاستعراض أننا بلغنا حدود مملكة فزان •

٨ ابريل : تركنا الوادى فى السادسة صباحا ، وفى السابعة مضينا عبر درب يسمى «خرمة المحلة» أو «خرمة الجيش» • وفى التاسعة والثلث عبرنا سلسلة جبال تمتد فى اتجاه الشمال الشرقى والجنوب الغربى ، وتسمى ألود Elood الصحراء هنا أصبحت صخرية وعره ، وهناك الى الجنوب وعلى مسافة ميلين أو ثلاثة تمتد سلسلة جبال من الشرق الى الغرب ، وتشكل ما يشبه الهلال شرقى الطريق ويسمونها قواتله • .Guatela والى الجنوب تمتد سلسلة أخرى صفراء غير مستويه على بعد خمسة أو ستة أميال • وفى العاشرة وخمس دقائق عبرنا أقصى جنوبى سلسلة جبال قواتله ، وامتد طريقنا بين أقدام الجبال • وفى الحادية عشرة صباحا درنا ناحية الجنوب ثم الى الشرق • وفى الواحدة والربع مررنا بتل مخروطى يقع بمعزل عن بقية الجبال ، ويشبه الخيمة ولهذا فقد خلع عليه الأهالى التسمية ذاتها • وفى الخامسة بعد الظهر دخلنا ممرا يسمى «خرمة الزيت»Hormut Tuzzat وانتهينا منه فى السادسة ،

واتسع الوادى وانتصبت جبال «مته امحمد» Matta Imhammed ناحية جنوب الشرق ٠ وعسكرنا فى السادسة والثلث وخلال رحلة اليوم نفق أحد جمالنا وعجز ثلاثة أخر عن النهوض ، وكانت جمالنا فى الواقع فى حالة يرثى لها ، فمنذ عدة أيام لم تنل طعاما ذا بال ، على الرغم من مسيرتنا الطويلة ٠

٩ ابريل : استأنفنا المسير فى السادسة والربع صباحا عبر أرض مستوية لا يعوق العين حاجب ، فيما عدا بعض الجبال البعيدة ٠ وبعد مسيرة ساعتين ونصف رأينا شجرة وحيدة ويتخذها المسافرين علامة الطريق ، ويعنى وجودها أن أمامنا رحلة يوم كامل قبل أن نبلغ الماء ٠ وسمعت أن العبيد حينما يأتون من فزان لا يسمح لهم بالشرب قبل أن تصل القافلة الى موقع تلك الشجرة ، وتعتبر هذه المرحلة أطول مراحل الطريق التى يقضيها المسافر دون ماء ٠

ويطلق العرب على الجبال البعيدة أسم خد الخادم .Khod EL Khadem ، أما الوادى فيسمونه غرارات عرب هون Grarat Arab Hoon وفى السابعة بلغنا ممرا يسمى Hormut taad atar وبعد أن عبرنا واديا ملتويا ، توقفنا فى التاسعة بالقرب من أحد الآبار المالحة ٠ وهذا البئر تجف كثيرا فى المواسم الحارة ، وهى الآن منخفضة تماما وعانت الجياد الكثير وهى تشرب ماءه المخلوط بالطين ٠

١٠ ابريل : استأنفنا المسير فى السادسة وعشرة دقائق صباحا ، وعند السابعة كنا قد انتهينا من ممر Hurmut taad atar ومضينا عبر واد صغير حيث نصبنا خيامنا على الرغم من هبوت عاصفة رملية شرقية ، وتراكمت الرمال بكميات كبيرة ، وتعذرت الرؤية على بعد عدة ياردات ، ولم نستطيع أن نعد طعاما ٠ وحينما خفت حدة العاصفة ، نهضنا نزيح أكوام الرمال عن بضاعتنا وسمحنا للجمال أن ترعى حتى الثالثة ٠ وفى الثالثة والربع تابعنا المسير عبر الوادى حتى السابعة حين توقفنا وسط أشجار النخيل وبالقرب من نبعين ماؤهما طيب ويسميها العرب «حمام» Hammam ٠ كنا نستطيع المضى قدما الى سوكنه ولكن (المكنى) كان يفضل أن ندخل المدينة فى الصباح ، وعلى هذا فقد اضطررنا لان نتوقف وانشغل كل منا فى حلق لحيته ٠ واستعد رجال المكنى

استعدادا لائقا لدخول المدينة ولحق بنا كثير من قارعى الطبول ونافخى القرب على ظهور الحمير •

١١ ابريل : تابعنا المسير فى السابعة صباحا بصحبة (المكنى) وحاشيته فى لباسهم المزركش ، فتبينا أننا متخلفون فى المظهر الخارجى • ولسوء الحظ لم نقدر أهمية ارتدائنا ملابس جديدة ، ولم يدر بخلدنا أننا لابد أن نستعرض أبهتنا ، وبينما ، لبس رجال السلطان أبهى حللهم ، بقينا نحن فى أرديتنا العربية المتواضعة ولم يكن (المكنى) راضيا عن اغفالنا لمظهرنا ، فما دمنا نسير فى صحبته وما دام هو يعتبرنا من علية القوم فقد كان من الواجب أن نهتم بمظهرنا • وحينما بلغنا مشارف المدينة أطلق الجنود النيران وراحوا يتسابقون ويستعرضون مهاراتهم أمام السلطان • وتناول الموسيقيون آلاتهم وراحوا يقرعونها بأقصى ما يستطيعون من قوة • وتجمع عدد كبير من نساء سوكنه يرتدين أفضل ما لديهن من ثياب وانطلقت الزغاريد ، وعلا الغناء ، وراحت النساء يدعون الله أن يبارك السلطان وأسرته • وهرع مالا يقل عن سبعمائة رجل مسلح للقاء السلطان ، هذا فضلا عن اعداد غفيرة أخرى لا تقل عن ثمانمائة رجل • جاءوا جميعا للترحيب به • وتقدمت جياد (المكنى) تخطر فى سرجها الزاهية يقودها فرسان غاية فى الاناقة ، وعلى الموكب ترفرف رايات حريرية ثلاث مخططة أفقيا بالأحمر والأصفر • واصطف المستقبلون فى صف طويل وحينما اقتربنا منهم أطلقوا الأعيرة النارية وصاحوا جميعا فى صوت واحد مهللين واندفعوا سريعا واحاطوا بالباشا يقبلون يديه ، وبعد أن انتهت مراسيم الاستقبال تفرقوا فى جماعات صغيرة وراحوا يطلقون النار • وفى العاشرة صباحا بلغنا سوكنه ، واتجهنا ناحية المنزل الذى أعد لاستقبالنا ، وفى المساء وصلت الجمال ولبسنا أبهى مالدينا من لباس مطرز مذهب ، وذهبنا للقاء السلطان وألفيناه محاطا بمئات من العرب كلهم يتكلمون بصوت واحد ، وكانوا يناقشون بعض المسائل المادية ، والمكنى يسمعهم فى صبر بالغ • أحس أننى أصبحت أكثر قدرة على التحدث باللغة العربية وحاولت أن أعلم يوسف ابن السلطان بعض الانجليزية •

وسوكنه •• تقع على واد رحب تحدها من الجنوب الجبال السوداء على

بعد خمسة عشر ميلا وجبال ودان من الشرق وعلى بعد ثلاثين ميلا ، وتحدها من الغرب سلسلة جبال بعيدة • والمدينة مسورة وتضم قرابة ألفى نسمة • ويوجد بأسوار المدينة بعضع فتحات أعدت لاطلاق النـار • وللمدينة سبعة مداخل ولا يسمح بدخول الجمال المحملة الا من بوابة معينة•وشوارع ضيقة جدا والمنازل مشيدة من الطين المخلوط بالحصى • ومعظم المنازل لها طابق ثان يرتفع فوق الطابق الأرضى ، وفى كل منزل فناء صغير يتوسط الدار وتصطف حوله الحجرات التى لا يدخلها الضوء الا من الأبواب • وماء سوكنه ـ على الأغلب ـ مالح ومر ، وتوجد ٢٠٠٠٠٠ر٢٠٠ شجرة نخيل بجوار المدينة ، ويدفع أصحابها ضريبة عنها ، كما يوجد مثل هذا الرقم من أشجار النخيل التى لم تثمر بعـد ولا تجبى عليها أية ضرائب • وينمو هذا النخيل على طول حزام رملى •• على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة ، ويعتبر بلح سـوكنه من أجود تمور الشمال الافريقى ، ولهـذا فهو يباع فى طرابلس بأسـعار طيبة • أما المنطقة المجاورة للمدينة فهى قاحلة تماما وخالية من العشب والكلأ ، ولهذا فهم يسوقون الجمال لترعى فى منطقة تبعد خمسة أميـال عن المدينة ، بينما يفضل أصحاب الحيوانات التى تعيش بالمدينة أن يطعموها بلحاء ولا يوجد بالمدينة خراف كافية ، وتفـد اليها اعداد كبيرة من بنى وليـد وتباع غالية ، ويزرع الأهالى الشعير والذرة والقصب كما يزرعون البصل والفلفل واللفت بكميات قليلة • ويوجـد الذباب بأعداد هائلة فى سوكنه ، ولهذا فان الأهالى يحملون مذبات من الشعر • وربما كان سبب وجود الذباب بهذه الأعـداد الهائلة هو ما اعتاد عليه الأهالى من الاحتفاظ بالبلح فى المخازن داخل المنازل، ويتجمع الذباب على كل طعام ، وحينما تضع طبقا لا تمر ثوان قليلة حتى تهرع اليه أسراب الذباب تلعق مابه • ويدفع الأهالى للسلطان ضريبة على النخـل قدرها ٢٠٠٠ دورلا بمعدل دورلا واحد لكل مائتى شجرة • كما يتعين على شيخ المدينة أن يقدم الطعام للسلطان ومن معه ، بل ويطعم الدواب أيضـا وبالطبع يقوم الشيخ بجمع الطعام من الأهالى دون مقابل •

وزى أهل سوكنه ، لايختلف كثيرا عن لباس البدو ، ويتكون من رداء قصير وغطاء رأس أحمر وحذاء خفيف ، ولايستطيع ارتداء الزى الطرابلسى

الا عــدد قليل من الأهالى . ولعــل نظافة الرجال وأناقتهم ملاحظة جديرة بالاهتمام والدهشة اذا قورنت بسوء مظهر سـكان السواحل ، ولئن اشتهر رجــال ســوكنه بالنظافة فان نســاءها يتميزن بأناقتهن وجمــالهن الفــاتن .

وحينما كان يتولى الحكم فى فزان أمير من أهلها . كانت سوكنه واثنتان من المدن المجاورة ، تتمتع باستقلال نظرا لبعــدها النسبى عن كل من فزان وطرابلس . ولهذا فقد كان كثير من المغضوب عليهم ، والهاربون من العدالة يجدون فى سوكنه مأمنا ، وكان سكان سوكنه آنذاك ضعف سكانها اليوم . ويتكلم أهل سوكنه لغة متميزة ، ويتحدث بها أيضا طوارق الصحراء الكبرى وتسمى لغتهم « رطانة » Ertana ، وأعتقد أنها اللغة البربرية الأصيلة . ولقد سردت بعضا من مفرداتها فى صفحات تالية .

وانتهز (المكنى) فرصة وجوده بالمدينة وقام بجباية الضرائب من المواطنين، وأمضى وقته كله بين العرب يدخلون اليه فى أفواج ، وحينما تنتهى مجموعة من لقائها معه ، يؤمهم فى صلاة سريعة ويخرجون ليخلــوا الحجرة لآخرين ليسوا أقل ازعاجا منهم .

وعلى الرغم من عنـــــاد الاهــالى ورفضــهم دفع الضرائب ، فهم أبــدا لا يستطيعون شيئا أمام (المكنى) ، واذا حاول أحدهم أن يناقشه ، ارتفعت عقيرة أحد رجاله بالآذان، ولابد حينئذ أن ينسى كل صاحب حاجة حاجته ويصطف خلف (المكنى) فى خشوع ويستغرق فى صلاته . ويراود شيخ سوكنه خوف دائم من القتل ، فقد قتل سلفه منذ عام ووجد مذبوحا ، ولم يسمح لأحد أن يقتفى أثر القاتل ، ودفع الاهالى غرامة تساوى ٢٠٠٠ دولار للسلطان ، على الرغم من أنه المتهم الوحيد .

وقــد جرت العادة أن يرســل السلطان بعض رجاله الموثوق فيهم الى «هون» و «ودان» ، والمناطق المجاورة لجمع الضرائب. وقرر أن يرسل بعض رجاله برفقة ولده يوسف ، وسمح لى وللسيد ريتشى بمصاحبة الحملة ليتسنى لنا رؤية هذه البلدان عن كثب واستعدت كتيبة قوامها ثلاثون فارسا ، وتحرك الركب فى الرابع عشر من ابريل ووضع الصغير يوسف تحت حماية شخص يسمى ابراهيم ، وكان مسئولا أيضا عن حمايتنا وقضاء حاجتنا . ومضينا عبر الوادى ، ومررنا خلال أشجار النخيل وسرنا عشرة أميال الى الجنوب الشرقى

قبل أن نصل «هون» . ومدينة «هون»أصغر من سوكنه، وهى مسورة ومشيدة على نفس الطراز وحدائقها ونخيلها قريبة من الأسوار . ويوجد بالمدينة مساجد وثلاث بوابات ومبنى كبير خليق بان يسمى قلعة ، على الرغم من أن حوائطه خالية من أية فتحات للبنادق . وخرج الأهالى وبنادقهم العتيقة فى أيديهم يطلقونها فى الهواء ترحيبا بيوسف ابن السلطان ، واستقبلنا بنفس الحفاوة التى استقبلنا بها فى سوكنه منذ بضعة أيام . وفى صحن الدار التى نزلنا بها ، تجمعت الراقصات يرقصن طوال اليوم ، وفى المساء أنضم اليهم بعض العبيد . وحينما جاء الينا البعض يطلب ذرة أو نقودا للراقصات والمنشدين ، كانت هى المرة الأولى التى يطلب منا فيها دفع مقابل ، ولسوء الحظ لم يكن لدينا ما ندفعه على الرغم من لباسنا المزركش ومظاهر الثراء التى تحيط بنا .

ولاحظت أنهم يضعون بيضة نعام أو أكثر على كل قبر ، كما يضعونها عند أبواب وزوايا المساجد. ودخلنا ضريح أحد المرابطين وطفقنا نقرأ الفاتحة بصوت عال ، وفى المساء ذهبنا لزيارة الحقول القريبة من المدينة ، والتربة هنا رملية ومع هذا فالمحصول وفير نظرا لوفرة مياه الآبار القريبة . وعرف الأهالى مقدار الضريبة المفروضة عليهم وتعهدوا بتجهيزها ريثما نعود من «ودان» وفى الخامسة عشر من ابريل تركنا المدينة فى طريقنا الى ودان عبر صحراء ، وسرنا مسافة اثنى عشر ميلا شمال الشرق .

ومدينة ودان ، مدينة بلا أسوار وتبدو أقل نظافة ونظاما من المدينتين الأخريين على الرغم من روعة موقعها ، فهى مشيدة على تل مخروطى ، وعلى قمته شيدت عدة منازل ملتصقة يسمونها قلعة . ويوجد بالمدينة بئر عميقه محفورة فى أرض صلبة لم يبنها البدو بكل تأكيد . واصحبنا الشيخ لزيارة أحد المساجد حيث قطعة حجر قديمة نقشت عليها كتابات عربية ،ومن التاريخ المدون عليها لابد أنها ترجع الى أكثر من ستمائة عام . والحجر مثبت فى حائط طينى ، ولا أحد يعلم أين وجد ولا من وضعه بالمسجد . ولم يحاول السيد ريتشى أن ينقل ما عليه من كتابات فلم نكن على علم بعادات المكان . والمقابر والمساجد كما هو الحال فى هون سزدانة ببيض النعام .

وأهالى ودان من العرب ومن قبيلة يقال لهـا مواجر Moager ، وهم يعتمدون على رعى قطعانهم فى سرت ، كما يسكن المدينة غير قليل من الشرفاء الذين ينحـدرون من سلالة النبى (صلى الله عليه وسـلم) • وبالقرب من المدينة تمتد سلسلة جبال تسمى جبال ودان ، وهى تحمل هذا الاسم نظرا لأعداد الجاموس الهائلة الموجودة هناك ويوجد ثلاثة أنواع من الجاموس ، أولها مايسمى «ودان» وهو حيوان فى حجم الحمار وله قرون ضخمة ، شعر غزير يتراوح طوله مابين ثمانى عشرة بوصة وقدمين ، وله رأس كبير ، وهو شرس جدا • أما النـوع الثانى ما يسمى بالبقر الوحشى ، وهو عبـارة عن جاموسية ذات لون أحمر حركتها بطيئة ولها قرون طويلة ، وهى فى حجم البقرة العادية أما النوع الثالث فيقال له الجاموس الأبيض ، وهو أخف حركة وأكثر خجلا ووداعة • ويعيش أيضا على جبال ودان أعداد كبيرة من النعـام ويرتزق كثير من الأهالى على صيده وبيع ريشه • ويقال أن النعام لا يترك بيضه يفقس بفعل حرارة الشمس،وانما يبنى له عشا يضم ما بين أربع عشرةأو ثمانى عشرة بيضة،ويرقد عليه النعام كما يرقد الدجاج على بيضه•وتتناوب اناث النعام وذكوره النوم على البيض • وخلال مواسم الفقس يصيد العرب النعام الكبير ويأخذون الفراريج الصغيرة ويربونها فى حظائر ، وينزعون ريشـها ثلاث مرات كل عامين • وربما كان كل ما يرسـل الى أوربا من ريش النعام هو ريش النعام الأليف ، فريش النعام البرى أقل جودة منه • وتقطع الجمال رحلة خمسة أيام الى سرت لترعى هناك ، وفى كثير من الأحيان تنمو كميات كبيرة من الكلأ بعد مواسم الأمطار والسيول وتوفر غذاء معقولا لأسابيع عدة•

شربنا اليوم « اللاقبى » ، وهو عصير يحصلون عليه من شجر النخيل ويضيفون اليه اللبن أحيانا ، وقدمت النسوة لوحات راقصة استمرت حتى منتصف الليل ، وتسلم قائد الحملة الضريبة • بعد صلاة العشاء •

١٦ ابريل : عدنا الى هون واستقبلنا كما استقبلنا من قبل• ووافق اليوم ، يوم الجمعة ، وخرج كل الأهالى للصلاة وذهبت الى المسجد حيث تجمع أكثر من مائتين للصلاة ، كما أقيمت صـلوات أخرى للدعاء للسـلطان وأسرته • وأعتقد أننى اجتزت امتحان الصلاة بنجاح ، على الرغم من أننى لاحظت أن

بعض المسنين كانوا ينظرون الى بعين الريبة ، لعلهم اكتشفوا أننى كنت آتمتم بشفتى دون صلاة حقيقية .

وأحضر شيخ المدينة الضريبة المطلوبة ، وجاء الينا يصحبه عدد كبير من الأهالى ، وتعرفت من بينهم على غلام رافقنا فى رحلتنا من طرابلس ، وطلبت منه أن يقودنا فى جولة بالمدينة وقبل طلبنا بسرور بالغ ، وكثيرا ماكان يهرول أمامنا ويدعو كل معارفهمن الفتيات للتفرج على المماليك الجدد ،وكن يخرجون بأعداد كبيرة حاسرات الوجوه ، وكان بعضهن على جانب من الجمال . وكان واضحا أن حديثنا معهن يروق لهن كثيرا ، فكن يضحكن على طريقة نطقنا وأخطائنا . وسكان هون من قبيلة فطيمة Fateima ، وهم أناس طيبون وعلى أخلاق كريمة .

أردت أن اعرف الى أى حد استطيع أن امارس سلطانا وسلطة على العرب ، ولم يشأ السيد ريتشى أن يتدخل وتركنى اتصرف كيف اشاء . وخلال رحلتنا من طرابلس راقبت عبدا مسكينا فى الخمسين من عمره يملكه أحد أصحاب الجمال وقد نال منه التعب والاجهاد كل مأخذ حتى لم يعد بقادر على ملاحقتنا . ومضى بجسده النحيل يجرجر قدميه المتورمتين . أما صاحبه القاسى فكان يبعث به دوما ليعنى بالجمال غير عابىء بما حل به .

وحينما بلغنا سوكنه أرسله صاحبه برفقة الدواب وعاد المسكين وقد داهمته الحمى وساءت حالته . ولم يسع صاحبه كالعادة الا أن يوسعه ضربا وحشيا بعصاه . وربما ضايقه عدم قدرة العبد على البكاء فراح يشاركه أحد رفاقه بضربه على رأسه بالحجارةودفعنى المشهدالرهيب الى أن ادافع عنالمسكين غير أن محاولتى لم تحظ الا بالضيق والاستياء . وتعرضت للسخرية حين حاولت أن اوضح لهم أن العبد ما هو الا آدمى تماما كسيده . وأصررت على موقفى وذهبت لفورى لرئيس رجال المكنى واستحلفته برأس السلطان أن يعاقب صاحب العبد .

واستجاب الرجل ونال صاحب العبد علقة ساخنة وحينما عدت الى منزلنا تبعنى العربى الآخر وراح يضايقنى ويهزأ بى لدرجة أننى ضربته بسوطى، خشيت بعدها من انتقامه . غير أننى اكتشفت فيما بعد انه لامبرر لخوفى فقد

دأب الرجل نفسه على تقبيل يدى كل صباح وحينما يرانى يذهب الى العبد المسكين الذى اضحى فى صحبتنا يلاطفه ويربت عليه •

١٧ ابريل : عدنا الى سوكنه • وتسكن سوكنه قبيلة رياح كما يقيم بها عرب رحل من طرابلس وسرت كما يسكنها من قبائل أولاد سيف وأولاد بن مريم وقبيلة صحوب وهم يغيرون سكناهم سعيا وراء الكلأ ، يحملون خيامهم الخفيفة ينصبونها اينما يحطوا الرحال •

واستعد الركب للرحيل عن المدينة وأهدى السيد ريتشى بعض البارود والسكاكين للشيخ ، وعرفت فيما بعد أن (المكنى) استولى منه على تلك الهدايا •

ووقعت « للا » فاطمة آنذاك فريسة لمرض شديد • وأصبحت طبيبها بعد أن تجنب ريتشى عيادتها • واستطعت ببعض الوصفات التى ابتكرتها أن اشفيها • ولعل واحدا من أسباب مرضها أنها دأبت على شرب كميات كبيرة من اللاقبى الذى كان — دون شك سببا فى آلام الرأس التى المت بها •

حدد السيد ريتشى سوكنه بخط عرض ٣٦ ٥ ٢٩

وتركنا سوكنه فى الثانى والعشرين من ابريل فى صحبة السلطان ، وفى الحادية عشرة والنصف كنا قد مضينا شوطا طويلا بعيدا عن المدينة ، يرافقنا كثير من أهلها ، وتوقف الركب ، وصلى الجميع وقبل الرجال يد السلطان ، وعادوا أدراجهم الى المدينة • وفى الواحدة مررنا بعين صغيرة ، وهى النبع الوحيد بالمكان ولا يزيد محيطها على قدمين ، الا أن ماءها كان جيدا وأخبرنا السلطان وملامح الجد على وجهه أن أحد المرابطين كان مسافرا عبر الصحراء ، وكاد يموت عطشا ، وضرب الأرض بعصاه ودعا ربه فاستجابت له السماء •• وتفجرت هذه البئر • وفى الثالثة والنصف وطئنا أحد وديان جبال السوداء أكتوفا .Octaaffa ، وفى السادسة ضربنا خيامنا بالقرب من بئر يقال لها بئر قطفة .Gutfa • وكان المكان الذى اخترناه للراحة واديا صغيرا خاليا من كل نبت فيما عدا بعض الأعشاب الشائكة وتحيط به الجبال من كل ناحية • وهنا دفعنا ما يسمى بالـ «بوزفر» ، وهو عبارة عن ضريبة

يدفعها كل مسافر لدى دخوله فزان ، ويصاحب هذا الـ «بوزفر» احتفالات وطقوس شيقه ، واذا رفض أحدهم أن يتصدق بالطعام المطلوب فان الأهالى يحفرون له قبرا . ويصيحون ويصرخون كما لو كان أحـدهم قد مات ، ولا يجد الرجال بدا من أن يقدم الوجبة المطلوبة • سرنا ذلك آليوم ثمانية عشر ميلا جنوب ١٠ غرب •

٢٥ ابريل : تركناالبئر فى السابعة الا ثلثا صباحا ، بعد أن ملأنا القراب بماء يكفى خمسة أيام • ودارت الجمال حـول جبـل عال يقال له بوهادى Nufdai أما الجياد والرجال فقد صعدت الجبل عبر ممر وعر ، وتسلخت أقدام الجياد • وفى الحادية عشرة الا ثلثا بدأنا فى هبوط الجبل وبلغنا واديا يقال له صفار .Zgar حيث لحقت بنـا الجمال بعد أن أمضت أربع سـاعات فى الدوران حول الجبل • وفى الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة انتهينا من الوادى وصعدنا الى منطقة مستوية يقال لها ظهرة المؤمن .Dahr t'Moumen وهنا اختفى البازلت نسبيا وان وجدنا فى أحجام صغيرة كالحصى • وفى الواحدة وعشرة دقائق أستلمنا الطريق الى واد آخر يسمى امزيرات .Emzairaat رأينا به بعض الظباء •

وبينما كنت اجلس الى نخلة جاءنى أحدهم واخبرنى أنه شـاهد ثعبانا ساما يسمونه الافعى • تتكوم تحت الأعشاب وعلى الفور تسلحت بمؤخرة بندقيتى وحينما رأيتها رحت أدك رأسها ، وتصور بلفورد الذى حضر لتوه أن الثعبان غير سام وأمسك به من ذيله • ورفعت عنه عصاى ، غيرأن الافعى استدارت فجأة لتعض السيد بلفورد • ولو قدر لها أن تناله لصار موته محققا، فلم يكن لدينا أى أداة لاستخراج السم أو نار لتطهير الجرح • ذلك ألاسلوب الذى يحسنه العرب •

وتفحصت الافعى وكانت من نفس الافاعى التى رأيتها فى طرابلس • غير أن أفعى طرابلس لم تكن تتجاوز ست بوصات طولا أما هذه ألافعى فكانت ممتلئة وأشد فتكا وبلغ طولها قرابة القدمين، لونها بنى مبرخش مشرب بحمرة بطنها صفراء وكانت للافعى حركات متميزة، فهى لاتزحف كسائر الافاعى وانما تتمايل

الطريق يمتـد بنـا عبر وديان عديدة ، وفي الثالثـة توقفنـا في واد يقال له طنقارير.Tenigareer، وفي الرابعة والربع لحقت بنا الجمال وقررنا أن نعسكر بالمكان ، فقد كان غنيا بالكلأ .

٢٤ ابريل : رحلت الجمال في السابعة الا ربعا ، وفي العاشرة بلغنا جبلا يقال له جبل الكحل (سمي هكذا للونه الاسود) وفي الثانية عشرة بلغنا واديا يقال له مشيل Mesheil بعد ان عبرنا ممرا صخريا وفي الثـانية ظهرا انتهينا من جزء من جبال السوداء وهبطنا الى واد يسمى المرتبة السـوداء ، وسمي هكذا لانه مغطى برقع صغيرة من البازلت الاسود . وعند الساعة٢ر٤٥ وصلنا الى بقعة تسمى المرتبة البيضاء لانها مغطاة بحصى أبيض صغير .

المكان قاحل تماما ، ولا أثر لنبات ، وبين الحين والاخر ترى هيكلا عظميـا لحيوان نفق جوعا أو عطشا ، كما رأينا قبورا آدمية أيضا . وكانت الرمـم يابسة تماما بفعل حرارة الشمس وواضح أن الجثث لا تتعفن أبدا ، واذا مررت بجيفة حيوان مات حديثا ، فانك لاتشم أية رائحة ، اما الجيف التي فارقتها الحياة منذ آماد طويلة ، فهي باقية على ما كانت عليه ، والشعر مازال يغطيها .

وفي السادسة الا عشرا عبرنا عدة تلال تقع الى الشرق والغرب وتسـمى الكاف Gaat ، وهذه الصحراء تسمى زبير بن عثمان . وضربنا خيامنا في السابعة مساء بعد أن استبد التعب بالقافلة كلها ، قطعنا في ذلك اليوم خمسة وثلاثين ميلا جنوب الغرب .

٢٥ ابريل : رحلت الجمال في الرابعة صـباحا ، وفي الثامنة وخمس عشرة دقيقة عبرنا بعض التلال الرملية والمنطقة تسمى الرمل الكبير . وفي التاسعة بلغنا واديا آخر يغطيه صلصال أبيض ، وفي الثالثة بعـد الظهر عبرنا منطقة يقال لها الرمل االصغير «شرايا» .Shraya ، وفي السادسة الا ربعا هبطنا الى واد وعر ،وفي الخامسة مررنا بصخرة مخروطة يسمونها كنير Koneir تحيط بها صخور أخرى تشبه البرج وتسمى «أميمه سعد» .Amaymet Saad

وفى التاسعة دخلنا وادى أم العبيد ، وفى الحادية عشرة بلغنا بئرا تحمل ذات التسمية وتقع بين الجبال وتنمو حولها بعض الاعشاب .

وقابلنا هنا قطيعين كبيرين من الخراف والماعز قادمة من بنى وليد فى طريقها الى مرزق ، وفى الثانية عشرة وصلت الجمال . وبعد مسيرة عشرين ساعة قطعنا فيها ثمانية وأربعين ميلا جنوب الغرب استبد بنا الاجهاد تماما ، وعلاوة على وعورة الطريق فقد هبت عاصفة جنوبية وحملت معها الرمال ، وكثيرا ما فقدنا الطريق بعد أن تعذرت الرؤية على بعد ياردات ، ونتيجة لاستواء المكان فلم توفر أية حماية من الرياح والرمال ، وحططنا الرحال فى ساعة متأخرة ولم نستطع اعداد الطعام .

٢٦ ابريل : استأنفنا الرحيل فى السابعة صباحا ، وتركنا الجمال تنعم ببعض الراحة ، ومضى الرجال على الجياد الى «زيغن» وبلغناها فى العاشرة بعد أن سافرنا عبر منطقة صخرية وعرة . «وزيغن» قرية مسورة ، تحيط بها غابة من أشجار النخيل ، ولم يقدم لنا أهلوها طعاما كثيرا ، ووصلت الجمال فى المساء .

حددنا موقع زيغن بخط ٢٦ ٢٧ الى الشمال .

٢٧ ابريل : تركنا «زيغن» فى السادسة صباحا ، ومضينا عبر واد عار ، به بعض الروابى البازلتية ، وبلغنا سمنو Samnoo بعد أن قطعنا ثمانية أميال جنوب ٢٣ درجة غربا ، «وسمنو» قرية تشبه «زيغن» الا انها أكبر حجما ، وربما كانت أسوارها اكثر اتقانا . ومنازلها مشيدة بذوق وعناية ، وقد طليت حجراتها بطلاء أصفر . وتشتهر هذه القرية -تماما كزيغن- بكثرة مرابطيها . وتحيط بالقرية غابات النخيل ، وحقولها طيبة ومزهرة وبها ثلاث مآذن ولعلها أول ما رأيت منذ تركت طرابلس .

٢٨ ابريل : تركنا «سنمو» فى السابعة مساء ، وسرنا فى الظلام عبر واد عار ، الا من الحصى ، وفى منتصف الليل بلغنا قرية «تمنهنت» حيث وجدنا مضروبة على مقربة من المدينة وأخبرنا (المكنى) أنه لم يدخل هذه القرية أبدا على الرغم من أنه عسكر بالقرب منها عشرين مرة .

٢٩ أبريل : تركنا «تمنهنت» فى الرابعة والنصف مساء ، وفى الثامنة عسكرنا فى واد صغير •

٣٠ ابريل : رحلنا فى السابعة صباحا ، وأمضينا ساعتين عبر التلال ، وهبطنا أحد الوديان حيث توجد مدينة (سبها) والمدينة رائعة اذا القيت نظرة عليها من عل، فبساتين النخيل تحيط بها فتبدو كرقعة خضراء فى ثوب أصفر لانهاية له • وفى العاشرة بلغنا المدينة ، وهى مسورة بحوائط طينية وبها مسجد كبير تنتصب منه مئذنة عالية • وخرج كل الرجال لتحية السلطان • وهنا لاحظت أن لون بشرة الاهالى بدات تميل الى السمرة فمعظمهم من المولدين • وبدت المنازل نظيفة أنيقة لكنها منخفضة ، وقد بنيت الحوائط قوية ولكن دون نظام او اتساق •

رصدنا موقع سبها على خط عرض ٨ ٣ ٢٧ شمالا •

١ مايو : ترك (المكنى) المدينة بعد خلافات مع الاهالى تتعلق بالمسائل المالية وكانت الجمال قد رحلت عن المدينة قبل بضع ساعات ، واستمر الطريق كما كان عبر وادى حصوى تبعثر عليه صخور سود كبيرة على مسافات متباعدة • وتوقف الفرسان فى منتصف الليل ، ولحقت بنا الجمال فى الواحدة ، واستلقينا على الرمال ، والتلال الصخرية العارية تحيط بنا من كل جانب •

٢ مايو : استأنفنا المسير فى السابعة الا ربعا ، وفى الثانية عشرة بلغنا أحد الوديان الغنية بأشجار النخيل ، وهبت عاصفة رملية وغطت الرمال الشمس تماما ، وفى الواحدة والنصف بلغنا قرية «غدوة» ، وهى عبارة عن بضعة أكواخ طينية يسكنها حوالى خمسين نسمة •ونظرة واحدة الى أشجار النخيل المبتورة تعطيك فكرة عن ادمان أهل «غدوة» لشرب اللاقبى •ويوجد بالقرب مبنى طينى هائل ،وربما استنتجنا من وجوده أن هذه القرية كانت ذات شأن يوما ما،كما يوجد كثير من أشجار النخيل تغطى رقعة تمتد لمسافة عشرة اميال أو خمسة عشر ميلا ، وهى ملك للسلطان •

٣ مايو : تركنا «غدوة» فى السادسة والنصف لندخل مرة ثانية واديا صخريا عاريا • وفى الثانية عشرة مررنا بواد صغير يسمى «وادى النمل»

وسمى هكذا نظرا لاعداد النمل الهائلة التى تعيش به ، وهى ذات لون وردى جميل • وفى السادسة والثلث مساء دخلنا منطقة رملية تغطيها فى مواقع كثيرة طبقة من الملح المتشقق ، وفى الخلاء تجد بضع اشجار نخيل مبعثرة او بضعة أكواخ طينية بائسة • وفى الثامنة بلغنا مجموعة أكواخ ليست أقل بؤسا من سابقتها ، ويسمى الموقع جليم Dgleim ، ووصلت الجمال فى الحادية عشرة وتجمع سكان المناطق المجاورة ، وفى تقديرى أنه أطلق هنا من البارود أكثر مما أطلق فى أى مكان آخر رغم أنه لا يوجد بالقرية أكثر من خمسين بندقية • وطالما صاح فيهم السلطان قائلا « كفى •• كفى » ويأتى جوابهم باطلاق النار من جديد ، ويرددون : لاتخف ، لدينا بارود كثير ، وبينما كنت اتجول بين الرجال اطلق احدهم النار تحت أقدامى تكريما لى ، واصابتنى بضع شظيات فى قدمى فأدميت قليلا • وخشى الرجل أن يفطن السلطان الى ذلك ، ولكنى هونت عليه ودلكت قدمى بقليل من ماء وملح •

ونشطت الراقصات كما لم ينشطن من قبل ، وطيلة النهار والليل لم يصبهن الاجهاد من كثرة الرقص ، وحينما ذهبت الى خيمتى فى منتصف الليل ، لم تسكن أصواتهن قد هدأت بعد ، وسببت لى ازعاجا كبيرا • وفى موقعنا هذا لم نكن نبعد عن مرزق الا بثلاثة أميال ، وبهذا فقد استغرق كل الرجال فى الاستعداد لدخول المدينة •

٤ مايو : لبسنا أبهى مالدينا من لباس ، وحلقنا لحانا وتركنا المكان فى السابعة صباحا • وأرسل الينا (المكنى) رداءين رائعين،اذلم يشا ان يكون مملوكاه الجديدان أقل اناقة من بقية الرجال ، وطلب منا ـ أنا والسيد ريتشى ـ أن نسير عن يمينه ويساره • ومضينا عبر واد صحراوى حتى التاسعة والنصف صباحا ، حين بلغنا منطقة بساتين وحقول مرزق • ولم نكد نقترب من المدينة حتى خرجت الينا كوكبة كبيرة من الفرسان تتقدمهم ثلاث رايات حريرية • وحينما اقترب الفرسان منا ، هرولوا ناحيتنا بأقصى سرعة ، حتى اذا انضموا الينا نزلوا سريعا من فوق جيادهم،وهرعوا ناحية السلطان يقبلون يديه•وكان سيدى عليوه ، أكبر أبناء السلطان ، على رأس الفرسان وبعد أن فرغ الجميع من تقبيل يد (المكنى) ، امتطوا جيادهم مرة ثانية ، ورافقوا الموكب • وعند

اقترابنا من المدينة لحق بنا الراقصون والراقصات وقارعو الطبول ونافخو القرب . سار رجلان على جانبى السلطان وفى يد كل منهما مروحة من ريش النعام يبعدون عنه الذباب الذى يتهافت عليه .. ودخلنا المدينة فى العاشرة والنصف صباحا ، يرافقنا الفرسان وتتقدمنا رايات ست ٤ واصطف الفرسان فى صفين ، وراحوا يستعرضون مهاراتهم أمام السلطان هكذا حتى بلغنا أبواب المدينة .

الفصل الثالث

الوصول الي مرزق

عندما بلغنا المدينة تسابق الجنود فى شارع عريض ، وراحوا يصيحون ويطلقون النار بينما أخذت النسوة يزغردن فرحات مبتهجات ، وكان اللقاء مؤثرا للغاية • وبينما كنا نمر بأرض فضاء ، قبل أن نصل الى القلعة ، تلقينا التحية من مدفعين عيار ستة أرطال ، ولم ندخل القلعة ذاتها ، بل اتجهنا الى منزل خصص لنا ، وتولى أمر العناية بنا مملوك عجوز يدعى الحاج محمود ، أحضر لنا طعاما ساخنا وحصيرا كبيرة • وانتظرنا حتى النهار قبل أن يسمح لنا بلقاء السلطان وابنه الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة ،وقد انجبه السلطان من زوجة سودانية • وزارنا كثير من الأهالى • ولاشك أنهم اقنعوا أنفسهم بأننا من كبار القوم ، ولدينا آلاف من الدولارات ، فى الوقت الذى لم نكن نملك فيه أكثر من ثلاثمائة دولار فى حوزة (المكنى) ، ولم نكن ندرى كيف نحصل على مال يكفى احتياجاتنا المتعددة •

أمضينا فى الطريق مابين طرابلس ومرزق تسعا وثلاثين يوما • والطريق باستثناء ضواحى المدن ، صحراوى موحش به عدد قليل من عيون الماء المالح ، ولاشك أننا كنا محظوظين ، اذ سافرنا مع السلطان ، ولولاه لتعرضت قافلتنا لمتاعب لا حصر لها • وكان (المكنى) ــ والحق يقال ــ خير رفيق ، وأولانا اهتماما كبيرا ، وكثيرا ما كنا نشاركه الطعام • وكنت طوال الطريق رفيقه الدائم ، ولما كنت أكثر مرحا من السيد ريتشى ، فقد كان (المكنى) يدعونى دائما لأن أركب بجانبه ، وطالما حظيت بالكعك والتمر الذى كان يحمله معه • وكان (المكنى) يتكلم بعض الايطالية ،وطوال الطريق كان يتسلى بتوجيه الاسئلة لى حول بلادى وثرائها وعظمتها ، وطالما أضفى من خياله الكثير خصوصا فيما يتعلق بالمصارف وما تعطى من فوائد ، بل أنه ابدى رغبة كبيرة فى أن يودع بعض ماله فى بنوك انجلترا طمعا فى الفائدة ، واشار الى أنه لا يستطيع أن يتقاضى فائدة على أمواله هنا ، فان ذلك يتنافى مع تعاليم الديانة الاسلامية •

وحينما أخبرته أن النساء الانجليزيات يسمح لهن بأن تكون لهن ممتلكاتهن الخاصة ، بل أن بعضا منهن غاية فى الثراء ، لم يستطع أن يصدق ودهش كثيرا حينما قلت له : ان الشاب لا يتزوج عادة قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين وربما الثلاثين الا أنه فسر ذلك بما يناسب منطقه ، وتصور أن الشاب حينئذ ، لابد وأن يكون لديه عدد كبير من المحظيات وفى النهاية يتزوج بالمرأة التى تنجب له أطفال • ولم يجد غرابة فى ذلك فهو نفسه متزوج بامرأة واحدة بينما يحتفظ بخمسين جارية ، ويعتبر هذا الرقم متواضعا جدا بالنسبة لسلطان فزان(١) • وسألنى كثيرا : كيف يتخلصون من الاطفال غير الشرعيين ، وأحسست من طريقة سؤاله بأن هناك سببا وجيهـا لاصراره على أن أجد له اجابة • وسمعت فيما بعد من كثير من الناس أنه كان يأمر بخنق وقتل كل الاطفال الذين ترزق بهم جواريه (١) من رجال آخرين ، وان العادة جرت فى طرابلس على تسميم الأطفال غير الشرعيين وهم رضع •

ومنذ عام ولدت له أم يوسف الصغير ، طفلا أسود تماما ، وكان واضحا أن هذا الغلام لا يمكن أن يكون ابنه ، وأرسل المكنى فى طلب الاب المشكوك فيه ، وأمره أن يخنق الطفل أمام عينيه وسمح للأم أن تعود الى بلادها (١) • ولقد كان ذلك منتهى التساهل ، فالموت هو العقاب المعتاد لمثل هذه الجرائم •

وخلال الطريق الطويل من طرابلس الى مرزق ، كنا نسبق الجمال ، وعند الظهر نبحث عن شجرة نستظل بها ، وان لم نجد ، جلسنا فى ظل خيولنا • وخلال مسيرتنا كان السلطان يحمل معه زاد الرحلة ، فتجد حقيبته عامرة بالخبز والتمر واللحم المجفف ، وكان يتولى توزيع الطعام علينا ولو أن نصيبنا منه لم يكن كثيرا ، الا أنه كان كافيا لسد رمقنا • وبعد أن نأكل ونشرب بعض ماء ، يتمدد كل منا ويغفو قليلا حتى تلحق بنا الجمال ، حينئذ ننهض جميعا ونواصل المسير • ولقد كانت فترات الراحة هذه تعيد الينا نشاطنا وحيويتنا • أما الجمال والعبيد فلم يكن يتاح لهم أن ينالوا أى قسط من الراحة ، ويمضى الرجل وزوجه وربما أطفاله الصغار ، يمضون طيلة

---

(١) المبالغة والخيال يلعبان دورا واضحا فى هذا الامر (المراجع) •

النهار تلفحهم الشمس الحارقة ، وربما طال بهم المسير لست عشرة ساعة أو يزيد • ولقد كان لدى الأطفال الصغار قدرة غريبة على المسير لساعات طويلة دون ملل أو تعب ، على الرغم من أن أعمارهم كانت تتراوح بين الرابعة والخامسة ، وحين يتسرب اليهم الاجهاد آخر النهار يركبون الجمال بقية المسير • ورافقنا خلال رحلتنا رجل أعمى استطاع أن يظل متماسكا ، وقطع الطريق ما بين طرابلس ومرزق تقوده زوجته ، ربما دفعه الأمل •• أمل أن يسمع صوت ذويه ، دفعه الى أن يظل حيا ! ! •

وحين كنا نتوقف للراحة ، كان يجب أن نختار موقعا به بعض العشب لترعى عليه الجمال ، ونختار أرضا رخوة ، ندق فيها أوتاد الخيام ، مع استخدام بعض الأمتعة لصنع ملجأ لمن ليس لديه خيمة من لفح الريح والرمال ، وتدور الجمال وترعى ، بينما يذهب أصحابها لجمع الحطب ، وتوثق الخيول وتسقى ويقدم لها الطعام • وحين يعز الحطب ، فان نفايات الجمال تصبح بديلا طيبا وتعطي نارا متوهجة ، وتصنع حفرة صغيرة ويوضع بها ثلاث حجرات تحمل الوعاء النحاسي ، ويعد الكسكسي أو البازين ، وحين تعز النار فان قليلا من «الزميطة» يضاف اليها قليل من ماء وزيت يمكن أن تكون وجبة شهية • وفي الأمسيات اعتدنا أن نعد أقداح القهوة ، وكان (المكني) يأتي الى خيمتنا ويشاركنا الشراب ، وحين يترك خيمته ، يتجه الرجال يريدون تذوق «المشروب» • وفي الصباح كنا نشرب أحيانا قدحا من القهوة مع الافطار ، كان يساعدنا تحمل العطش كثيرا • ولقد لاحظت أننا لا نحتاج ماء كثيرا اذا ما أمسكنا عن الطعام في الصباح ، وربما كان ذلك سببا في صبر العربي على قلة الماء ، وعلى العكس فاذا شرب أحدهم بعض ماء على معدة خاوية أصابه العطش بقية النهار • وحين تشتد الحرارة يكون من الافضل أن يشرب المرء مستخدما راحة يده بدلا من أن يشرب من البئر مباشرة حتى لا يندفع الماء البارد الى الجوف الساخن مرة واحدة • وبعد رحلة طويلة يفضل معظم المسافرين أن يدهنوا أجسادهم بالزيت ، وان يضعوا على رقابهم مناديل مبللة بالماء تخفف آلام الرأس بعد طول تعرض لوهج الشمس •

والجدير بالذكر أنه لا ينبغي أن تقترب الخيول كثيرا من عين الماء ، الا اذا

أتى دورها للشرب ، والا أصابها الهياج لمجرد رؤيتها للماء دون أن يكون لديها القدرة على أن تصيب شيئا منه ، وربما دفعها الهياج الى التهام الطين والحصى .

ويحمل الماء فى العادة على ظهور الجمال ، ويحمل الجمل الواحد ستة قرب ، تتدلى كل ثلاثة منها ناحية . وتزن القربة وهى ملأى حوالى خمسين رطلا . وحين تتوقع القافلة ألا تجد ماء لأربعة أو خمسة أيام فان قربة ماء تضاف الى حمولة الجمل . ولعل أصحاب الخيل فى سفر الصحراء ، من أكثر الأمور ازعاجا ، فكل حصان يحتاج لحمولة جمل من الشعير . ومسافر الصحراء لابد أن يتحمل هول رياح «القبلى» و «الشرقى» ، بالاضافة الى أرتفاع درجة الحرارة والجفاف الذى يصاحبها ، فان الرياح تحمل معها أطنانا من الرمال تحجب الرؤية وتختفى الشمس ، وتلبس السماء عباءة صفراء ، وتتورم العيون وتحمر ، وتجف الشفاه ، ويتشقق الجلد ، ويصاب الصدر بآلام فظيعة نتيجة لشرب الرمال من فتحات الأنوف . ولاشىء – فى الواقع – يمكن أن يقى من هذه الرياح . وحين نتفحص أمتعتنا ، نجد كل شىء فاسدا ومحطما وقد غزته الرمال ، وتستمر الريح لعشر ساعات ، بعدها ينقشع ستار الرمال ، وتبدو السماء كأصفى ما تكون ، وسرعان ما ينسى المسافر قسوة العاصفة .

وبعد أن استقر بنا المقام فى مرزق بعض الوقت قررنا أن نخرج للتجول بها لنتعرف أكثر على الناس . وذهب السيد ريتشى لزيارة السلطان وقدم اليه هدايا رائعة . وكان كل شىء يبشر بالنجاح ما عدا قلة المال ولهذا فقد وضعنا نظاما قاسيا للمعيشة ولم نكن نقرب اللحم الا لماما اذ كان علينا أن نطعم خدمنا وخيولنا الأربعة .

وحين بعث الينا (المكنى) رسولا فى أول يوم جمعة تلت وصولنا مرزق ، كنا قد المنا بجانب من اللغة . وأخبرنا (المكنى) أنه ذاهب الى المسجد للصلاة ، ويطلب منا أن نقابله هناك . ولما كانت هذه أول مرة يذهب فيها السيد «ريتشى» الى مسجد ، فقد أمضينا كثيرا من الوقت حتى نتدرب على الركوع . وحينما سمعنا المؤذن يرفع الآذان جاءنا مملوكنا العجوز يدعونا للصلاة . وذهبنا الى

المسجد لنجد أناسا كثيرين يجلسون على حصائر فى صفوف ، وجاء مجلسنا فى المقدمة وسرعان ما حضر السلطان وحراسه ، وما ان تهيأ فى مجلسه حتى عبق المسجد بعطر الورد الذى يضعه «سعادته» بكميات كبيرة • وأدينا دورنا أنا والسيد «ريتشى»على أكمل وجه ، وانتهينا من الصلاة وانتظرنا عند الباب حتى لحق بنا السلطان وحاشيته وعدنا جميعا الى القلعة • وسارت القافلة الصغيرة ، ثلاثة خيول فى المقدمة ثم السلطان على جواده المطهم يحيط به حراسه وقد امسك بعضهم مراوح من ريش النعام ، ومضى الموكب متمهلا وسط حشد كبير من العامة ، حتى بلغنا القلعة بعد مسيرة خمسمائة ياردة • وجلس السلطان على كرسيه فى الفناء ، يستند الى أثنين من المقربين اليه ، والناس من حوله يقدمون له فروض الطاعة والولاء • وما لبث أن صعد الى القلعة وسرنا وراءه ، وسمح لنا أن نجلس فى حضرته• وأعطى السيد ريتشى الثلاثمائة دولار التى اقترضها منه ، ووعدنا بكل مساعدة ، وصدقنا وعوده وتركنا القلعة نحسد أنفسنا على صداقته •

ولدى عودتنا اختبرنا أمتعتنا ووجدنا أن بعضهم قد سطا عليها وسرق شوال ارز وشوال دقيق وكمية كبيرة من الكسكسى ، كما سرق مسدسى وكثير من الطلقات ، وشكونا الى المكنى على الفور ، ووعدنا بأن تحقيقا سيجرى لمعرفة الجناة ، وأن كل ما فقدناه سيعود الينا اذا تم العثور عليه •

ان المنزل الذى نسكن به رائع ، ويشبه الى حد بعيد كل المنازل لتى تحيط به ، وحسبى أن أقدم للقارىء وصفا له ، ليكون فكرة طيبة عن بقية منازل مرزق • فهناك باب كبير يسع جملا يؤدى الى ممر أو سقيفة ، وعلى جانب منه توجد حظيرة تسع خمس جياد ، وحجرة الى جانبها يسكنها بعض الخدم ، ربما المعناية بالخيول ، ومدخل على الجانب الاخر يؤدى الى حجرة كبيرة مربعة ارتفاعها ثمانية عشر قدما ، يستند سقفها الى أربعة جذوع من جذوع النخيل،فى منتصف السقف توجد فتحة كبيرة (حوالى اثنى عشرقدمافى ثمانية)ومنها يستمد المنزل الضوء والهواء والغبارأيضا والقيظفىأوقاتالظهيرة، وفى نهاية الحجرة وفى مواجهة الباب مقعد كبير طويل من الطين (مصطبة) يرتفع عن الأرض ثمانى عشرة بوصة ، وطوله عشرون قدما • ويوجد الكثير

من هذه المقاعد الطينية على أبواب المنازل يجلس اليها المتسكعون صباحا ومساء ويبلغ طول الحجرة خمسين قدما وعرضها أربعين،وهناك أبواب على جوانبهاتؤدى الى حجرات أصغر حجما يمكن أن تستخدم كحجرات نوم أو مخازن •وتتميز المنازل بصفة عامة باعتدال جوها صيفا ، ويدخلها الضوء من مداخلها فقط • وتصعد بضع درجات حتى تصل الى السطح لتجد ما يشبه الفناء يضم بعض الحجرات الصغيرة وهى لا تستخدم اطلاقا نظرا لارتفاع درجة الحرارة فيها• وبالحجرة الكبيرة ردهة تؤدى الى فناء بيت به بعض الحجرات وحفرت به بئر ماء • وارضية المنزل رملية والحوائط طينية تكشف فى كل مكان عن أثر «المالج» وهى الاداة الوحيدة التى يستخدمها البناءون فى مرزق ، وتجد أيضا رسما لاصابع اليد اليمنى ، ولا توجد أية نوافذ ، وانما توجد كبوات فى الأسقف أو فى الحوائط وعلى ارتفاع كبير •

ومرزق مدينة مسورة يسكنها حوالى الفين وخمسمائة من الاهالى ، السود الذين لا يغيرون سكناهم كما يفعل البدو • وسور المدينة طينى به بعض الفتحات ، وبنى بطريقة تخلو من الذوق الا أنه من القوة بحيث يستطيع أن يرد أى طامع ، ويرتفع مسافة خمسين قدما ، وعند القاعدة يبلغ سمكه ثمانية أقدام ويقل سمكه كثيرا عند نهايته • وللمدينة سبعة مداخل ، وقد شيد أربعة منها لتمنع الهاربين من دفع الخراج ، ويقف حارس معين من قبل السلطان على كل باب نهارا وليلا خشية أن تهرب البضا ئع الى المدينة • وقد ابتكر الناس بديلا للحجارة التى لا تتوافر فى المدينة فهم يجعلون الطين على هيئة كرات ويجففونها فى الشمس،وهكذا يرتفع الحائط صلباقويا،ويعمر طويلا أيضا نظرا لعدم سقوط الامطار • والمنازل مشيدة من طابق واحد ، الا القليل الذى يعلو ذلك • ومنازل الفقراء يدخلها الضوء والهواء من أبوابها فقط ، وهى منخفضة ينحنى المرء عند دخولها • أما المنازل فلها أبواب رحبة جيدة الصنع بالرغم من رداءة الخشب الذى صنعت منه ، وتعلق بها أقفال ضخمة ذات مفاتيح كبيرة الحجم وغريبة الشكل • وتشيد المنازل عادة متلاصقة وفى شوارع ضيقة على الرغم من وجود مساحات فضاء واسعة يستغلونها كسوق تقف بها الجمال والتجار • وتوجد ببعض المنازل مساحات صغيرة مزروعة بالبصل والفلفل الاحمر ، كما ينمو بالمدينة العديد من أشجار النخيل •

ويؤدى الشارع الرئيسى العريض الى الاسوار المحيطة بالقلعة ، وفى المنطقة الخلاء المجاورة،مجال رحب يستعرض فيها الفرسان مهاراتهم أمام السلطان. القلعة ذاتها بناء متين هائل من الطين ، يرتفع حوالى ثمانين أو تسعين قدما وبسورها فرجات للبنادق ، وتبدو القلعة من بعد كبناء حربى حقيقي ، وكما هو الحال فى جميع المنازل فهى لاتتسم بالاتساق ، فتجد سمك حوائطها عند القاعدة خمسين أو ستين قدما ، تجد سمكها من أعلى لايزيد عن خمسة أو ستة أقدام . وكنتيجة لحجم الحوائط الكبير ، فان الحجرات عادة ما تكون ضيقة وقليلة العدد ، أما الحجرات المخصصة لسكنى السلطان فهى رائعة ــ ولابد أن نقول نسبيا ــ فالحوائط مزدانة بالطلاء الأبيض والرسوم الحمراء . ويتصدر مخدع السلطان الحجرة ، بينما يجلس زائروه القرفصاء على الرمال غير قريبين منه ، ولقد كنا نحظى دائما بالجلوس على أحد أطراف بساط السلطان . وتقطن النساء أفضل أجزاء القلعة ، ويسكن فى حجرات صغيرة منبثقة عن فناء واسع ،يمارسن فيه نشاطهن من طبخ وطحن ولقب «كبيرة» لاتحظى به الا أمهات السلطان والسيدات اللاتى يحظين بمنزلة طيبة لدى السلطان وهن لا يزدن عن ست نساء ، ويعيش بالقلعة أيضا حوالى خمسين سيدة ، كلهن سمراوات البشرة ، ولهن تقاطيع حلوة ، ويظهرن لنا ، من خلال نظراتنا المتلصصة ، غاية فى الأناقة . ويعمل على حراستهن خمسة من الخصيان لهم حق ضرب السيدات . وللسلطان ثلاثة أبناء وابنتان يسكنون معه ، وفى المساء تقفل عليهم الأبواب ويحتفظ السلطان بالمفاتيح امعانا فى الاطمئنان عليهم . وللقلعة مدخل يؤدى اليه ممر ملتو مظلم تماما شديد الانحدار . وبالقرب من المدخل توجد سقيفة مربعة تسع أربعمائة شخص ، بها كرسى للسلطان ووضعت خلفه مرآتان . ويجلس السلطان على هذا الكرسى كل يوم جمعة ، حيث يلتقى بالأهالى ، يقدمون اليه فروض الطاعة والولاء قبل أن يغادر القلعة فى طريقه الى المسجد لصلاة الجمعة . ويسمى هذا المكان «بالمجلس» وطالما شهد قسوة (المكنى) ابان أيامه الأولى حينما تولى زمام الامر فى البلاد . ويوجد بالمدينة العديد من الاحواض ذات المياه الركدة المالحة ، وربما كانت ــ فى نظرى ــ مسؤلة عن تفشى حمى الصيف والملاريا . وتقع الجبانة خارج الأسوار وتمتد لمسافة معقولة ، ويوجد سور

طينى يلتف حول القبور جميعها • ونظرا لعدم توفر الخشب فهم يلفون الجسد بالقماش ويغطى بسعف النخيل ، ويوارى التراب وحين تهب الرياح تتعرى أجساد الموتى وتبدو هياكلهم للعيان (١) • ولقد دفن السلطان السابق فى واد قريب من المدينة ، ولا يتميز قبره عن بقية القبور الا بوجود بعض الاوعية الفخارية المتناثرة عليه •ومن المعتاد أن يزور أهل الفقيد قبره ، ويقرءون على روحه سورا من القرآن ، ويصلون بالقرب منه ، ولا يمر الابناء على قبور آبائهم دون أن يتوقفوا قليلا ويتلون على أرواحهم الصلوات • أما الحيوانات فهى لا تدفن مطلقا ، وانما تجر خارج الاسوار حيث تترك فى العراء وسرعان ما تجف الجيف ويبقى شعرها حتى لتبدو وكأنها جثث محنطة •

١٥ مايو : أصبت بدوسنتاريا حادة ، أقعدتنى فى الفراش اثنين وعشرين يوما • وعاشت جماعتنا الصغيرة هذه الأيام فى بؤس وفقر شديدين ، فلم يكن لدينا من المال ما يكفى لشراء الضروريات ، ولم نتذوق اللحم الا اذا ساعدنا الحظ على اصطياد حمامة من الحقول • ولقد كان مرضى هذا بداية السلسلة طويلة من الأمراض ، ولم يحدث بعد ذلك أن نجا واحد منا من براثنه ، وطالما لزمنا لأسابيع عديدة • ولا شك أننا كنا فريسة سلهة للأمراض نظرا لسوء وقلة مما نصيبه من طعام ، كما ساهمت ملوحة المياه والطقس الحار فى تأخير الشفاء • وحينما عوفيت كانت معجزة لمن شاهدنى وأنا فى فراش مرضى فقد كانوا يعتقدون أنى ميت لا محالة • ولم يكد يتم شفائى ، حتى سقط السيد «ريتشى» فريسة لحمى مصحوبة بهذيان وآلام لا تطاق فى الظهر والكليتين • وخفت حدة المرض قليلا ، ونهض من سريره ، ولكن مالبث أن عاوده المرض بصورة أكثر قسوة • وكان يرفض كل شيء ما عدا الماء ، وكان يقضى سويعات الظهيرة اما فى نوم متواصل ، أو تصيبه نوبة من نوبات الهياج والهذيان • والمحزن حقا أنه حتى لو توفرت لديه الرغبة فى الطعام لما استطعنا أن نجد له غذاء يعينه على مقاومة المرض • ونفد كل مالدينا من مال ، ونجحت خطط السلطان فى تجويعنا ، ولم نستطع أن نجد أحدا نشترى منه ما نريد ، وطوال ستة أسابيع كاملة ، لم نتذوق لحما ، وكنا

---

(١) هذا محض خيال من المؤلف (المراجع) •

نعتمد كلية على كميات هزيلة من الحبوب والتمور ، أما خيولنا فقد أصبحت هياكل عظمية ، ومما زاد الطين بلة اصابة «بلفور» بالصمم والهزال حتى بات غير قادر على السير أو النهوض .

وهكذا أمسيت فى موقف لا أحسد عليه ، فلو مات رفيقاى ، ـ وكان هناك أكثر من مبرر يدفعنى الى هذا الافتراض ـ لما وجدت المال الكافى لدفنهما ، أو حتى مالا يكفينى لأسد رمقى ، وربما مت جوعا فى أرض غنية ـ نسبيا ـ بالطعام . ولولا تفاؤلى وايمانى لا نزلقت الى حالة من اليأس والقنوط ، ولكنى بقيت صامدا اتخطى الصعاب . وبرىء «بلفورد» قليلا من مرضه ، وساعدنى فى خدمة المسكين «ريتشى» .

وحتى الرجلين اللذين كانا يقومان على خدمتنا ، وطالما أسديا الينا كل جميل ، لم يعبئا بنا ، وبدلا من ان يرثيا لحالنا ، غادرانا فى محنتنا ، وسرقا ماتبقى لدينا من طعام ، مقتنعين أن بؤس حالنا لن يمكننا من القصاص والثأر .

وخلال فترة مرض «ريتشى» .وصلت قافلة من الطوارق ، فى طريقها الى مكة وكان يرافق القافلة مرابط فى الخامسة عشرة من عمره ، وعلى درجة كبيرة من الذكاء والموهبة . ويقال ان ذلك «الولى» الشاب لم يرفع بصره الى أعلى أبدا ، فبصره دائما على القرآن أو عند قدميه ، وذهبت لزيارته ووجدته صبيا سمينا أبله متورم العينين ، يلبس أسمالا بالية قذرة ، يلتف حوله الحاج محمود ، وآخرون ينصتون الى حديثه باهتمام بالغ .

وحينما وصلت القافلة الى مرزق ، خرج السلطان يطمئن عليها وأمدهما بالمؤن والغذاء . وكان قوام القافلة مائة وخمسين فردا ، ولم يكن لديهم سوى خيمتين من القماش أما بقية الخيام فقد كانت من الجلد .

وسوف أفيض فى الحديث عن الطوارق ولباسهم ولغتهم ... الخ .

أعلن ثبوت شهر رمضان الثالث والعشرين من يونية ، عند رؤية الهلال ، ولمدة ست عشرة ساعة (من الثالثة صباحا حتى السابعة مساء) يمتنع الجميع عن الأكل والشراب والتدخين ، ويعتبر بلع الريق ووضع العطور عملا مرذولا .

ولقد تسبب أرتفاع درجة الحرارة فى مرض كثير من أصدقائنا وجيراننا (أنظر جدول الحرارة فى نهاية الكتاب) • وكان مسموحا للسيد ريتشى أن يفطر نظرا لمرضه ، أما أنا «وبلفورد» فقد كان علينا أن نأكل فى الخفاء حتى لا يفطن الينا أحد • وكان لدينا فى شهر رمضان خادم فضولى ، كنا نتحايل عليه بكل طريقة ليذهب بعيدا ، حتى نأكل ، وأمضينا شهر رمضان كله مفطرين ، دون أن نثير ادنى شك فى صيامنا •

ولقد خلق لنا الحاج محمود العجوز المتدين عديدا من المتاعب ، وظل يلح على فى أن أستشير أحد المرابطين فى مرض السيد ريتشى ، وكان مقتنعا ان ما يصيبه من هذيان ، انما هو من فعل الشيطان ، وتنبأ الحاج محمود ان الهذيان لا يفارق السيد ريتشى ، الا اذا وضع سيفا أو أداة حديدية تحت رأسه ، فابليس (والحديث على لسان الحاج محمود) يفزع من الأدوات الحديدية كثيرا • وقاومت الحاج محمود طويلا ، ولكنى وقفت عاجزا أمام رغبته فى أن يكتب أسماء الله الحسنى على طبق ثم يغسله ، ويشرب السيد «ريتشى» حبر الكلمات فى الوقت الذى كان فيه المسكين يحتاج الى كوب من اللبن • وعبثا حاولت أن أوفر له كوبا من اللبن ، وبالرغم من أن السلطان كان لديه خمسون من الماعز فقد فشلت كل محاولاتنا فى حمله على اعطائنا قليلا من اللبن ، وتعلل السلطان بمختلف المعاذير !!

وجرت استعدادات كبيرة وهائلة فى تلك الأيام بمملكة فزان كلها حيث كان السلطان يعتزم انفاذ حملة لتأديب قبيلة التبو برجو Tipoo Borgo التى تسكن على بعد شهر الى الجنوب الشرقى • وحضرت جماعات كبيرة من البدو ، من سوكنه ومن المدن القريبة الأخرى ، كما جاءت مجموعة من الجياد من بنى وليد ، واصبحت مرزق بين يوم وليلة وكأنها سوق كبيرة • وقرر السلطان أنْ يقود الحملة ابنه الاكبر (سيدى عليوه) • ونزل كل الوافدين ضيوفا على أهل المكان وكانوا يقدمون الطعام لهم ولدوابهم مرتين فى اليوم الواحد •

سأورد هنا أسماء بعض الاشخاص الذين أبدوا نحونا شعورا طيبا ، لنميز بينهم وبين اولئك الذين تظاهروا بالطيبة فى البداية ودأبوا على زيارتنا بانتظام

وعندما نفذ ما لدينا من سكر وقهوة انفضوا من حولنا • تعرفنا على محمد الأزهرى وأخيه يوسف منذ الأيام الأولى وكانا لنا نعم الصديقان • وكان ابوهما مملوكا مات منذ فترة طويلة •

وحينما تولى (المكى) زمام الأمور جردهما من أموالهما وترك لهما النخيل فقط ، وهو الشيء الوحيد الذى لم يستطع أن يحرمهما منه • ولقد كانت صداقة هذين الشقيقين صداقة نزيهة عن كل غرض ، وحينما كان يستبد بنا الفقر والجوع ، كانا يبديان نحونا كل كرم وطيبة • واختار (المكنى) محمد الأزهرى ليخرج فى حملة لصيد العبيد ، وهو الأمر الذى لم يكن يميل اليه، وأوكل اليه العناية بسيدى عليوه والسهر على راحته •

أما الحاج محمود العجوز الذى أشرت اليه منذ قليل ، فقد كان صديقنا هو الاخر ، وان كان أقل نزاهة من الشقيقين ، وكان ساذجا متطيرا واسدى الينا بعض الخدمات وان كان قد تراخى فى ادائها حينما أمسى فقرنا باديا للعيان •

وكان قد شاع خبر أن السيد ريتشى متزوج من ابنة ملك انجلترا ، أما أنا فقد زوجونى ببنت شقيق صاحب الجلالة • وحينما لمح محمد بأنه يعرف هذه الحقائق كنا نكررها بطريقة تدعو الى التصديق أكثر مما تدعو الى الرفض • ولم يكن يداخله شك فى ثرائنا حتى اكتشف اننا «أقلعنا» عن أكل اللحم ، فبدأت شكوكه وأخذ يلح علينا فى السؤال ، وفى النهاية قررت أن أخيفه ، وبعد مناقشة تمهيدية خرجنا الى العراء أثناء الليل ولم يكن ثمة قمر ، وبدأت أحكى له قصة الملك سليمان وخاتمه ، وحكيت له ما أعرفه من قصص الأشباح المخيفة والمفزعة • وأخبرته أننى والسيد ريتشى ماسونيان Free Masons ، ونفهم الكتابة المحفورة على خاتم سليمان ، واختلقت له بعض الحكايا لأقنعه بأن الماسونيين مكشوف عنهم الحجاب ، وعدت الى المنزل وطلبت منه أن يهمس لى ببضع كلمات وأن يضع يده على فمى • ولدهشته استطاع السيد «ريتشى» أن يعيد الكلمات بصوت عال ، فقد كنت أكتبها له فى الهواء مستخدما أصابعى • وأسفرت هذه المحاولات عن تغيير كبير فى سلوك صديقنا الفضولى ، وكف منذ ذلك الحين عن التدخل فى شئوننا •

وكان محمد فخورا بحسبه ونسبه وبكونه مملوكا ، وطالما كرر أن أباه (على الرغم من أنه كافر) رجل عظيم، ومن أقرب الخلصاء الى ملك نابلس .Nables فهو يجمع له الخراج ، وآلاف الجنود تحت أمرته ، وطفقنا نخمن من يكون ذلك الرجل العظيم ، حتى كان مساء حين أخبرنا أن أباه ، كان برتبة « عريف » بالجيش .

وفي الثاني عشر من يوليو ، التأم شمل الجيش ، وبات الرجال على أهبة الاستعداد ، وامتطى ثلاثمائة فارس خيولهم . وتبعهم ثمانمائة على الأقدام وما يقرب من ألفي جمل واتجهت الحملة صوب قطرون Gatreone ، ورافقهم (المكنى) لمسافة بعيدة ، وأمست المدينة في هدوء لم نشهد له مثيلا ، وفوض (المكنى) أمر القلعة الى الحاج محمود وأمره بأن يغلق الأبواب على النساء كل مساء . ولقد كان (المكنى) ـ في نظر الكثيرين ـ غير متمسك بتعاليم دينه، وعاب عليه البعض سفره في رمضان وربطوا ذلك برغبته في الأفطار ، الذي يسمح به لمن كان مريضا أو على سفر .

وكان يحضر الينا الكثيرون يسألوننا المشورة الطبية ، ولما كان السيد ريتشي غير قادر على الرد عليهم ، فقد توليت أنا أمر ذلك ، وكانت وصفاتي الطبية تنجح في كثير من الحالات الميئوس منها. ولابد أن أشير هنا الى أنني حينما كنت لا أستطيع أن أجد دواء ، لم أكن أخاطر باجراء أية تجربة قد تؤدي بحياة مرضاي . وسأورد هنا بعض الأمراض وأسلوب العلاج الذي يتبعه أهل البلاد .

الـــداء	طريقـة العـلاج
آلام الـكبد	الكي بالنـار
تضخم الطحال	« »
الربـو	« »
السـل	« »
العمى	كي الصدغين ووضع شرائح البصل بين الجفون
الفتاق	الـكي
الحمى	تعاويذ تذاب في الماء وتشرب

الـــداء	طريقة العلاج
الأمراض التناسلية	غسيل العضو بالحنظل (علاج مفيد)
السيــلان	الغسيل والــكى
الشـلل	التعاويذ والرقىء

ولقد شاهدت حالة واحدة لداء الفيل وهو تضخم هائل يصيب أحد أعضاء الجسم ، وكان الرجل أحد مواطنى مرزق ، وأشار الى قدمه اليمنى المتورمة وقال انها هكذا منــذ عام ، وهى تزداد تورما يوما بعــد يوم وأضــاف : انه لايشعر بأى ألم ، وكل مافى الامر ان تورم قدمه يعوقه عن العمل ، وكانت بشرته شاحبة متغضنة ، لكن قدمه المصابة كانت حمراء لامعة ٠

وكان الجميــع يعتبروننى طبيبــا نطاســيا ، ويعاملوننى باحترام كبير بالرغم من أن معرفتى بالطب لاتتعــدى الفصد ، ومــداواة الجروح وتحضير بعض الادوية البسيطة ٠

وفى الثانى والعشرين من يوليو ، عاد (المكنى) بعد أن وضع ابنه على رأس المحاربين ٠ وفى صباح اليوم التالى ظهر هلال شوال ، ومن المستحيل ان انقل للقارىء صورة الفرحة والابتهاج الذى أحدثه ظهور الهلال بعد صيام ثلاثين يوما ٠٠ كان الكل يرقص ويهلل ويطلق النار ويأكل ويشرب ٠

وفى هــذه الأثناء تماثل السيد «ريتشى» قليلا للشفاء وأصبــح يستطيع الجلوس بعد أن أمضى ثمانى وخمسين ليلة فى فراشه وعند الظهر لبست أفضل ما عندى من ثياب وزينت فرسى «الأعرج» قدر ما استطعت ، فقد كان لابد أن أرافق الموكب الذى سيدور فى المدينة كلها ٠ وتصدر السلطان وأكبر ولديه الموكب ، وقد لبسا أغلى الثياب تسبقهما الأعلام والفرسان وقارعو الطبول ٠ وتبعهما الجميع وهم يلبسون ثيابا جديدة ، واقتربنا من مبنى صــغير بالقرب من ضريح السلطان السابق ، وترجل الركب ودخلت الضريح أنا والسلطان واثنان آخران ، وكان القاضى يجلس قبالة القبلة وقد استغرق فى صلاة صامتة ، وبعد أن انتهى من الصلاة عانق جاره وهنأه بالعيد ، وتبادل الجميع العناق والقبلات ، ولم أر ــ مشهدا مؤثرا كهذا طول حياتى ٠٠وتقدم القاضى الى السلطان يقبل يديه وتبعه الجميع يهنئونه بالعيد ، وسمح (المكنى)

لى بأن أقبل كتفه ، ربما لانه خمن أننى لن أقبل يديه !! وامتطينا دوابنا ندور فى المدينة ، وتركنا القاضى ليذبح خروفا سمينا • وكم راق لى منظر الأولاد الصغار وهم يلبسون ملابس آبائهم تزحف نهايتها على الأرض وهم يسيرون، وكان بعضهم يلبس سترة فوق لباسه ، والجميع يرتدون عمائم تلتف حول لباس رأسهم المعتاد ذى اللون الاحمر • وفى هذه المناسبات يزداد الطلب على الحمير وربما رأيت اثنين أو ثلاثة يركبون حمارا واحدا • الفرحة ترتسم على وجوه الجميع والفرحة تغلف ملامحهم وساهمت حلاوة الطقس فى اكتمال متعة الاحتفال • ولبس الجميع ملابس العيد ،وهى لاتلبس فى الايام العادية ، وربما قدر «لقفطان» أن يرى النور بعد طول احتجاب •واستمر عيد الفطر ثلاثة أيام تزاور خلالهم الجميع وهم يلبسون أبهى حلل • وبعد ظهر كل يوم من أيام العيد يخرج السلطان يتفقد المدينة ويهرول الفقراء وراءه يتلمسون قطعة صغيرة من لحم الجمال أو الخراف •

ويوزع الأغنياء الطعام ، فى هذه المناسبات على المعوزين الذين يحرصون على التجمع أمام الدور بأعداد كبيرة • واستلزم الأمر أن نهب دولارين تصدقا وأن توزع لحم الجمال •• ألسنا من علية القوم ؟ • وعلى أية حال فقد أصابت الحسنة من يستحقها •• وخلال شهر يوليو توافدت على المدينة جماعات من الطوارق ، معهم الكثير من السلع ، حضروا من كاشنا واجادس وغات • ولعل الطوارق هم أنقى جنس رأيته فى حياتى فهم معتدلو القامه طوالها ، يتميزون بالوسامة وتلمس فيهم أمارات الاستعلاء والأنفة ، وهم بدون استثناء بيض البشرة — نسبيا — وربما بدت وجوههم سمراء لتعرضها الدائم للشمس • أما زنودهم أو أجسادهم المغطاة فلا شك أنها بيضاء كبشرة أى أوربى • ان لباس الطوارق متميز ، ويغطى الرجال وجوههم فلا يبدو منها سوى العينين ، تماما كنساء المدن الساحلية • ان أحدا لا يعرف السبب الأصلى لهـذا الخمـار من منتصف الانف وينسـدل حتى الذقن ويغطى جزءا من الصدر ، ولون الخمار فى العادة أزرق ، على أن اللون الاصفر والاحمر والابيض من الالوان التى يفضلونها ايضا •وهم يحرصون على حلق ذقونهم• ولباس رأسهم الاحمر طويل فى الغالب ويلبس البعض أغطية رأس صفراء

وخضراء تلتصق بالرأس باحكام • ويمكنك ـ أيضا ـ أن ترى طوارقيا برأس عار ذي شعر طويل مجدول في ضفائر • والعمائم التي يلبسونها مختلفة الألوان • ويغلب عليها اللون الأزرق ويفضلون عادة الألوان الصارخة • ويلبس الطوارقي قميصا فضفاضا من القطن لونه أزرق أو أزرق وأبيض ، ذا أكمام تلتصق بالذراع ، ويسمونه «ثوبا» وهو اللباس المعتاد ، وهم يصنعونه بأنفسهم ، ويلبس البعض أثوابا صنعت في السودان • ويعتبرونها من أفضل الأنواع • ويلبس التجار ثيابهم وهم يتجولون بالمدينة ، يرتدون القفاطين الحمراء اللامعة أو الأثواب الحريرية المزركشة ويشترونها من طرابلس أو يلبسون القفطان المصنوع من الجلد ، ويخيطونه بأنفسهم ، أو قمصاناً من جلد الضباع خيطت باتقان • أما سراويل الطوارق فهي ليست فضفاضة ، كسراويل «المغاربة» ، حتى لاتضايقهم في ركوب جمال المهارى ، وهي تشبه ، الى حد بعيد ، سراويل «القوازق» وتصنع من القطن واللون ألازرق هو اللون الشائع ، ولعل احذيتهم الخفيفة أكثر لباسهم أناقة وهي مصنوعة من الجلد الازرق ، ويطرزون النعال من الداخل برسومات رائعة • وهم جميعا يحملون «السيط» أما سيوفهم فطويلة ولامعة ،ويستخدمونها ببراعة ويتدلى خنجر من معصم اليد اليسرى ويختفي مقبضه تحت الاكمام ولا نرى طوارقيا بدون هذا الخنجر أبدا ، ويحتفظ الطوارقي أيضا برمح رشيق خفيف من الحديد المطعم بالنحاس أو مصنوع من الخشب المزخرف ويبلغ طوله ستة أقدام ويمكن قذفه لمسافة بعيدة • ويحمل الطوارق في أوقات الحرب ثلاثة رماح أخرى أكثر طولا وأثقل وزنا وقوسا متينا يثبتونه خلف السرج ،ويحملون أيضا بندقية طويلة ، ويعتبر الطوارق من الرماة الممتازين • وربما كان الطوارق أكثر تعلقا بالخرافات من أهل فزان فترى بعضهم وقدغطته التعاويذ والأحجبة تماما تمنع عنهم المكروه وتحفظهم من الشيطان ، وتجدها على أذرعهم وسيقانهم ورقابهم وحول الصدور ، وفي الحقيقة فانهم يضعون الأحجبة حيث يجدون مكانا • ولا تخلو رماحهم وبنادقهم من التعاويذ أيضا ، وربما عن لبعضهم أن يضع الأحجبة بين ثنايا عمامته • كما يلبس البعض شريطا فضيا حول الرأس يعلق فيه الأحجبة والتمائم يستعيذ بها من الشيطان • ولغة

الطوارق هي «البربرية» (أو اللغة الافريقية الأصيلة) وهي ما زالت شائعة في الجبال بالقرب من تونس وفي سوكنه حيث يسمونها Ertana «الرطانة» ، وسأورد فيما بعد بعض المفردات البربرية . والطوارقي يفتخر بقدم لغته ، ولعلي سمعت أحدهم يقول انها لغة نوح.وهم لا يقبلون الايدي كما يفعل «المسلمون» ولا حتى يد السلطان نفسه. ويتقدم الواحد منهم ويمد يده ويهز يد الاخر ثم يدعها ويقف معتدلا يملأ عينيه منه....انهم نمط مختلف تماما عن مواطني فزان .لعلني لم أسمع عن قوم أكثر كرها للاغتسال من الطوارق ، ولا يهم الواحد منهم أن يبدو في لباسه الأزرق الجديدالنظيف بشرة متسخة حتى لتبدو بلون ثيابهم . وحينما يتوضأون قبل الصلاة يتجنبون الماء ويستخدمون الرمال .. يتيممون .. ولطالما حاولت أن أتعرف على سبب عزوفهم عن الاغتسال بالماء ، وكانت الاجابة دائما .. أن الله لايحب المرء الذي يضر بنفسه طالما انه يستطيع دفع الضرر.فالله قد وهب الماء للانسان ليشربه وليعد منه طعامه ، لا ليغتسل به . ومع هذا فيوجد بعض الطوارق الذين يغتسلون بالماء ويسخرون من الآخرين. والطوارق مسلمون ويصلون بالغة العربية ، وكثير منهم لا يفهمونها على الاطلاق وانما يكررون الآيات دون فهم ويسكن الطوارق تلك المنطقة المعروفة بالصحاري أو ـ الصحراء الكبرى ـ وهم قبائل متعددة بعضها ليس له مستقر ، وهم يرتحلون كالبدو ويغيرون على القوافل ويعيشون على الغنائم . وهم ليسوا قساة حينما يسطون، ولا أحد يستطيع أن يقف أمامهم ، واذا هاجموا أحد فانه يحاول أن ينجو بنفسه مضحيا بممتلكاته .

وتعيش الطوارق أو على الاصح أغلب قبائلها في حرب دائمة مع حكومة السودان ، وهم شجعان يحسنون فنون الحرب ، وهم مرهوبو الجانب ، يسافرون دون خوف وفي جماعات صغيرة . ولكل قبيلة اسلوبها في اللباس وطريقة الركوب وشن الحرب ، ولعل أقرب بلاد الطوارق الى فزان هي غات. فهي على بعد عشرة أيام من مرزق ومن اوباري وعلى مسيرة سبعة أيام جنوب غربي سبها .

ومدينة غات مدينة مسورة بها شوارع ومنازل مبنية من الحجر والطين على غرار منازل فزان ، وتبعد غات حوالي عشرين يوما عن «توات»

Tuat. وخمسة أيام عن قانات .Ganat والاخيرة ليست مدينة كما يشاع عنها ، ولكنها مكان يزرع فيه البلح ويضم بضعة أكواخ مبعثرة وبضعة حقول وآبار مالحة •

أما غدامس فتقع على بعد عشرين يوما من غات الى الشمال الغربي،وعلى بعد خمسة أو ستة أميال من غدامس توجد مدينة أخرى تسمى البركات Ei Bekraat. وتشتهر بكرومها ، وهى مدينة مسورة لكنها أصغر حجما من غدامس •

ولقد شيد جزء من مدينة غات على واد ، وجزء على منحدر ، وتحيط بها الجبال العالية العارية من كل جانب • ويحكمها شيخ يطلق عليه الاهالى لقب السلطان ، والسلطان الحالى يدعى بلقاسم ، ويحصل على دخل غير منتظم من الاهالى المستقرين ويسمون بالغاتية .Ghatia ولا يحترم الطوارق هذا السلطان ولا يدفعون له خراجا ، فهم رحل ابدا ولا يستقرون فى موقع وهناك أيضا قبائل هجار Heggar بوغرساتن Booghasten ، مقرغاسن Menghraata ايهاون Haioon ويشتهر طوارق ايهاون بتدينهم ، ويندر أن تجد واحدا منهم لم يحج الى بيت الله ، وهم مستقرون فى مواقعهم ونادرا ما يذهبون للتجارة مع ممالك السود •

ولا يملك السلطان سلطة قتل أحدهم ، ولا يملك أن يغير أو يسن القانون ، ويوجهه مجلس من كبار السن ينظرون فى القضايا ويقدمون له الحكم للتصديق عليه ، ولا يمكنه أن يتصرف دون الرجوع الى مجلس الكبار • وهو لا يختلف فى لباسه وطرق معيشته وسكناه عن بقية قومه ، ويمارس التجارة والترحال • والسلطة هنا وراثية ، وهى وظيفة ليست مرغوبة تماما ولا يتعاركون عليها •

ويسمح طوارق «غات» للأغراب بالجلوس الى نسائهم وأخواتهم والتحدث معهن ، وهن نادرا ما يسئن استغلال الحرية لهن • ويقال انهن رائعات الحسن ، يملن الى الامتلاء ، ويشتهر طوارق «غات» بثرائهم ، لنشاطهم التجارى مع السودان ، ولأنهم لا يدفعون خراجا أو ضريبة لأحد • والطعام مرتفع الثمن ونادر ، والبلح لا يوجد بوفرة والموجود منه نوع ردىء وهم

لا يزرعون سوى محاصيل هزيلة ، ويحصلون على معظم حاجتهم من مرزق يبادلونه بالذهب والسلع الأخرى •

ويعقد سوق كبير فى ربيع كل عام ، يفدون اليه من كل صوب وحدب • ويعرض أهل غدامس السيوف والبنادق والبارود والرصاص والحديد وبعض الملابس ، أما تجار السودان فيعرضون العبيد والمنسوجات القطنية والجلود والذهب والخناجر والقرب والمقصات والعطور • ويعرض تجار فزان خليطا من بضائع طرابلس أو مصر • كما يباع فى الاسواق الجمال والبلح والحبوب بكميات كبيرة • ويدفع كل التجار خراجا لطوارق المنطقة ، وحتى يسمح لأية قافلة بالمرور فلابد أن تدفع ضريبة من قماش أو بارود أو أية سلعة أخرى • أما القوافل الصديقة فتمر دون «ثمن» • وتسمى هذه الضريبة « ضريبة الأمان » وحين يدفعها التاجر فانه يعفى من أية التزامات أخرى • ولا يدفع المماليك أو رسلهم خراجا للطوارق ، غير أنهم يحاولون تطبيق هذه القاعدة عليهم أيضا •

وطريقة ركوب الطوارق فريدة فى بابها • ولديهم جمال سريعة طويلة تسمى المهارى ، يمتطونها ويقومون برحلات غير عادية ويضعون السرج الصغيرة على ظهور دوابهم وتثبت بحزام يلف على بطن الجمل ، ومن الصعب الجلوس عليها ولكنهم يحسنون ركوبها بموازنة الساقين على عنق الحيوان ، ويمسكون بعنان الدابة ويجذبونه ليعتدل رأسها • وهم يركبون هذه المهارى بمهارة فائقة ويستطيعون الحرب وهم على ظهورها ويصوبون بينما الجمل يهرول بسرعة كبيرة • والطوارق لا يحبون الخيول •

ولقد زارنا الكثير من هؤلاء القوم ، وجاءوا بدورهم يدفعهم حب الاستطلاع ، وحينما تقع أيديهم على أى شىء من أمتعتنا يفحصونه بدقة • ولا شك أنهم سمعوا عن علمنا وثقافتنا الكثير فجاءوا يروننا على الطبيعة • وكنا نلعب امامهم العابا تحيرهم تماما ، وكان الفوسفور من الاشياء التى أثارتهم كثيرا وايضا التليسكوب ، وكانت البوصلة فوق مستوى تصورهم لدرجة أنهم كانوا يخشون لمسها • اما اسلحتنا فقد راقت لهم وسعدوا كثيرا وهم يتفرجون عليها ، وأعجبوا كثيرا بسيفى ومسدسى واعتبروه شيئا قيما ،

وربما استطعت أن اشترى به جاريتين • ولقد كان وجود الأدوية لدينا ، مبررا كافيا لان يتظاهر كل منهم بالمرض ويشكون من كل أمراض الاقليم وحضر رجل يشكو من عينيه المريضتين ، ولو أفلح فى أن ينال بعضا من دوائنا ، فسوف يتبعه كل رفاقه يتظاهرون بالعمى !! وحين شكا أحدهم من كبده • تسرب المرض الى الجميع وراحوا يلحون فى طلب الدواء •• وهكذا حتى كاد أن ينفد ما لدينا من أدوية لولا أن اكتشفنا أنها خطة مدبرة لاستنزافنا • ولشد ما كان مسليا ومضجرا فى آن واحد أن يلح أحدهم فى طلب سكر ، أو يطلب آخر قعطة لزوجته على سبيل العلم بالشىء ، وقطعة أخرى ليدخل السرور على أولاده •أو آخر يطلب أن نكتب له حجابا وبعض الطباق ، ويطمع ثالث فى سكين أو مقص أو قليل من البارود •• ونفذ صبرنا تماما وأضطررنا فى النهاية أن ندفع الجميع خارج المنزل •

وحضر الينا شيخ مسن فى الثمانين من عمره يطلب علاجا لظهره الذى حناه الزمن ، وكان قد رآنا نعطى مرهما لاحدهم التوى كاحله وشفى خلال أيام ، وتصور العجوز أن قليلا من ذات المرهم يمكن أن يعيد الاستقامة والقوة لظهره • وحضر الينا أحد رجال الطوارق برفقة آخر تولى شرح ما يريد فلم يكن الطوارقى يحسن العربية ، وفهمنا أنه شرب كمية كبيرة من مشروب مسكر ، ويريد علاجا يوقف أثر الخمر التى شربها • وكم ضحكنا حنيما مرضت أحدى زوجات الوزير وبعثت الينا بسوارها لنكشف داءها ونرسل العلاج، وطالما أرسلت زوجات السلطان بقوارير صغيرة يطلبون دواء للانجاب وطالما همس رسلهن بنوع الجنين المطلوب !! • وتوافدت جموع غفيرة علينا كل يوم ، يخالجهم احساس بأنهم يطلبون حقا وليس احسانا ، مما دعانا للاعتقاد بأن المكنى أذاع اشاعات بأنه يدفع أتعابا للسيد « ريتشى » مقابل مداواة مواطنيه •• ولم يكن لهذه الاشاعات أى نصيب من الصحة بالطبع ، بل على العكس ،فقد كنا نمضى طيلة النهار فى تحضير الوصفات دون أن ننتظر حتى كلمة شكر وحينما نفدت أموالنا ومؤننا لم يفكر المكنى لحظة أن يمد لنا يد المساعدة • وحين يشفى أحد المرضى كان الأهالى يعزون شفاءه الى الرقى والاحجبة التى يكتبها الدجالون ويتقاضون أجرا عليها •

وفى العشرين من اغسطس تماثل السيد «ريتشى» قليلا الى الشفاء ، وخلال فترة مرضه طالما أعلن المكنى عن صداقته لنا وعن استعداده لأن يقرضنا ما نحتاج اليه من مال • ولقد كانت أفعاله مغايرة تماما لما يقول ، فرغم أنه كان يزور «ريتشى» أثناء مرضه فانه لم يفكر مرة واحدة أن يعرض علينا أدنى مساعدة سوى مرة واحدة بعث الينا فيها بعض الأرز ليستعرض كرمه ولم يكفينا أرزه أكثر من أسبوع واحد •

وبات واضحا أن المكنى يتمنى أن نموت جوعا ، وكان يطمع فى الاستيلاء على ما لدينا من بضائع ، وطالما رفض «ريتشى» توسلاتى لعرضها للبيع بحجة أن ذلك سيحقر من شأننا لدى العامة ولقد كان ذلك ـ فى نظرى ـ أخف ضررا من البؤس والفاقة التى وصلنا اليها • وحاولنا عبثا أن نبيع خيولنا ، ولم يقبل عليها أحد ، نظرا لمرضها وهزالها، ولم يكن لدينا مال لاطعامها •

وحرصت أن يظل حصانى فى حال افضل من رفاقه • وكنت أسرق له بعض الطعام ، ومع هذا فلم يكن يستاهل أن يشتريه أحد • وفى احدى زيارتنا للمكنى ، خاطر «ريتشى» وطلب منه قرضا ، وعلى الرغم من أن رد المكنى لم يكن بالايجاب ، فقد صاغه فى أسلوب معسول كاذب وأدعى بأن الباشا أخذ كل مالديه من مال وبأنه لايملك دولارا واحدا !! • وساءت حالنا جميعا يوما بعد يوم ، وتناقصت وجباتنا ولم تكن تزيد عن حفنة من الحبوب وبضع ثمرات • وحاول كثير من جواسيس (المكنى) أن يعرضوا علينا عروضا وضيعة لشراء ما لدينا من ملابس وسلاح ، ورفض السيد «ريتشى» هذه العروض وفى النهاية رضخنا للحاجة ، وحاولنا بيع بضائعنا بأثمان رخيصة جدا ، ومع هذا فلم يتقدم أحد لشرائها •• وهو الأمر الذى دفعنا الى الاقتناع بأن (المكنى) كان دائما وراء متاعبنا ومصائبنا ، ومع هذا فقد كان دائم السؤال عنا ، وفى كل مرة كان يؤكد صداقته ووده •

وكنا قد بلغنا مركزا حاليا سيئا للغاية ، ولم يشأ السيد ريتشى أن يقترض على حساب الحملة • ولهذا كتبت صكا على مسئوليتى بمبلغ عشرين دولار وتوجهنا على الفور الى السلطان املين أن يقبله • وكان السيد ريتشى فى لقاء سابق معه قد أوضح له أنه لو أقرضنا ثمانين دولار فان زوجته ـ وكانت

فى طرابلس ـ تستطيع ان تحصل على المبلغ من القنصل الانجليزى • وظل على رفضه لكنه صاح فجأة متظاهرا بأنه سمع ثمـانية وليس ثمـانين وقـال « حسن ، أنا لا أعتقد أنه من الضرروى كتابة ايصال بمبلغ صغير كهذا وأضاف سأقرضكم المبلغ على أن تعيدوه الى فيما بعد » • وكان من العبث أن تحاول ايضاح الحقيقة لرجل آثر الا يفهم •

ولم نجد بدا من قبول الثمانية دولارات واشترينا على الفور قطعة لحم صغيرة •

وعلى الرغم من أنه لم يكن لدينا أى مصـدر آخر للحصول على مال ، فقد كنا سعداء • وزاد ابتهاجنا حين أعطانا الحاج محمد عشرة دولارات • وكان قد اقرضنا ذلك عشرين دولارا دفع منها عشرة فقط • وفى لحظـات حرجة كهذه كان للمبلغ قيمة أعظم بكثير وأخذناها شاكرين • وقررنا ـ بعد هـذا الثراء المفاجىء ـ أن نسمن جيادنا لنعرضها للبيـع وأن نشترى بعض الطيور •

وفى هذه الاثناء كنا نقتاد جيادنا الى الحدائق المجاورة للمدينة وكانت حال السيد ريتشى قد تحسنت قليلا للاسف أن مرضه قـد أثر على روحه المعنـوية وكان يفضـل العزله بحجرته ويجلس بها صامتـا ويعزف عن الاجتماع الينـا •

وفى نهاية شهر أغسطس وصلت قافلة كبيرة من عرب طرابلس والتبو، وكانت قادمـة من بورنو ومعها ألف وربعمائة عبد من الجنسـين ومن كل الاعمار ، أغلبهم من الاناث • وخرجنا لنرى القافلة ولكم كان مشهدا مؤثرا ، فقد وصل العبيد مجهدين تماما وكانوا يحركون أقدامهم المتورمة بصعوبة بالغة ، يحملون على اكتافهم أحمالا من الحطب وحتى الاطفال الصغار •• ولم يكونوا سـوى هياكل عظمية ، لم يسلموا هم ايضـا من حمل نصيبهم من المتاع •• بينما ركب سادتهم الجمال وفى أيديهم السياط يلهبون بها ظهـور المساكين •• ومع هذا فقـد كان التجار يحرصون على مظهر الاماء اللائى بدت شعورهن ممشطة ، واجسادهن بضة طرية ، بينما حلق العبيد الرجـال ذقونهم ، أما لباسهم فانه لا يكاد يغطى أجسـادهم الواهنة •وكان بعض تجـار

التبو من القبائل التى تسكن الدواخل ، وبعضهم كان من فزان •• وهم لا يتعاملون مطلقا مع تجار السودان •• فسوق السودان بعيدة ،وهم يفضلون أن يبادلوا العبيد بالخيول التى يبيعونها بأثمان مرتفعة فى الدواخل، فعلى الرغم من وجود الخيول فى بورنو ، فان أهل بورنو يفضلون عليها جياد طرابلس، ويركب التبو على سرج تشبه تلك التى تستخدم فى انجلترا الا أنها أصغر حجما - وركبهم - أيضا تشبه الركب التى نستخدمها الا أنهم لايضعون فيها سوى أربع أصابع بينما يبقون على الاصبع الكبيرة خارجها • وقد صممت نعالهم لتفى بالغرض ، فالأصبع الكبيرة منفصلة عن بقية الأصابع • واللجام الذى يستخدمه التبو يشبه لجامنا ايضا ، لكنه أخف وزنا من اللجام الذى يستخدمه العرب • وهم يعتنون بخيولهم كثيرا •• ربما أكثر مما يعتنون بأسرهم ، فهم لا يالون جهدا فى تسمينها • ويباع الحصان فى بورنو مقابل عشرة أو خمس عشرة جارية ، بينما تباع الجارية الواحدة فى الموانىء بمبلغ يتراوح بين ثمانين ومائة وخمسين دولارا •

وحاولت كثيرا ان استقى بعض المعلومات من التجار عن اقليم بورنو ، وسأعرضها امام القارىء الكريم ، ليسمح لى ان اضع نصب عينيه انى اورد - ما سمعته وليس ما رأيته • اما فيما يتعلق بمجرى نهر النيجر فقد رأيت أنه من الافضل الا اكتب شيئا مما سمعته ، فحديث التجار فى هذا الصدد لا يمكن الاعتماد عليه •

اقليم بورنو

لغة بورنو

واحد	One	Teelo	تيلو
اثنين	Two	Andee	أندى
ثلاثة	The	Yaskoo	ياسكو
أربعة	Four	Daigoo	دايجو
خمسة	Five	Oogoo	أوجو
ستة	Six	Araskoo	أراسكو
سبعة	Seven	Tuller	تولو
ثمانية	Eight	Oskoo	أسكو
تسعة	Nine	Lekar	ليكار
عشرة	Ten	Maigoo	مايجو
عشرون	Twenty	Maigoo (Iata Maigoo)	
مائه	Handred	Jarroo	جارو
رجل	Man	Kooa	كووا
أمرأه	Mother	Mata	ماتا
أب	Father	Abbah	آبة
أم	Mother	Yany	يآنى
رأس	Head	Kela	كيلا
عيون	Eyes	Shim	شسم
أنف	Nose	Kensha	كنشا
شعر	Hair	Kondoly	كوندولى
اسنان	Teeth	Timmi	تيمى
بطن	Belly	Soro	سورو
يد	Hand	Moskoo	موسكو
رجل	Foot	Shie	شى

دم	Blood	Boo	بـــو
يوم	Day	Koo	كـــو
مساء	Night	Boone	بونا
ينام	Sleep	Koonem	كونم
ميت	Dead	Nowy	نووى
أبيض	White	Bull	بل
أسود	Black	Tsellm	تسلم
شمس	Sun	Koo	كـــو
قمر	Moon	Kengal	كنجال
نجوم	Stars	Shilluga	شلوجا
حجر	Stoone	kow	كو
طيب	Good	Unglla	أنجلا
نار	Fire	Kanno	كانو
ماء	Water	Ankee	أنكى
أرض	Earth	Shiddi	شدى
طائر	Bird	Ongoodo	أنجودو
بيض	Egg	Engoobbble	انجوبل
سمك	Fish	Boney	بونى
جمل	Camel	Kalgamoo	كالجامو
بقرة	Cow	Fai	فاى
الله	God	Allah	الله

تقع بورنو على بعد اربعين يوما او ما يعادل سبعمائة ميل جنوبي فزان• ويحـدهـا من الشرق أقليم • Baghermi. باجـرمى ، ومن الغـــرب أقليم Kano كانو ، يحدها أقليم كانم من الشمال • وقليل من التجار من يسافر جنوب بورنو Bornou ، ولهذا فانهم لا يتحدثون عن البلاد الواقعة فى ذلك الاتجاه • ويسود خلط كبير فيما يتعلق بعاصمة بورنو التى تسمى برنى Birnie أو برنى الجديدة اذا أردت الدقة ، تميزا لها عن

مدينة اخرى تحمل اسم برنى • وتبعد برنى القديمة عن الجـديدة خمسة ايام ، ويمر نهر تشـاد بالقرب من كليهما • وتقـع المدينة القديمة ناحية الغرب ، وهي تكاد ان تكون مهجورة هذه الايام ، وكنتيجة لقربها من الـ فلاته Fellata سادة السودان ، فقد كانت معرضة دائما لحملات صـيد العبيـد ، ولهذا قرر الاهالى منذ ثمانى سنوات بنـاء مدينة جديدة تتوسط اقليمهم • وعلى هذا فان احاديث التجار عن بورنو مختلفة ، فالتجار القدامى يتحدثون عن المدينة القديمة بينما لا يعرف التجار الجدد سوى المدينة الجديدة•

وسأورد فيما يلى بعضا مما ذكره التجار المحدثون :

تقـدر المسافة ما بين برنى وباجرمى بعشرة ايام ، وتقـع قرية لوجان Looggan فى منتصف الطريق ، ويمر نهر تشاد بالقرب منها ، ويتوجب على من يريد زيارة «باجرمى» أن يعبره • ويجرى هذا النهر من الجنـــوب الغربى الى الشمال الشرقى وهو عريض جدا ، وحين يعبره التجار ببضائعهم الثقيلة فانهم يضعونها على أطراف مثبتة بقرع كبير ، ويدفعه السباحون الى الامام ويمسكون الطوف باليد اليمنى، بينما اليد الاخرى تصارع الماء• وتستخدم الاطواف الصغيرة لنقل الرجال ، وتبلغ حمولة الواحد منها ما بين خمسة أو ستة رجال أو بعض البضائع الخفيفة• وهم يضعونها، كما علمت بتثبيت الالواح الخشبية بالقرع • ويجلس الرجال على الالواح بنفس الطريقة التى يركبون بها الجياد • وتتدلى أقدامهم فى الماء يحركونها لتدفعهم الى الأمام كما يستخدم طوف أصغر ليركبه رجل واحد ، والطوف عبارة عن لوح خشبى مربـوط الى قرعتين ، ويحرك الرجل قدميه وربما استخدم مجدافا صغيرا •

ولقد علمت أنه على الرغم من أن النهر يعج بالتماسيح ، فهى لا تهاجم أقدام الرجال أبدا ، ولابد أن القرع يخيفها •

وطبقا لاقوال أهل البلاد ، فان النهر يمتد ابعد من فور أو دافور ، حتى مصر • وتستطيع الجياد أن تعبره حين يربطونها الى قرب منفوخة • وبقى نهر تشاد سرا لا نفهمه ، وكانت كل المعلومات التى تصلنا عنه متضاربة تماما • فقال البعض أنه فى حجم البحيرة الكبيرة ، لدرجة أن الاخرى لاترى من برنى ، بينما يقرر الآخرون أنه مجرد نهر • وأمـدنا ابن شقيق القـاضى

ببعض المعلومات سنوردها فيما يلى ، والجدير بالذكر أنه كان عائدا لتوه من هنـاك •

يقول الراوى أن تشـاد ليس نهرا ، وانما بحيرة كـبيرة تتجمع بهـا نهرات صغيرة بعد مواسم الامطار ، ولهذا فان ضفتها الاخرى لا ترى من برنى لشهور عديدة ، وكثير من الأهالى يصطادون منها السمك • وفى الايام الاولى من الربيع حنيما تشتد الحرارة ، تجف البحيرة باستثناء مجرى صغير يجرى فى المنتصف ويحمل ذاته (تشاد) وينبع هذا النهر من الغرب ويأخذ اتجاها الى الشرق • ولكن الى أين ؟ لا أحـد يدرى •• ويبـذر الاهـالى الذين يعيشون على ضفاف « تشاد » الحبوب التى تنضج قبل أن يأتى موسم المطر ليغرق الاقليم كله كما يفعل نيل مصر • ولقد رأى صاحبنا المحاصيل تحصد من مناطق شاهدها بنفسه قبل بضعة شهور ، والماء يغطيها تماما • ويقول ان الانهار التى تصب فى تشاد ليست سوى سيول تتدفق من قمم الجبال ، فهو لم يشهد مطلقا سوى النهر الذى تحدثنا عنه آنفا •

ونهر تشاد يسمى «جامبارو» Gambarro بعد أن يمر بـ «برنى» ، بل ويسمونه فى كثير من الاحيان بالنيل • واعتاد الأهالى حتى سنوات قليلة خلت ، تحسنت بعدها أحوال البلاد فى ظل حكومة مسلمة متمسكة بالدين اعتادوا أن ـ يقذفون بعذراء فى موسم الفيضان ، ولابد أن تختار تلك العذراء غاية فى الجمال والاناقة ويبتهج عظماء القوم اذا اختيرت الفتاة من بناتهم • وتعتبر السهولة أو الصعوبة التى تقـذف بها الفتـاة فى النهر علامة بشر أو نذير شؤم (١) •

وتعيش كـثير من قبائل التبو الرحل فى المنطقة الواقعة شمالى بورنو ، وأهم هذه القبائل هى «وندله» Wandela وقبائل «جوندا» Gunda وقبائل ترايتا Traiat ، وأفراد هذه القبائل من الوثنيين ، وهم لا يشتغلون بالتجـارة ، وانما يعتمـدون فى معيشـتهم على الرعى وعلى الغـزوات التى يغيرون فيها على الآخرون •

---

(١) الأبحاث الحديثـة تنفى أن تكون هذه الواقعة صحيحة (المراجع) •

والى الشرق من بورنو وبالقرب من باجرمى يوجد أقليم مندرا **Mandara** وهو خاضع لبورنو ولا ينجو من غزوات صيد العبيد • ولغة هذا الاقليم تعتبر احدى لهجات لغة بورنو • أهله معتدلو القوام وتشتهر نساؤه بالجمال والذكاء ، والسكان جميعا من الوثنين ويعيشون فى الأكواخ التى تنسج كالبسط ، وتخاط معا وتسمى بوشيا **Booshia** •

وفيما يلى مواقع بعض البلدان

من بورنى الجديدة . . .

باجرمى	Baghermi	عشرة أيام	شرق جنوب الشرق
ماؤ	Maoo	عاصمة كانم خمسة عشر يوما	شمال شمال الشرق
كانو	Kanno	عشرة ايام	الى الغرب
كوكا	Kooka	خمسة عشرة يوما	جنوب الشرق
كاتاجوم	Kattagum	أربعة أيام	غرب جنوب الغرب
رنغم	Ringhem	تسعة أيام	غرب جنوب الغرب
شايكو	Shaikoo	يومين	الى الغرب
كاوار	Kawar	عشرة أيام	شمال الشرق
بيلما	Bilma	خمسة عشرة يوما	شمال الشرق
ماكارى	Makaree	ثمانية أيام	شرق جنوب الشرق
أونجورنو	Ongornoo	أربعة عشرة يوما	جنوب الشرق
زقزق	Zegzeg	خمسة عشر يوما	جنوب الغرب
زاكارى	Zakari	ثمانية أيام	الى الغرب
وادايى	Waday	سته عشرة يوما	الى الشرق
بحر الغزال (أطرافه الجنوبية)		عشرة أيام	شرق ـ شمال الشرق
كاشنا	Kashna	سته عشرة يوما	الى الغرب
مرزق	Mourzok	أربعين يوما	الى الشمال

ويوجد فى كاتاجوم Kattagum نهر يسميه الأهالى «نيل» **Nil.** ويجرى عبر الطريق من بورنو الى كاشنا باتجاه الشمال الشرقى •

وهـذا النهر كبير جـدا ويعبرونه بواسـطة اطواف ، وماؤه حلـو ويعج بالاسماك ، ويفيض النهر دوريا ، وفى بعض الاحيـان يغرق الاقليم كله •

وتقـع أنجورنو Ongornoo على مسـيرة يوم واحـد من كوكا • ويزورها كثير من التجار فى الربيع حينما يعقـد السـوق الكبير هنـاك • وتكون سـلعته الرئيسـية هى العبيد الذين يؤتى بهم من كل المنـاطق المجـاورة •

أمـا بحـر الغـزال Bahr El Ghazal فيقـع طرفـه الجنـوبى على بعـد عشرة أيام شرق شـمال الشرق من برنى ويمتـد من الشـمال الشرقى الى الجنوب الغربى لمسافة بعيدة ، وتسكنه قبائل من الزنوج منهـم نسبة كبيرة من غير المسلمين • وتفع أقرب مناطق بحر الغزال على بعـد عشرة أيام من بورنو الى شرق شـمال الشرق وبحر الغزال واد هـائل يمتـلأ بالاشجـار ويسـكنه قـوم رحـل ، وهـم يسـمون الفيلة والسـباع والجـاموس « بجمـل الله » وهى توجـد بأعـداد كبيرة وينكلم الاهـالى نوعا من العربية الى جانب لهجة أو اثنتين يتميز بهما الاقليم •

وسكان بحر الغزال جنس طيب ، قوى كثـير الحركة ويطيلون شـعرهم ويجـدلونه فى ضـفائر ولباسـهم من الجلد ويفضل بعضهم السير عاريا • وتكثر بالاقليم المواشى ويحصلون على سن الفيل بكميات كبيرة من منطقة الغـابات •

وتتفق كل المعلومات التى وصلتنا عن هذا الاقليم على نقطة واحـدة ، وهى انه لا يوجـد به نهـر على الرغم من انه يحمـل اسـم «بحر» وان سـبق وجود نهر على جانب كبير من الضـخامة •• ويقـال أن عظاماكثيرة لحيوانات مجهولة وأسماك كبيرة يمكن أن توجد متحجرة ، ويقول العرب عن هذا الاقليم ، أنهم ذهبوا ليجمعوا العظام ولكن « أبليس »سـخطها الى أحجار ، كما توجد القواقع الجميلة مدفونة فى التربة ، وبعض هـذه القواقع كبيرة ويصنع منها الزنوج آلات موسيقية • ومن خـلال أوصافهم وحديثهم عن طول العظام وأحجامها يتضـح أنه لابد أن بعض الاسـماك كانت تفوق الاثنى عشر قدما طولا •

أما ما يسمى بـ البطالية Battalia أو البحر Bahr كما يطلقونه عليها فى بعض المناطق فهى طبقا لبعض المعلومات ، تقع بالقرب من بحر الغزال ، بينما يؤكد آخرون أنها جزء منه ، كما يسود الاعتقاد بوجود العظام والهياكل المتحجرة بها .

ويحكم بورنو سلطان له سلطة واسعة ، ولكنه فى السنوات الاخيرة سمح لشيخ «كانم» أن يمارس سلطانه عليه . وشيخ « كانم» مرابط عظيم يدعى « الحاج الامير » يقال عنه أنه لم يستخدم الذهب أو الفضة اطلاقا وهو متزوج من أربع نساء ، ويحتفظ أيضا بجوار يلدن له أعدادا من الأبناء . ويشن هذا المرابط حروبا دائمة على جيرانه من غير المسلمين ويغنم من ورائها أعدادا كبيرة من الجوارى والجياد . وهو يعيش فى « كانم » ومدينته هى ماو .Maoo ، وتقع على بعد خمسة عشر يوما شمال شمال الشرق من برنى ، ويحمل تجار فزان الى « الحاج الأمين » شيخ كانم هدايا كثيرة ، ويعتبرونه رجلا أكثر قدرا من سيده الذى يعيش الآن فى طيات النسيان .

ويوجد فى « كانم » ، وهى على مسيرة يوم واحد من ماو .Maoo نهر كبير ينبع من الجنوب الغربى ويجرى ناحية الشمال الشرقى ، وهو عميق عريض وتكثر به الاسماك ، ويصطاد منها الاهالى الكثير ، ويجففونها فى الشمس ، ويحفظونها فى مخازن لتكون قوتهم فى مواسم المطر ، ويطلق الاهالى على هذا النهر اسم .Yaoo أما التجار المغاربة فيسمونه بـ « النيل » .

وفى احدى رحلات المكنى الاخيرة فى هذا الاتجاه شن هجوما على أهل « كانم » العزل ، المسلمين منهم وغير المسلمين ، وبعد أن احرق بلدتهم طاردهم حتى ضفاف النهر فغرق الكثيرون وهم يحاولون عبوره ، وانتشل الآخرون بينما أستولى « المكنى » ورجاله على النساء والاطفال الذين لم يقووا على الهرب وبلغ عدد الاسرى فى ذلك اليوم ألفا وثمانمائة عبد . وكان طريق عودة جيش « المكنى » يقع عبر منطقة صحراوية خالية من الماء لمسافة ثلاثة أيام ، وهبت عليهم عاصفة رملية هوجاء ، حملت الرمال

الى كل اتجاه ، واستمر هبوبها العاصف يومين كاملين ، ووقع « المكنى » ورجاله فى مأزق حرج وفقدوا طريقهم . وفى اليوم التالى قرر أن يرسل عدداً كبيراً من الاسرى فى حراسة عدد قليل من الحراس ، وهلك عدد كبير منهم فى الطريق بينما واتى الحظ من بقى مع المكنى ورجاله اذ وجدوا ماء فى الطريق . وبقى المكنى نفسه حتى اليوم الثالث وما زالت العاصفة على اشدها ، ونفذ صبره وأمر بقتل كل العبيد ، ونفذ رجاله أوامره على الفور . ومات أكثر من ثلثمائة عبد امسك بهم المكنى بعد أن خدعهم حينما دخل بلادهم وأفهمهم أنه جاء ليشن حربا على جيرانهم الذين يوقعون بهم الاذى .. وبعد هذه المذبحة اللاانسانية استهدف المكنى للعنات الاهالى ، وتعلم الصغار أن يحقدوا عليه وان ينعتوه هو وأسلافه بأقسى الصفات واللعنات ان جاء ذكره على لسان أحدهم .

وحركت أخبار هذه المذبحة نخوة كل القبائل وساد العصيان الذى لم يهدأ حتى بعد مرور سنوات ثلاث على تاريخ المذبحة . وخلال تلك الغزوة استطاع شيخ « كانم » أن يهرب الى « برنى » ، بينما وقع عدد كبير من أفراد عائلته فريسة سهلة فى يد رجال المكنى .

وتستخدم فى بورنو عملة نحاسية ضئيلة القيمة ، يضربونها فى الاقليم ذاته ، كما يستخدم الذهب كعملة أيضا فى الاقليم ، الا أنهم يستخدمونه كأداة زينة أكثر مما يستخدمونه كوسيلة للتعامل . ويطلق على أهل بورنو لفظة « المؤمنين » على الرغم من أن بعضا منهم ليسوا كذلك ، ويلبسون فى أكثر المناطق تمدينارداء من القطن ويتسلحون بالرماح والاقواس بينما يتسلح الشيخ وقليل من حراسه بالبنادق القديمة . ويقال أن فى بورنو ستين ألف فارس ، يحتفظون بدروع لانفسهم ولجيادهم وهى دروع صغيرة وكلها متينة . ويقال أيضا أن جيادهم ـ لا تجرى كبقية الجياد وانما تقفز قفزا ، ويزيد الطلب على الجياد الكبيرة الحجم ، ويطلبها كثير من تجار فزان . وهم لا يستخدمون ما يسمى « بالودع » كنقود ، وانما يستخدمونها كحلى وتيجان للرءوس . والاقليم ينتج الذرة ، والفواكه ، ويشتهر بانتاج « التمر الهندى » كما تكثر به الغابات ذات الاشجار

الضخمة الظليلة ، ويصنعون منها الواحا يكتبون عليها ، ويتعلم عليها الصغار .

والمسافة ما بين « تجيرى » Tegerry وكانم Kanem تقدر بعشرين يوما الى الجنوب الشرقى ، أما المسافة بين « كانم » و « بورنو » فتقدر بخمسة عشر يوما الى الجنوب الغربى . وكثير من القوافل تعبر اقليم التبو ، وصحراء بيلما ، ومنها يدخلون حدود بورنو .

والطريق ما بين مرزق وكاشنا يمر بالمدن التالية .

الاتجاه : جنوب غرب الجنوب

	المدينة			المسافة مقدرة بالأيام
من	مرزق	الى	Akraf	أربعة عشر يوما
من	Akraf	الى	Felezlis	أربعة أيام
من	Felezlis	الى	Tadent	أربعة أيام
من	Tadent	الى	Assieu	ستة أيام
من	Assieu	الى	Trejeet	أربعة أيام
من	Trajeet	الى	Seloofia	يومين
من	Seloofia	الى	Aghades	يومين
من	Aghades	الى	Begzam	ثلاثة أيام
من	Begzam	الى	Ghrulghiwa	ثلاثة أيام
من	Ghrulghlwa	الى	Tagma	سبعة أيام
من	Tagama	الى	Kellewi.	سبعة أيام

(المجموع) ستة وخمسون يوما بمعدل عشرين ميلا فى اليوم الواحد

واغادس Aghades منطقة كبيرة بها مدينة تحمل ذات التسمية ، وهى تبعد عن مرزق بحوالى ستة وثلاثين يوما خلال الصيف ، وفى الشتاء تزداد المسافة الى خمسة وأربعين يوما . وتبعد «اغادس» مسافة خمسة عشر أو عشرين يوما من كاشنا ، وعشرين يوما عن بورنو ، وستة ايام من السوداء وثلاثة أو أربعة أيام من بجزام .Begzam ومسافة ثلاثين يوما صيفا وما بين خمسة وثلاثين وأربعين شتاء من غات وأربعين يوما من توات وسكان أقليم اغادس هم من الطوارق ومن قبيلة كلوى . Koneir

واغادس مدينة اكبر مساحة من مرزق ، ومنازلها طينية ومشيدة على غرار منازل مرزق وبعضها له طابق ثان • ويحيط بها سور بنى من الطين والحجارة • وتوجد بها مئذنة كبيرة تنتصب من المسجد الكبير • ويعتقد الطوارق أن هذه المئذنة اكثر ارتفاعا من مآذن مصر • والاقليم مستقل ويحكمه أحد الشيوخ ويدعى .Yusuffah • ويعتبر رجلا عظيما شأنه فى ذلك شأن سلطان فزان • ويكثر بالاقليم أشجار الدوم ، وتربته ليست رملية وانما طينية تغطيها الحشائش تماما • ويزرع الاهالى الذرة والمحاصيل الاخرى بوفرة • وغذاء الحيوانات رخيص جدا •• وأهل البلاد من المسلمين المتعصبين •

وتبعد كاشنا مسافة عشرين يوما عن نوفى Noofy وفيما يلى بعض المعلومات عن الطريق ، استقيتها من أحد اصدقاء هورنمان ولديه معرفة طيبة بالسودان •

	من	كاشنا	الى	ياندكا Yandekka	
	من	Yandekka	الى	Doogroomkee	
	من	Doogroomakee	الى	Zurmee	وهى مدينة كبيرة جدا
	من	Zurmee	الى	Faoushee	أو Zanfara
الى الغرب	من	Faoushee	الى	Doofa Mafora	
	من	Doofa Mafora	الى	Thlata noma	
	من		الى	Bacoora	
	من	Bacoora	الى	Gandee	
	من	Gandee	الى	Burnee dengee	
	من	Burnee dengada	الى	Sekkatoo	وهى مدينة كبيرة تسكنها فلاته
	من	Sakkatoo	الى	Miffferadaati	

ومن مفرادتى .Mifferedaati يمر المسافر بعدة مدن قبل أن يصل الى نوفى .Noofy وهى اقليم يقع على ضفاف النيل ، وعاصمتها « باكانى » ويقال أن هورنمان (١) مات بها بمنزل رجل يدعى الفلاتى ، وأخبرنى صاحب هذه المعلومات أنه رافق هورنمان من مرزق حتى

(١) أنظر يوميات الرحالة فريدريك هورنمان فى الرحلة مابين القاهرة ومرزق عام ١٧٩٨ ترجمة مصطفى جودة • مطبوعات الفرجانى بليبيا •

هناك ، وقال أنه تعرف عليه في فزان • ومن فزان ذهبا سويا بصحبة قافلة كبيرة الى بورنو حيث افترقا • وبعد أن أمضى هورنمان ثلاثة أو أربعة شهور في بورنو ، التقيا مرة أخرى ، ورافقا احدى القوافل المسافرة الى كاشنا • وفي الطريق توطدت صداقتهما وتعلق الاهالى بهورنمان لبساطته وخبرته الطبية • ويقال أنهم كانوا يعاملونه كولى أو مرابط • وانقضت فترة من الزمن قبل أن يرافقا قافلة أخرى في طريقها الى نوفى Noofy. وسكنا سويا في منزل رجل يدعى على من قبيلة الفلاتة • وكان من عادة «هورنمان» رصد مواقع القرى والجبال والاشجار ليكون قادرا على العودة دون دليل اذا دعت الضرورة • وكان هورنمان يعتزم المضى قدما عبر Dagomba. « داجومبا » حتى Ashantee أشانتى ،وهى تبعد أربعين يوما الى الجنوب • وحين ترك راوى القصة هورنمان في نوفى Noofy. كان بادى الصحة وعالى الهمة ، ولم تعترضه أية مصاعب • ولكن عندما عاد صديقنا التاجر مرة أخرى الى كاشنا عرف أن (هورنمان) مات بعد أن غادره ببضعة أيام متأثرا بالدوسنتاريا •

ولعل أوضح المعلومات التى وصلتنى عن الانهار التى تجرى بالقرب من كاشنا ، هى ما سمعته من شخص يدعى مصطفى ، وهو ابن أحد المماليك • ويقال أن (المكنى)خنق شقيقين له كما خنق أباه ايضا • وكان مصطفى هذا قد هرب الى السودان ، وامضى هناك عدة سنوات وذكر أنه عبر بنفسه ثلاثة انهار وكلها تجرى من الشرق الى الغرب • ومن هذه الانهار واحد فقط كبير جدا ويوجد به الاسماك والتماسيح وفرس النهر•وذكر راوينا أن المسافة من كاشنا حتى نهر رنجم .Ringhem سبعة أيام الى الشرق ، ونهر رنجم هذا هو اصغر الانهار الثلاثة وهو عميق وضيق وماؤه عذب • وعلى مسافة يوم واحد شرقى هذا النهر توجد مدينة « سنكره » .Sankara اما المسافة من كاشنا الى نهر دودرو .Doodroo فهى ستة أيام الى الجنوب ، وتسير في هذا النهر قوارب يصنعونها بتجويف شجرة كاملة ، ولها قاع مدبب • وتوجد

هذه القوارب بوفرة ، ويستخدمونها فى الصيد وفى العبور من شاطىء الى آخر •

وتبلغ المسـافة من كاشـنا الى نهر كاتاجوم .Kattagum عشرة أيام الى الجنوب الشرقى ، ونهر كاتاجوم هذا عريض على مدى أيام السنة ولكنه فى مواسم المطر يفيض ويغرق الاقليم كله • وخلال فترة الفيضان يستخدم الاهـالى اطوافا يثبتونهـا فى ثمـار القرع الذى ينمـو باحجام كبيرة • ويعدون الطوف بتثبيت الواح الخشب فى عـدد كبير من ثمـار القرع • وواضـح أن حديث « مصـطفى » يفتقر الى الدقة ، خصوصـا فيما يتعلق بالانهار الثلاثة ، فلم يكن متأكدا أن كانت تجرى من أو الى الشرق وكثيرا ما كان يقاطع نفسه قائلا لم اتصور مطلقا أنه يتعين على أن اتذكر كل هذه الامور !!

المسافة ما بين كاشنا الى ساكاتو .Sakkatoo تقدر بتسعة ايام ونصف الى الغرب•والجدير بالذكر أن « ساكاتو » هى مكان اقامة بللو Bello وهو ابن زعيم فلاته هاتمـان دانفوديو .Hatman Danfodio • ومدينة « سـاكاتو » مدينـة مسـورة وكبيرة وتبعـد ثلاثة أيـام شرقى جـوبر Gooberr التى تسكنها قبيلة فلاته ايضـا • وتبعـد ساكاتو مسـافة يوم واحد عن Kebbi « كبى » أو ما نسـميها نحن «كابى» .Cabi واستقر اهالى ساكاتو بعـد طول بداوة ، وساد بينهم السـلم بعد أن كانوا مغرمين بالحروب ، ويقـال أن الاهـالى وهم من قبيلة فلاتة ، أتوا من الغرب وغزوا السودان كله وتوغلوا حتى برنى القديمـة .Birnie ، واضطر السلطان وقومه أن يتقهقروا شرقا الى مسافة خمسة أيام • وقـد أدت هـذه الانتصـارات الى انهيارهم فى النهـاية حيث لم تكن امكانياتهم تسمح بتخصيص قوة لكل بلد يخضعوها وتشتتو فسهل على قبائل المناطـق المجاورة ، التى خضعت لهم يوما ، أن تردهم على أعقابهم•ولعلـك لا تجد اليوم واحدا من قبـائل فلاته يعيش أبعد من كاشـنا • وهم يطلقـون على انفسهم « البيض » فلون بشرتهم افتح بكثير من لون بشرة القبائل الاخرى، وربما بشرة قبيلة « فلاتة » فى لون بشرة الغجر الذين يعيشون بانجلترا •

وتفد كثير من جوارى فلاتة الى مرزق ، وهن فى غاية الجمال والاناقة ، اما الرجال فلم يقدر لى أن أرى واحدا منهم،اذ يقال أنهم قتلوا جميعا فى الحروب الاخيرة ، ويشاع عن رجال قبائل « فلاتة » بأنهم يتميزون بمشيتهم المعتدلة واعتدادهم بأنفسهم ، ولقد تورط هؤلاء القوم مؤخرا فى حروب مع الطوارق الذين كانوا أكثر قوة ومنعة منهم واستطاعوا أن ينزلوا برجال فلاتة خسائر فادحة .

وما زالت كاشنا تابعة لـ بللو .Belo وهو الذى يعين قائدها أو حاكمها . وحاكم كاشنا هذه الايام هو ميلونا امارو دلاجى Melllona Amarroo Delagie ويحمل لقب السلطان فى غياب سيده ، ويقوم هذا الحاكم بغزوات متكررة على الاقاليم المجاورة رغم الهزائم الفادحة التى يمنى بها فى بعض الاوقات وتتكون عائلته من مائة جارية ، ومثلهن من الاطفال .

واستطعت أن أستقى بعض المعلومات من شابة كانت قد وصلت لتوها من ساكاتو .Sakkatoo وذكرت هذه الشابة انها كانت ترعى أبقارها حين هاجمها بعض أهالى Gooberr وأمسكوا بها ، وباعوها الى الطوارق . وكانت ذكية لها بشرة بيضاء ولكنها نحيفة القوام ، وحين جاء ذكر زوجها دمعت عيناها وقالت : ان محمدا وحده الان ، واضافت أن لها ابنا يسمى محمدا ايضا ، وحين سرقها الرجال لم تكن أسنانه قد نبتت بعد ، ولاتدرى من ستتولى ارضاعه من بعدها .

وفيما يلى بعض المفردات التى علمتنى اياها .

Efillo	رجل	Oodomlammi	متختر
Debbo	امرأة	Samaachi	سماء
Pipullo	ولد	Babama	أب
Bitadeppe	بنت	Tmama	أم
Toccochu	صغير	Maoona	الأخ الأكبر
Teddoodoo	ثقيل	Minia	الأخ الأصغر
Odumhaineddi	خفيف	Banda	أخت
Andal	أنا أفهم	Mamama	الجد
Jungo	يد	Tirajumma	الزوجة

الصديق	Haigomo	رأس	Hora
قدم	Koinka	شمس	Naango
ساق	Korla	قمر	Laighroo
أنا لا	Mianda	نجوم	Caudie
لبن	Koosum	لحم	Niri
حصير	Dago	لحم آدمى	Taido
سجادة	Baitookki	حسان	Pootchio
وساده	Ting ada	بقرة	Nagga
أنا	Mahan	بغل	Babba
أنت	Maan	جمل	Gailopa
هو	Damaitoo	ماعز	Baia
قميص	Toggora	خروف	Baloo
سروال	Serla	كلب	Kootoo roo
ذهب	Laamdi	يمشى	Jiaboo
حديد	Yamgoo	ينام	Fokadaan
قمح	El camarani	تعال	Warr
ذره	Baira	اذهب	Beadillo
قصب	Gaouri	يذهب	Beadillo
شجرة	Barkihi	طيب	Oodomwodi
خشب	Leddi	ردىء	Kalloodoo
ماء	Ghium	كبير	Maoodoo
نار	Eeta	نهر	Lena
الله	Allah	يأكل	Aniami
منزل	Oora	يشرب	Ghiarki
محمر	Awoodi	حلو	Oodomwaili
ساخن	Odunwooli	مدينة	Gerri
بارد	Dumfai	وعاء	Laa
جوعان	Iam	أنا سوف	Oondoo
أنا شبعان	Mihari	ماء	Ghium
عطش	Nanadumka	رداء	Bogool
هدا	Doondo	علبه	Kianga
يعطى	Okon	كتاب (١)	Deftera
يأخذ	Gabboo	اليوم	Ilanda nundi
سمين	Paidoo	غدا	Tiango

(١) أنها نفس الكلمة التى نستخدمها اليوم (دفتر) .

أمس	Fadiriango
ليس بعد	Towli
أنا مريض	Tyawdoo
أنا بحالة جيدة	Hairama
خرز	Kaadeh
معطف	Oodarra
عباءه	Godori
فخذ	Asanga
ذراع	Kiauwall ghisingo
بطن	Kraigoo
ظهر	Baoo
صدر	Barendi
رقبه	Baandi
حلمة الثدى	Endoo
أصابع	Honedoo
غطاء رأس	Hoffanaira
قطه	Mussouroo
حذاء	Paddi
ذقن	Wari
عين	Gitta
أنف	Hinari
فم	Kondookkoo
جبهه	Teeda
أذن	Lappi
عمامه	Maitello
دم	Eia
عظام	Kial
يحترق	Awli

نحيف	Fautdo
وسخ	Toondi
نظيف	Lomram mifell
متعب	Ensoomi
لغه	Bolli
سيف	Kanasakali
حجر	Booddi
رمال	Jearidi
أرض	Laidi
أحمر	Bodaijo
أبيض	Daraijiu
أسود	Balaijiu
أخضر	Koraijiuna
أصفر	Jianajiu
ينهض ويذهب	Ummmadillo
حشيش	Koodoo
صلب	Uddumyori
ناعم	Oodum haihitirri
كيف حالك	Mia Loodoo
حسن	Noobandoo
حين يأتى	Kai ooaidi
أين يذهب	Tingailta
هل هو بالداخل ؟	Uden wodi
انه ليس	Unwella
حديقه	Engassa
يجرى	Endogga
سريع	Ommandillo
كاف	Doodoo

قليل	Sedda
ينسج	Sansanbi
دقيق	Kiandi
فلفل	Syasi
فقير	Kolakomi
غنى	Waidande
عسل	Jumeri
طائر	Soodoo

دجاجه	Gertooka
حمامه	Umfoodi sondo
أجلس	Jiaura
مساء	Ghem
صباح	Dun waidi
يوم	Hansi
أسد	Jagerri
سهم	Lebbo
زجاج	Karroo
معلقه	Gerbal
ابريق	Footira
سكين	Iab.
رمح	Ghembirri
خنجر	Labijungo
بندقية	Bendiga (1)
مطر	Ghiun ghiwondi (2)
نحاس	Yamgo daikoo
نمر	Melaho
ظبى	Lelwa
سعيد	Well Well ti
أنا حزين	Berna metti
يغنى	Ghmmoo
يرقص	Fidio
يخاف	Dooba
أسنان	Nia
شكرا	Allah imoghni (3)

ويشتهر « بللو » ابن حاكم فلاتة Feliata الشهير بكثير من صفات النبل ويتمتع بحب واحترام الناس . وهو محارب مقدام . رجاله أشداء . وهو ليس كالحكام الاخرين مولعا باللباس المزخرف أو البضائع التى

(١) نفس الكلمة المستخدمة بالعربية تقريبا (المعرب) .
(٢) الفقرة الاولى من المصلح هى غيوم وهى كلمة عربية أيضا (المعرب) .
(٣) واضح أنها الله المغنى ..وهى عربية أيضا (المعرب) .

تحضرها القوافل • وهو ان اشترى فانما يشترى السلاح من كل نوع احترام الدين والاولياء من فضائله •

تعرفت على رجل كان قدم نفسه على انه شريف ، ولم يكن ، وكان قد سطا عليه بعض الطوارق • وحينما عرف «بللو» بأمره قدم له مائة أمة سوداء كتعبير متواضع عن الاحترام والتبجيل الذى يكنه للرجل الذى ينحدر من سلالة النبى •

والقواقع هى العملة السائدة فى كاشنا وكل المدن الجانبية ، ويساوى الدولار الواحد الفين من القواقع ، والدجاجة تباع بخمس قواقع ، ويساوى الخروف ستمائة ، والثور الفين وخمسمائة ، أما الذرة والارز وكل متطلبات الحياة الاخرى فهى رخيصة جدا فى السودان • ويجيد الاهالى اشغال الخشب والجلد ولعلهم فى كفاءة الاوربيين ، كما يجيدون الصباغة ، وتبيع القوافل كثيرا من منتجاتها الجلدية باسعار رخيصة جدا ، وتصنع النساء نسيجا قطنيا ممتازا يخطن منه قمصانا رائعة •

وتسود الامية فى السودان ، والقليل منهم الذين يستطيعون القراءة يستعرضون قدرتهم هذه ، ويحظى من يجيد القراءة والكتابة بمنزلة رفيعة لديهم ، ويرحب بهم الاباء ازواجا لبناتهم ، وفى حالات الولادة والزواج يشتد الطلب على « المتعلمين » يقرءون القرآن لطرد الشياطين كما يكسبون مالا كثيرا من كتابة الرقى والتعاويذ ، ونصف السكان الذين يعيشون على ضفاف النيل مسلمون ولكنهم لا يعرفون من امور دينهم سوى الصلاة بل ربما وجدت ايضا من لا يعرفها وكل ما يستطيعون ترديده لا يتجاوز « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » اما النصف الاخر فهم من الوثنيين ، وبعضهم لا يمارس عبادة معينة ويصلون للشيطان وآخرون يعبدون قوى الطبيعة •

ويقال أن كل من يسكنون الجنوب هم من الوثنيين ويعيشون عيشة بدائية ويشبهون فى طباعهم ومظهرهم الحيوانات المتوحشة •

ويسود المسلمين الاعتقاد بالخرافة وارتكاب المعصية بشكل يفوق ذلك القدر الذى يسود بين جيرانهم الكفرة على حد قولهم • وهم نادرا ما

يقدمون على أمر دون التحصن بالاحجبة والرقى • يتوهمون دوم وكأن العفاريت قد حلت باجسادهم ، ويردون كل مكروه الى الشيطان،ويخشون الحسد ويتحرزون بكثير من التحوطات الغريبة اتقاء لشره •

لعلى لم أشهد أناسا يتسمون بالرقة والبراءة والتعقل قدر ما تتحلى به تلك المخلوقات المسكينة الجاهلة التى يغنمها المسلمو نمن غزواتهم ، وقد رأيت منهم الكثير وهم فى طريقهم الى مرزق • وهم حين يفقدون رفيقا ، فهم على عكس غاصبيهم ، لا يصرخون ولا يولولون وانما يجلسون فى صمت دامعى الاعين وغالبا ما يرفضون نصيبهم المتواضع من الطعام • وحين يمرض أحد الرجال يعنى به الاخرون وغالبا ما يتنازلون له عن طعامهم كله • وان عنيت هنا فانما اعنى النساء ، فلا يتحلى رجالهم بتلك القلوب الرحيمة ، اذ يعتبرون اظهار المشاعر الرقيقة عملا شائنا • وحين تلد امرأة طفلا ، تشاركها النسوة جميعهن الاعتناء به وتدليله • ونادرا ما تعطى المرأة وجها متجهما • ويتميز النساء حيوية دون صخب ، وهن نظيفات مولعات بالحلى ، مرنات يتعلمن سريعا وحينما يتعلمن يفقدن ـ لسوء الحظ ـ بساطتهن الفطرية •

الطريق من كاشنا الى ساكاتو

غرب

من كاشنا	Kashna	الى زوما	Zumma	يوم واحد
من زوما	Zumma	الى كالاوا	Kalawa	ثلاثة أيام
من كالاوا	Kalawa	الى جادايا	Gadaya	نصف يوم
من جادايا	Gadaya	الى كاراري	Kararee	يومين
من كاراري	Kararee	الى تكمورافا	Tekamoorafa	يومين
من تكموراقا		الى ساكاتو		يوم واحد

المجموع تسعة أيام ونصف

ومسيرة يومين اخرين ناحية الغرب أيضا تسلمك الى كبى Kebbi. وعلى مسيرة نصف يوم منها مدينة بودنجا الكبيرة •

ومن كاشنا حتى « جوبر » Gooberr تقضى القافلة خمسة أو سته ايام الى الجنوب الغربى • وتعتبر « جوبر » Gooberr احدى مدن

فلاتة الكبيرة وكانت لسنوات عديدة مقرا للسلطان • وتشيد منازل جوبر في شوارع تحيط بها أسوار •

وتقدر المسافة ما بين كاشنا و تساوا Tessawa بثلاثة أيام الى شرق الشمال الشرقي •

ويمر الطريق من كاشنا الى بورنو بالمدن التالية •

شرق

من كاشنا الى سابنجارى	Sabongaree	يوم واحد
من سابنجارى الى روما	Roma.	يوم واحد
من روما الى بيشى	Beshi	يوم واحد
من بيشى الى كانو	Kanno	يوم واحد

وتبعد كانو أربعة عشر يوما من برنى ، ويحكمها سلطان • واذا اتجهت شمالا من كاشنا ستمر ب Gayzaa «جايزا» بعد مسيرة يوم واحد ، وتسلمك مسيرة يوم آخر الى Zakari زكارى ويوم ثالث الى رنغم Ringhem. وفي رنغم يوجد نهر يحمل الاسم ذاته ويأتي عبر الاقاليم الواقعة جنوبي كاشنا •

ومن « رنغم » شرقا تصل Gonga. «جونجا» بعد يوم واحد ومنها الى مايجا Mayga. واويك Awyaek. وكاتاجوم Kattagm. ولا يفصل ما بين المواقع السابقة سوى مسيرة يوم واحد •

وفي كاتاجوم يمر النيل أو الى «جلبى» Goulbi. أو حتى كاتاجوم كما يسمونه في بعض المواقع ، يمر خلف كاشنا على مسافة قدرها ثلاثون ميلا الى الجنوب • ويجرى النهر باتجاه الشمال الشرقي ولابد من عبوره

ومن كاتاجوم شرقا الى زوماوا Zoomawa. لا تستغرق الرحلة سوى يوم واحد ويمضى نصف يوم آخر قبل أن تصل الى «جزيرة» Gizzira. ونصف يوم اخر يصلك ب Zubbo. « زوبو » •

وفي « زوبو » Zubbo. تعيش قبيلة عربية وتسكن ما يسمى ب « بلد ابراهيم زوبو » Bled Ibrahim Zubbo. ويبدو أن ابراهيم زوبو هذا هو مؤسس هذه القبيلة ، ويتميز أهلها بلون البشرة الغامق ولكن دون ملامح زنجية •

وتوجد الى الشمال من « بلد ابراهيم زوبو » مدينة دورا .D owra على مسيرة يوم كامل ، ومن دورا الى Kalawa كالاوا يمضى المسافر يوماً آخر ثم يعرج شرقا ليصل شاكو .Shackow بعد يوم ، ومنها الى بيان كالاوا .Bayankalawa ، وديمترو .Demetro •

وتبعد كاشنا عن زنفرة .Zanfara أربعة ايام الى الشرق • ويوجد الى الشمال الشرقى ، وعلى بعد ثلاثة أيام من كاشنا اقليم .Daura داورا ، وسكانه وثنيون كثيرو العدد ، وكثيرا ما يتعرضون لغزوات قبائل فلاتة • وتقع كبى .Kebbi على بعد ثلاثة أيام شمال شرقى باكانى .Bakkanee عاصمة نوفى Noofy اما كوكا Kooka فتبعد ثلاثين يوما الى الجنوب الشرقى من كاشنا وتتعرض أيضا لغزوات أهالى واداى وتقع كانو .Kanno على مسافة أربعة أيام الى الشرق من كاشنا • وعلى مسافة أربعة أو خمسة أيام الى الجنوب الغربى من كاشنا توجد مدينة تسمى زقزق .Zegzeg وتقع ياجوبا .Yagooba على بعد ستة أيام جنوبى زقزق • أما يم يم .Yem Yem أو ما تسمى لم لم .Lam Lam على الخريطة ، فسكانها من اكلة لحوم البشر ، ولعلنى من خلال ما سمعت عنهم من حكايا أميل الى تصديق أنهم كذلك •• ولحسن الحظ فقد كان لاحد أصدقائى صبى صغير جاء من هذا الاقليم ، وبحثت عن واحد يعرف لغته ، وحينما سألت الصغير عن اطيب اجزاء الجسد البشرى التى يفضلها مواطنوه ، أجاب على الفور انه الصدر وياكله الرجال ، واضاف أن بقية الاجزاء تترك للاناث والاطفال •

ولم استطع أن أتحقق منه • هل ضحاياهم من أهل البلاد أو من الغرباء ؟!! (١)

ويتاخم اقليم (يم يم) جنوبا مدينة زقزق ، وهى مدينة كبيرة ويقال أن أهلها يعيشون حياة بدائية ، وتقع ياجوبا .Yagooba على حدود (يم يم) وتبعد عن زقزق بستة أيام الى الجنوب ، أما اقليم .Maradi مارادى فيقع فى منتصف الطريق ما بين كاشنا وجوبر .Gooberr وهو اقليم مهجور

---

(١) مثل هذه الروايات ينقصها التدقيق العلمى (المراجع) •

تماما لكثرة ما شن عليه من غزوات ، وسكانه من الوثنيين ويمشون عرايا باستثناء قطعة من الجلد تغطي عوراتهم .

ويبدو أن **اقليم تكرا** .Tlkra في السودان غير معروف لاحـد ممن سألتهم ، وعلى أية حال فهناك رقعة خصبة في بورجو تسـمى تركى .Tirki

ولقد ذكرت طوات .Tuat في كثير من الخرائط على أساس انها مدينة ولكنها في الواقع اقليم كبير على حدود السودان ويسكنه الطوارق ، ويقع في الصحراء الكبرى وهو قاحل الى حد ما ، ويشتهر بجياده الاصـيلة وبخرافه الكبيرة ، ويشتغل اهله بالتجارة مع تمبكتو والسودان وغـدامس وفزان ، ونادرا ما يذهبون شرقا ابعد من بورنو . وهم يشيدون منازلهم من الحجارة والطين ، ومعظم مدنهم مسوره . وعاصمة الاقليم هي مدينـة « عين الصالح » وسميت هكذا لما يتميز به اهلها من تقوى وورع، ويقال أنهم جميعا من المرابطين .

وسمعت كثيرا عن القلاع الـ (الثلثمائة والست والستين) التى يقال أن المسلمين الاوائل شيدوها حينما غزوا الاقليم ، ويصفونها بانها شـاهقة الارتفاع ومتينة البناء ، ولكنى أشك في ذلك فهى لن تفوق القـلاع التى رأيتها في مرزق والتى سمعنا عنها كثيرا من القصص الخرافية والمبالغ فيها، واتضح فيما بعد أنها ليست أكثر من أبنية طينية متواضعة .

وتبعد طوات .Tuat عن مرزق مسافة أربعين يوما ، والطريق اليهـا كما يلي :

من مرزق الى تسوا	Tessowa.	يوم واحد	(مدينة وقلعة قديمة)
من تسوا الى أوبارى	Oubari	يومان	مدينة
من أورباري الى هاجى	Haghki	يومان	محط للقوافل
من هاجى الى كايبو	Kaibo.	أربعة أيام	»
من كايبو الى بنجمه	Bengheh.	ستة أيام	»
من بنجمه الى دوكارات	Doukaraat.	يومان	»
من دوكارات الى تادرا	Tadera	خمسة أيام	»
من تادرا الى أماجى	Amaghi.	سبعة أيام	»
من أماجى الى تمدارتى	Temadraati.	ثلاثة أيام	»
من تمدارتى الى هوهاند	Houhaned.	يوم ونصف	»
من هوهاند الى أونايراجرى	Oonabraghri.	أربعة أيام	»
من أونابراجرى الى عين الصلا	Ain El Sala.	يومان	(وعين الصلاة مدينة في طوات)

والمنطقة التى تقع ما بين تادرا .Tadera واماجى ، صحراوية قاحلة يقطعها المسافر فى ثمانية أيام دون ماء • وعلى امتداد الطريق لا ترى العين سوى الرمال ، وقليلا من الاعشاب فى المنطقة الواقعة ما بين مرزق وعين الصالح • وتقع عين الصالح أقصى شمالى طوات ، وهى أول مدينة تبلغها القوافل الوافدة من المغرب وتبعد عن مدينة تافلت .Tafilet عشرة أيام الى الشمال الغربى • وتقع تمبكتو على بعد خمسين يوما من عين الصالح عبر طريق صحراوى تماما • وعلى بعد يومين من عين الصالح توجد مدينة كبيرة تسمى اكابلى .Akbly ومن اكابلى الى مبروك .Mabrook يقطع المسافر رحلة قدرها خمسة وثلاثون يوما • ولقد اعتاد المسافرون تهنئة بعضهم البعض حينما يصلون الى « مبروك » بعد رحلة شاقة مضنية ، بقولهم « مبروك » ولهذا فقد اخذت المدينة لفظة « مبروك » ومن مبروك الى تمبكتو تقطع القافلة رحلة قدرها خمسة عشر يوما • وتبعد غدامس ، التى تخضع لباشا طرابلس ، عن عين الصالح مسافه عشرين يوما الى شمال الشمال الغربى •

وتقع تمبكتو على بعد تسعين يوما من مرزق ، ويمر المسافر عبر اقليم توات ومن خلال ماسمعته من التجار اتضح لى ان تمبكتو ليست كبيرة كما نتصور ، ولعلها لا تزيد عن مرزق • وهى مدينة مسورة ومنازلها منخفضة جدا ، بنيت دون نظام ، باستثناء شارع صغير أو اثنين ، ويبدو انعددا كواخ الحصير تفوق المنازل المشيدة عددا • وربما كان السبب فى وجود هذه الاكواخ ، وبهذه الكثرة هو أن كثيرا من القوافل الوافدة من غدامس وطرابلس وقوافل الزنوج تضطر الى قضاء طيلة موسم المطر فى تمبكتو حتى تباع بضائعها • وخلال فترة اقامتها تبنى هذه الاكواخ ، فهى لا تكلف كثيرا وتشيد فى يومين أو ثلاثة • وخلال شهر واحد أو اقل يزيد عدد سكان تمبكتو خمس عشرة ألف نسمة أو اكثر ، ويخيل للمسافر حينئذ أن تمبكتو مدينة كثيفة السكان• وحينما يغادرها التجار يتضاءل عدد سكانها كثيرا ، ولعل ذلك هو مصدر التضارب حول عدد ساكنيها •

ويبعد ميناء كابرا .Kabra عن تمبكتو بما لا يزيد عن اثنى عشر ميلا،

ويستطيع المرء بسهولة ان يسافر الى تمبكتو ويعود الى كابرا خلال يوم واحد • وفي الواقع فان « كابرا » تبدو كمجموعة من الاكواخ والمخازن اكثر مما تبدو كمدينة • ويشتغل اهاليها القليلون في العناية بالبضائع وخدمة السفن • وتأتي السفن الكبيرة الى جيني .Jenne وتفرغ حمولاتها بها •

ويجري نهر النيل أو .Goulbi « جلبي » كما يسمى في السودان ، يجري ببطء ناحية الغرب ، وهو عريض جدا عند كابرا • ويتفق كثير من الرواة على انه في مواسم الجفاف يستطيع الجمل أن يعبره دون أن يضطر للعوم ، ولكن في مواسم الفيضان يصبح النهر اكثر عمقا وتياره اكثر سرعة وخطورة •

ويحكم تمبكتو ملك أو سلطان لا يتمتع بسلطة كبيرة ، وأهلها من السود ويلبسون كما يلبس السودانيون ، ويرتدي الاغنياء منهم القمصان والسراويل بينما يمشي الفقراء عرايا أو شبه عرايا • واهم منتجات تمبكتو والمناطق المجاورة ، الذهب والمنسوجات والجلود والاسلحة • ويقال أن الذهب يستخرج من جني Jenne وهي لهذا تسمى احيانا ببلد التبر •

لم استطيع الحصول على اية معلومات عن السيد بارك Bark غير أن أحدا لا يتصور انه بمقدور رجل أبيض أن يعيش بالمدينة دون ان يفطن اليه التجار الذين يدخلون حتى منزل السلطان نفسه • ورب حقيقة كهذه تدحض الفكرة القائلة بأن السيد بارك كان أو ما يزال أسيرا لدى السلطان نظرا لبراعته في الجراحة بل وربما ساور المرء شك في وجوده على الاطلاق

ويفد العديد من التجار اليهود من مراكش ويذاع عنهم القول بوجود مسيحي بالمكان •

ويحكى عن اليهود انهم لا يأكلون لحم الخنزير ويذبحون الذبائح طبقا لطقوس معينة ويسود بينهم تقليد الختان ، ولا يعترفون بالمسيح ولا بمحمد • ويعتقد أن عشيرة يهودية تعيش جنوب تمبكتو ويتكلمون لغة مميزة والقليل منهم يتكلم العربية ، ويعتبر هؤلاء القوم مسلمون بررة •

بعض من مفردات لغة تمبكتو

Ahinda	رجل		Aghotto	أخت	(٦)
Afintoo	امرأة		AJeddi	جدى	(٧)
Abeerry	ولد		Sehhi	صديق	(٨)
Aterry	بنت		Foni	أنا أفهم	
Akhood	يد		Mofedi	لست أنا	
Agodi	رأس		Ofitti	شمسى	
Azeli	حديد		Hitti	قمر	
Attow	قمح		Taassoo	لحم	
Tsheri	شجرة		Hamo	لحم بشر	(٩)
Esheri	خشبه		Ais	حصان	
Ami	ماء	(١)	Abari	بقرة	
Ofi	نار		Zaidi	حلو	
Allah	الله	(٢)	Alebbi	لبن	(١٠)
Bactoo	منزل		Boshti	حصيرة	(١١)
Eghrai	ذراع		Fershit	سجاده	(١٢)
Algimmo	جمل		Edthi	قدم	
Egghsi	ماعز		Edthair	ساق	
Taili	خروف		Hetl	لحيه	
Agreef dodi	ذهب		Hoshti	أنف	
Kote	وسادة		Teddis	بطن	
Ferri	شيء		Kerri	ظهر	
Koti	كبير		Terri	رقبه	
Katch	صغير		FOffi	حلمات الثدى	
Toozi	ثقيل		Beddi	أصابع	
Fetti	فحم		Anikikki	أنا	
Afi	خفيف		Ani Iooloo	أنت	
Agherri	مدينة		Hooti	هو	
Engi	سماء		Bori	نهر	
Abbi	أب	(٣)	Tay	يأكل	
Emmi	أم	(٤)	Ushti	يشرب	
Kati	أخ	(٥)	Kaedodi	يمشى	
			Auti	ينام	
			Ka	يأتى	
			Dodi	يذهب	

والى هنا سكت محدثى ..

واضح فى المفردات المرقمة أنها قريبة جدا من اللغة العربية ، بل أن بعضها يكاد يكون نفس الالفاظ المستخدمة فى البلدان العربية (المعرب) .

وملك تمبكتو رجل عجوز يسمى كاؤ Kaoo واعتقد أن هذه اللفظة تعني حاكما أو سيدا ، وزوجته امرأة طاعنة في السن ايضا • ويحتفظ الملك بالعديد من المحظيات • والحكم في تمبكتو وراثي ، وتبعد عن داونا Downa مسافة يوم ونصف الى الشرق وتقع داونا ، وهي مدينة كبيرة ، على ضفاف النيل • أما اروان Arowan فهي تبعد عن تمبكتو بعشرين يوما • وتقع Taudenny « تاودني » على مسافة أربعة وعشرين يوما شمالي تمبكتو ، وتحمل قوافل « تاودني » الملح الى تمبكتو مرة واحدة كل عام • أما تلمسان .Telemsen أو (تلمسن) فتبعد عن تمبكتو باثنى عشر يوما الى الشمال ، وتشتهر بصحرائها الواسعة الشاسعة الخالية من الماء وتسمى لندرة الماء فيها «العشرية» • وتقع مبروك شمالي «تلمسن» وعلى بعد ثلاثة أيام ، بينما تبعد عشرة أيام عن تاودني وسبعة عن أروان وثمانية عشر يوما جنوبي أولف .Awlef وهي احدى مدن طوات • كما تبعد Sala « سالا » أو « صلا » الواقعة على النيل ثلاثة أيام عن تمبكتو •

ويجري نهر النيل أو « جلبي » أو Joliba « جولبا » أو كاتاجوم Kattagum من تمبكتو عبر « ميلي » .Melli وهي مدينة في بلاد فلاتة ، ثم يجري حتى كبي Kebbi التي تبعد ثلاثة أيام شمالي نوفي ثم يجري بعد ذلك تجاه « ياوري » Yaowri وهي تبعد سبعة أيام الى الشرق ، ومن ثم يجري حتى فنداه Fendah وهي احدى بلاد «فلاتة» ايضا وتقع جنوبي غرب كاشنا • ويظهر النيل مرة اخرى في كاتاجوم وهي تقع على بعد أربعة أيام غرب جنوب غرب عاصمة بورنو وفيها يظهر على هيئة بحيرة تسمى بحيرة تشاد ، وخلف هذه البحيرة يمتد نهر كبير يمر عبر «باجومي» ويسمى كامداكو كامادارو Kamadakoo Gambarro ويتفق الجميع على ان هذه الانهار تلتقي بنهر النيل العظيم ويجري جنوبي «دنقلة» Dongola.

أما منطقة وانجارا Wangara فلم أستطع الحصول عن أية معلومات مؤكدة عنها • الا انه من المعتقد بصفة عامة انها اقليم واطيء يغمره الماء أحيانا • وقال لي أحدهم : انها تقع على بعد عشرين يوما جنوبي تمبكتو ، ويحددها آخر جنوبي كاشنا بينما يؤكد آخرون أنها خلف (واداي) • وعلى هذا

فيبدو أن من المتعذر تكوين فكرة واضحة من خلال هذه الاقوال المتضاربة عن موقعها أو حتى عن وجودها .

وأريد هنا أن أضيف شيئا .. انه اذا كان هناك ثلاثة اماكن تسمى بهذا الاسم (أعني وانجارا) ألا يجوز أن يكون اسما يطلق على مناطق المستنقعات والبرك ؟ ويقال أن عاصمة الاقليم الذى يوجد خلف تمبكتو هي Battagoo. باتاجو وهى مدينة كبيرة ويستخرج منها ذهب كثير ، وطبقا للمعلومات التى وصلتنى فان بها تجارا غير مرئيين ، وهم لا يتاجرون الا ليلا . وحين يأتى تجار الذهب الى بلادهم فانهم يتركون بضاعتهم فى آكوام وينتظرون حتى الصباح التالى ليجدوا كمية من تراب الذهب بجانب بضاعتهم ، فاذا راقت لهم الصفقة أخذوا الذهب وتركوا بضاعتهم ومضوا لحالهم ، أما اذا لم ترق لهم الصفقة فانهم يتركون الذهب والبضائع حتى يضع لهم التجار الخفيون ؟ كمية أخرى من الذهب ، ويشاع أن تجار الذهب هؤلاء من الشياطين المولعين بالملابس الحمراء وهى سلعتهم المفضلة .

ان لفظة السودان لفظة عربية وتعنى بلاد السود ، كما تسمى أيضا « بر العبيد » ويتفق مواطنوها على أن اسمها «هاوسا» وكثيرا ما يفهم البعض خطأ أن هاوسا مدينة وليست اقليما .

وفيما يلى بعض مفردات من لغة هاوسا .

Koolum	دائما	Akooshee	وعاء
Doka	كل	Kaoo	يحضر
Zooashan	بعد ذلك	Kushee	عظام
Jachee	حمار	Doosi	خرز
Baraiwa	ظبى	Yafi	أحسن
Dumsi	ذراع	Jugrinica	يحترق
Koodda	ذبابه	Bekki	أسود
Kibbia	سهم	Gubba	صدر
Derrai	حى	Shikki	بطن
Bershi	نائم	Jinni	دم
Mai Ferri	زبد	Sanfoo	سله
Moogoo	سىء	Dowree	قبل
Korasa	خبز	Kani	أخ

Taffasa	يغلى
Googa	صندوق
Yaroo	ولد
Deddashi	مر
Boogga	يضرب
Saiya	يشترى
Gaymi	لحيه
Dofoa	أزرق
Jankerfi	نحاس
Mekeri	حداد
Jekka	حقيبة
Sandook	صندوق
Paka	يأتى
Doka	ضفيرة شعر
Ikooka	يبكى
Daree	بارد
Eleamma	قمح
Rakomie	جمل
Sania	بقرة
Abdiga	قطن
Fattoo	قطه
Garee	اقليم
Habba	ذقن
Fittatai	نظيف
Kaddkai	لا تفعل
Kai	أفعل
Isha	يشرب
Eewassa	يرقص
Jasha Gheea	مخمور
Kadda Kattafi	لا تذهب
Kaddakai Kooka	لا تبكى
Rana	يوم
Kofa	باب
Dowda	وسخ
Dibino	بلح
Ia	ابنه
Karre	كلب
Meteshey	يموت
Kershemi	نخيل
Kaikasusshi	جاف
Korma	أصم (لايسمع)

Sania	ثور
Soonsoo	طائر
Littafi	كتاب
Iddo	عين
Koonneh	أذن
Koi	بيض
Iaisi	يكفى
Kassa	أرض
Baba	خصى
Cheewas	فيل
Ishee	يأكل
Oota	نار
Kaisoora	يخاف
Kibba	سمين
Nama	لحم البشر
Fershi	أصابع
Yafadi	يسقط
Namanshi	ينسى
Fista	وجه
Abokee	صديق
Keevi	سمك
Kaza	دجاجه
Daya	١
Bioo	٢
Okoo	٣
Foodoo	٤
biat	٥
Shidda	٦
Bokkoi	٧
Tokkos	٨
Tara	٩
Goma	١٠
Gom Shadaya	١١
Daree	١٠٠
Dooboo	١٠٠٠

ومن عشرين حتى مائه
عربيه تماما
(عشرين ، ثلاثين ، الخ)

لم اجد واحدا يعرف أى شيء عن Solan سولان أو Berissa بريســـا أو تركا Tirka أو غانا Gana أو نورو N oro. •

ويقـــال أن أهـل نوفى يســـافرون دائمـا الى البحر العظيم ليتـاجروا مع البيض ويعودون بالاوانى الفخارية والبارود « والبراندى » والاسلحة • وأخبرنى أحدهم انه يوجد واحد أو اثنان يفهمون لغة البيض والملاحظ أن ما بين كانو الى زفزق جاف تماما خلال شهور الشـتاء ويغمره الماء تمـاما فى الصيف وتتجمع كميات كبيرة من المياه مدة اربعين يوما وتبدو كبحيرة كبيرة وأضاف الراوى •• انه لم ير انهارا تفيض هناك لكن الماء الذى كان نائما جـاء من نيل «كاشـنا» !•• وبقى الرجل هنـاك فى زفزق حتى انحسر المـاء وأنجز صفقات طيبة •• وقايض سبع ياردات من القماش الاحمر ، بتسع جوار ، أرانى منهن ثلاثا ، وكن يافعات مفرطات فى الجمـال وجيء بهن من « ياجوبا » Yagooba. •

الفصل الرابع

التجـــــــــارة

سأحاول ان استعرض خلال الصفحات القادمة أهم بنود التجارة فى فزان :

× ا لخــرز : وفيما يلى أصناف الخرز الرائجة هذه الايام :

× مجـــــدرة البيضـــــــأ : **Mjeddrah el Baida** (الجــدرى الابيض) وهى من الصينى الابيض المنقط •

× أروانـــــــــــــدد : **Arwanded** وهو شفاف بيضاوى الشكل ذو لون أزرق غامق •

× كـــونتم بـــــــــــالى : **Koontombli** بيضاوى الشكل احمر اللون ، عليه خطوط وأشــكال •

× الخـــــــرز العـــــــادى : **Khorz el Adi** خرز صــغير من الزجاج المعتم بجميع الالوان •

× منجـــــــــــــورة : **Manjura** خرز مثمن الشــكل وكبير الحجم من ألوانه الاحمر والابيض والاخضر ويفضل أللون الابيض هذه الايام ، ويمكن أن تشترى دجاجة مقابل خرزة واحدة من هــذا النوع •

× حبـــة جــديــــــدة : **Khabba Jedeeda** خرز بيضــاوى اسود به حلقات بيضاء وزرقاء فاتحة •

× قطـــــــــــــف : **Guttuf** وهو أصغر احجام الخرز من جميـــع الالوان •

× عصابات للجبين وقلادات جاهزة •

ولقد استعرضت أنواع الخرز بالتفصيل لفائدة رحالة المستقبل ، لان أنواع الخرز التى جئنا بها لم تكن مطلوبة على الاطلاق ، فى الوقت الذى يشتد فيه الطلب فى طرابلس على الاصناف سالفة الذكر •

المرجان : مرجان تيـدو Morgain Teddo ويبـاع خرزا سـائبا أو منظوما أو على هيئة قلادات •

الابرة : ويمكن شراء دجاجـة كبـيرة بأربع منهـا •

الحرير : « دمسك » وكل انواع الحرير الصارخة الالوان ، وتباع الاصناف المنقوشة منه بأسعار عالية ، كما يباع الحرير خيوطا أو على هيئة شرائط مختلفة الالوان •

الاقمشة الحمراء : من النسيج الثقيل الخشن ، ويباع بنفس اسعار الكشمير الذى احضرناه معنا ، ويباع صوف « سالزبورى » (الفانلة) باسـعار طيبة

الشيلان الحمراء : ويستخدمونها كعمائم ، وقليل منها له حاشية (كنار) وتباع للصفوة •

الاوعية النحاسية والاباريق المقصدرة (المطلية بالقصدير) من الداخل

ألطست النحاس (الطشت) ويزيد الطلب عليه ان كان مزخرفا •

المرايا : ذات اطارات نحاسية ، او اية اطارات اخرى مزخرفة ، وتباع احجام صغيرة منها فى صناديق نحاسية ويسمونها فى طرابلس لاما Lamma

السيوف : طويلة جدا ، ومستقيمة وذات حافتين ، ويقبل الطوارق على شرائها باسعار مرتفعة •

البنادق والغدارات : ونادرا ما يشترونها لصعوبة نقلها •

مرقـوم : (Morgoom) وهى البسـط الطـويلة المخططة وتصـنع فى طرابلس ومصراتة •

البسط التركية : ويسمونها سجادة وطولها ستة او ثمانية اقدام وعرضها ثلاثة •

القفاطين : من الصوف والقطن المخطط ، او من القماش الاحمر والطلب عليها دائم •

اغطية الرأس : وتصنع فى تونس ، وهى طويلة ولها شرابة « زر »

البرانس : كبيرة وحمراء ، وبعضها موشى بالحرير أو الذهب •

الجياد : ويباع الحصان الطويل باسعار مرتفعة ، وربما دفع فيه ما بين خمس عشرة وعشرين جارية •

الاساور الزجاجية السوداء والزرقاء وتصنع فى فينيسيا •

البارود : السائب والمعبا فى رصاصات ويباع سريعا •

الموسلينى : ويباع للاغنياء ويستخدمونه كعمائم •

وغير ذلك من الاصناف التى تباع رخيصة فى اوربا ، كالمبارد والمطارق والازاميل ، والعطور والصناديق الصغيرة •••• الخ

وتجلب معظم هذه السلع من طرابلس او من مصر وتباع غالية جدا حتى فى «مرزق» • ولسوء الحظ لم يكن معنا أى منها ، فى الوقت الذى لايباع فيه سوى هذه الاصناف فى الدواخل •

ويبادل تجار السودان السلع السالفة الذكر بما يلى :

العبيد ، وهى سلعة رئيسية ، ويزداد الطلب على الاناث ، فالرجل لا يساوى كثيرا ويباع بثلث أو بنصف ثمن الجارية •

زبد (الزباد) (١) : ويستخرج من القطط التى يربونها فى اقفاص وفى مواعيد محددة ، تستثار القطط لتفرز هذا الطيب من بعض مواضع خلف الذيل ، ويباع بأسعار خيالية •

زينة : Zeneh «تنورة» من القطن المقلم ، وتلبسها كل النسوة تقريبا ، ولها اشكال متعددة ، وبعضها غاية فى الاناقة •

ألاقمشة القطنية ، الزرقاء منها يسمونها تارقدى Tarkedi أو الاقمشة القطنية المقلمة بالازرق والابيض أو الاحمر والازرق ، وتنسج كل هذه الاقمشة فى قطع عرضها ثلاث أو أربع بوصات وتخاط بعناية مع بعضها البعض ، وهى متينة جدا •

الثوب : أو القمصان كبيرة الحجم ، وتباع فى اشكال وباثمان متباينة

---

(١) طيب ويستخرج من بعض غدد سنور الزباد •

ويسمى أفضل أنواعه ساميا Samia ويصنع من قماش قطني وحريري أبيض منسوج على هيئة شرائط ، وتعتبر الجارية ثمنا عادلا لقميص كهذا. أما الاصناف الاخرى فتباع بسعر يتراوح بين سبعة وثمانية دولارات ، كما تباع الاثواب البيضاء أيضا لكنها اقل سعرا من الزرقاء .

وفيما يلى أسـماء بعض الاصـناف المشـهورة .

ماساقوارى Massaguari شاريا Sharia شاتا Shata
شينى Shinni فريزى Freezy

العباءات : والعباءة عبارة عن غطاء قطنى كبير ، مقلمة فى الغالب وجميلـة وتسمى « ملحفة زابرما » Melhaffi Zaberma الذهب : ويباع ترابا أو حلقات أو قضبانا صـغيرة ، ويحضره التاجر سرا خوفا من السـلطان والمعـروض منـه قليـل اذا قيس بمـا كان يبـاع أيام السلـطان السـابق ، ويساوى « المثقال » دولارا ونصف ، ويزن المثقال الواحد سبع أوقية .

الجلود : جلود الخراف والماعز المدبوغة والمصبوغة جيدا ، والوانها : الاحمر والاصفر والاسود . وتصقل الجلود بنفس الطريقة التى تصقل بها فى المغرب . كما يحضر التجار بعض المصنوعات الجلدية ، كالوسائد، ومن الوانها فى العادة الاحمر والاصفر وعليها رسومات بالصبغ الازرق أو الاسود وشرابات تتدلى من نهايتها .

المداس : وهى صنادل مزخرفة يلبسها الرجال والنساء .

كلابو Kelabo وتصنع من جلود الثيران ، وتباع الواحدة منها فى فزان بخمسة أو ستة دولارات .

قرب الماء : وتساوى الواحدة ثلاثة دولارات .

القـاف : El Khaaf ويستخدمها الطوارق كغطاء رأس .

جلود النعام : غير منزوعة الريش .

العسـل : أصفر وأبيض ، أصناف جيدة .

الجور أو الكولا أو Gooroo Nuts ويؤتى بها طازجة مغلفة بورقة شـجر يجعلها تحتفظ بندواتها لايام عـدة ، واذا غمسـت فى الماء بين الحين والاخر ، فربما ظلت طازجة لعدة شهور ومذاقها مر مقبول ويكتسب الماء بعد مضغهـا

طعما حلوا يشبه نكهة الخرشوف • وتباع الجوزات الاربع فى مرزق بدولار • وجوزة الكولا فى حجم ثمرة الجوز ، وتبدو فى شكل حبة اللوبيا الكبيرة • ويقال انه حينما ندر الجوز فى السودان ، ارتفع سعره ، ودفع المشترون عبدا مقابل كل ثمرة • وتزرع الكولا فى داجومبا Dagomba وأشانتى Ashantee وفى بعض البلدان الاخرى التى تقع غربى تمبكتو • وحينما تكون ثمرة الكولا جافة تفقد كثيرا من مرارتها وتشبه القسطل وتباع رخيصة حينئذ وتسمى كودا Kowda وتقدم هذه الثمار تحية للضيوف فى السواحل « البربرية » ويسميها كثير من الناس قهوة الزنوج Negro's Coffee

الفلفل الاحمر : ويوجد منه نوعان ، والاسود ويوجد منه ثلاثة أو أربعة أنواع •

ثمرة الفلفل : Tammerat el Filfil وتشبه ثمرة الجوز وتحوى حبوبا صغيرة عديدة ، لها مذاق لاذع حاد كطعم الفلفل الاحمر •

زوجو : Zoogoo نوع من نسيج قطنى متين وثمين •

أسنان الفيل : لا يؤتى بها كثيرا •

الحقائب الجلدية : تصنع من جلد الجاموس ، كبيرة الحجم •

القرب الجلدية : وتستخدم لحفظ الزيت والزبد والشحوم •

الاوعية : وتسمى كافلا Kaffala وتصنع من القرع وبعضها من الخشب وهى عادة مزخرفة •

الهاون : ويسمى كارو Karro ويصنع من الاخشاب الصلبة ويستخدم فى طحن الغلال •

هذا بالاضافة الى الجلود والحلى العاجية والسلاسل ، والببغاوات وتحملها الجوارى فى الطريق ، وتعلمها الكلام • ويقال ان الببغاء لايوجد شرقى نوفى كما يحضر التجار كعكا حلوا يسمونه Aaoude el Kagh (١) ويصنع من الطيب والعسل ، هذا الى جانب اعداد قليلة من الخراف والماعز يقدمها التجار هدية للسلطان ويحمل تجار فزان السلع التالية الى مصر •

(١) ربما كانت بالعربية عوة الكحة ، أو عود الكحة ولقد أورد المؤلف ترجمة بالانجليزية وتعنى ـ خشب الكحة (المعرب)

العبيد : وبخاصة الجوارى • الذهب : ويشترونه من الدواخل • الفلفل الأحمر : وينتجونه محليا • القطرون (الاطرون) او الصودا : ويوجد فى وادى الشاطىء ، ويمضغ مع الطباق • ريش النعام ، وجلود الاسود، والنمـور •

ألخراف : وتسمى « مازجرى » ولهـا ذيول طويلـة ويبـاع الراس منها فى مصر بثلاثين دولارا •

الببغـاء : ويشترونه من السـودان •

البلـح : وينتج فى سـيوه ، وتقـع فى منتصف الطريق الى الاسكندرية •

هذا بالاضافة الى المنسوجات السودانية الزرقاء ، والجلود ويبادل التجار المصريون وهم عادة من سكان «العقيلة» وهى مدينة فى منتصف الطريـق يبادلون السلع السالفة الذكر بالسلع الاتية •

العمائم الحريرية ، والموسلينى ، ويلبسها الصفوة والاغنياء • الحرير : خيط وخام ومنسوج • الذهب : خيوط ورقائق • نسيج مخطط من القطن والحرير ، ويلبسه تجار الدواخل • الشيلان الكشمير : ويشتريها تجار الغرب • اقمشة حريرية مخططة : أو قمصان جاهزة ، وتلبسها النسوة • القمصان القطنية : ملونة ومخططة ويلبسها النساء • المناديل الحريرية : تستخدمها النساء • الاوعية النحاسـية : مطلية من الداخل والخـارج • أطباق وأكواب وأوعية • وزجاج المصابيح ، ومصابيح نحاسية وقصديرية السجاجيد القطنية : ملونة ومخططة • الجلود الزرقا : وتسمى زنجـار

الجلود المذهبة : وتسمى سمانتو Smanto وتقطعه النسوة الى شرائط ويجدلنه مع خصلات من الشعر • الاقمشة الصوفية : خشنة وذات الوان صارخة • الخرز : من انواع والوان عدة • العقيق الازرق والاحمر : على شكل قلوب • الحلى الزجاجية : من الوان متعددة • والاساور النحاسية والاقراط ، والغـدارات ، والسـيوف والبـارود ، والخنـاجر والخيـام ، والصابون ، والمسـك ، والسـكر ، والعطـور ، وماء الورد ، والكافور ، والصبر (يضمخون به الموتى) ، والحلى الفضية ، والجيـاد ، والزجاجات والصـناديق ، والطبـاق ، والخرز المنظوم ، والمصـنوعات القصديرية ،

واغطيــة الراس الحمراء واللبــان ، والجوارى من الحبشــة ، والتوابل والقفاطين الجاهزة •

ومن بورنو يحمل تجار التبو السلع الاتية :

العبيد والاوعية الخشبية Kaffala «كافالا» والقمصان والماعز والخراف والعسل • اما جلود الاسود فكانوا ياتون بها من قبــل • ولكن لا يمكن الحصول عليها الان لان سلطان بورنو يشتريها كلها لتنام عليها جواريه ، حتى لا يلدن ، فلديه عائلة كبيرة ، ويعتقد ان من تنام على جلد اســـد لا تحمل مطلقــا •

ويحضر الطوارق من طوات ما يأتى •

الذهب : ويحضرونه من تمبكتو على هيئة عروق أو تراب • الاباريق النحاسية المقصدرة والاوعية ، الخ ••• العباءات الصوفية ، والجيـــاد والحقائب الجلدية ، والمصاحف الانيقة المكتوبة ـ بماء الذهب ، والكحـــل والكعك المحلى المسمى بـ Aaoud el Kagh والعطور (من مسحقوق القرنفل واللافندر والشجيرات الاخرى) وتستخدمها نساء فزان ويضعنها على شعورهن ولها رائحة غير مقبولة •

هذا بالاضافة الى السلع الاخرى الصغيرة القيمة ويحضرونها بكميــات كبيرة •

فى السودان يركب الاهالى جمال المهارى(١) •

وفى منتصف الطريق ما بين «نوفى» وأشانتى يقع اقليم واسع يسمى كونجا Conja ويقــال أن سـكانه يسـتطيعون استئناس الفيلة التى توجد بكثرة • ويعبر التجار اقليم كونجا هذا وهم فى طريقهم الى ساحل الذهب •

أما عن جبال كونج Kong فيقــال انها موجودة فعــلا وتقــع بالقرب من داجومبا Dagomba غير انى لا استطيع أن اقطع برأى • هل تحمل نفس الاسم أم أن لها اسما آخر • وخلف داجومبا يمتد اقليم واطىء يغطيـــه

(١) سيلحظ القارىء عدم ترابط السطور القليلة التاليــة •• وهى هــكذا فى النص الاصلى ، ولم استطاع حيالها شيئا ،فهى تعالج مواضيع متباينة ومتعددة •• أرجو المعذرة ••• (المعرب) •

الماء فى مواسم معينة • ويطلق على الاهالى غير المسلمين فى السودان وبرنو وربما كل بلدان الدواخل لفظة كردى Kerdi وهى تعنى كافر ، والاسم فى حد ذاته يعتبر سبابا •

ولا تحتفظ نساء الدواخل بالرحى لطحن الغلال ، ويطحنها فى هاونات خشبية كبيرة • والطلب دائم على الملح ويجمع الطوارق مالا كثيرا من بيعه • ويستخرجونه من بحيرات الملح الموجودة فى اجرام Agram (دومبو Doomboo كما تبدو على الخريطة) وتقع فى الصحراء بيلما Bilma وسأتكلم عنها فى فصول اخرى •

وتشتهر نساء السودان بحلاوة أصواتهن وأغانيهن العذبة ، ويعزفن على الرباب والطبول والقراب ، وآلة أخرى تصنع من القرع الطويل وتسمى «زانتو» Zantoo •

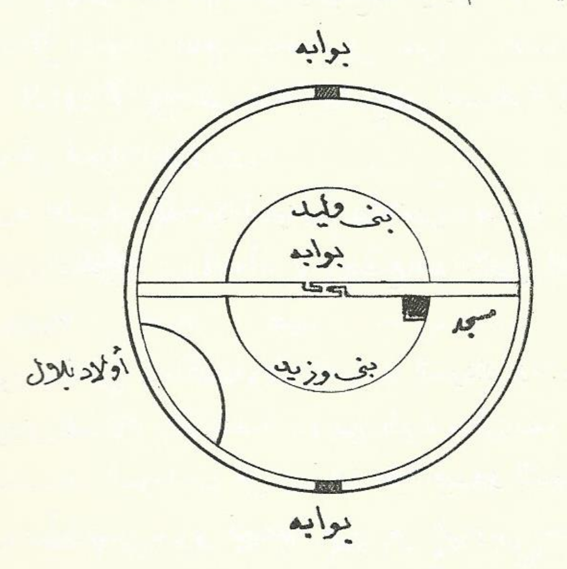
أما نساء بورنو فلسن فى كفاءة ولا اناقة نساء السودان وملابس نساء السودان وبورنو متميزة وجميلة ، ولهن طريقة فريدة فى تصفيف شعورهن ، فتشده السودانيات على وسادة عالية فيبدو الشعر كما لو كان خوذة جندى ، أما نساء بورنو فيصففنه قريبا من الرءوس احيانا ، وأخرى يتركنه ينسدل الى اسفل • وتلبس نساء بورنو قمصانا قطنية أو حريرية مخططة ،ورداء واسعا يسمى « زينه» Zeneh ، وتلمع الاساور والاقراط الفضية على بشرتهن السمراء ، أما فى بلادهن فلا يلبسن قمصانا ، وانما رداء فضفاضا (ملموما) عند الصدر •

غدامس

لقد تكلمت أكثر من مرة عن هذه المدينة التى تقع فى منطقة صحراوية على بعد خمسة عشر يوما جنوبى غرب طرابلس • ويعزى وجودها الى انها نقطة تجمع تجار تمبكتو وطوات ، يتجمعون بها قبل أن يبدأوا رحلتهم الطويلة • ولقد كانت المنطقة تتمتع بالاستقلال منذ سنوات خلت ، وذلك قبل أن يستولى عليها نجل سلطان طرابلس ، ومنذ ذلك الحين بقيت (غدامس) خاضعة لسلطانه وضمن ممتكاته • ولاهل غدامس علاقات تجارية دائمة مع

(تمبكتو) ، ولا يوجد سوى قليل من التجار ممن لا يعرفون لغة تمبكتو أو الطوارق •

وتعيش فى (غدامس) قبيلتان متباعدتان ، ولا توجد أية علاقة بين رجال كل منهما • ولقد تعرفت على واحد ممن سافروا الى (غدامس) وعرفت منه المعلومات التالية ورسم لى على الرمال الشكل الآتى :



وهناك ـ كما يتضح من الرسم ـ سور دائرى ينصفه جدار ويفصل ما بين المدينتين ، وتوجد بوابة فى منتصف الجدار تغلق فى اوقات الاضطرابات وكان سكان المدينتين دائما على حرب ، وكثيرا ما حدثت بينهما صدامات دموية وخارج المدينتين تنتشر الحدائق وبساتين النخيل • وشوارع المدينتين مغطاه وبالتالى مظلمة ، بحيث لايستطيع المرء عندما تغرب الشمس ان يهتدى الى طريقة دون مصباح ، ومنازل المدينتين جيدة ومشيدة من الطين وذات طابق واحد • والسكان جميعا من «العرب» ونادرا مايرى سكان مدينة اهل المدينة الاخرى ، وهم غرباء بعضهم عن بعض تماما ، كما لو كانوا يسكنون على بعد اميال • وهم لا يتزاوجون ولا يتعاملون فيما بينهم ، واذا زار أحدهم المدينة الاخرى فنادرا ما يسلم من السباب ويوجد فى بنى وزيد Benewazeed نبع ماء يكفى سكان المدينتين وحدائقهم ، وينبثق عن النبع خمس قنوات تاخذ من الماء بالتساوى ، وتوزع على المنازل والحدائق كل حسب حاجته ، وحينما

تأخذ احدى القنوات نصيبها من الماء تغلق لتصيب الاخرى القدر المســـموح لها منه . ويعين بعض الرجال من كلتا المدينتين للاشراف على توزيع الماء . ويقال ان ماء النبع دافيء وجيد ، ويجرى فى قناة متصلة باحـد المساجد ، وتمر من خلاله . وبالمسـجد حجرات اعدت لمن يريد الاسـتحمام ، أو الاغتســال . وبه مئذنة عالية ، ترى من على بعد رحلة يوم كامل . ولـكل مدينة شيخ ، ويرجع الاثنان الى قاض يعينه الباشا ، ولا يوجد فى المدينتين اية صناعة ، ولكنهما تحصلان على فيض من السلع ، يحمله التجار اليهما . ويصاد النعام بكثرة فى ضواحى المدينة ، ويشكل ريشه احدى السلع الهامة التى تصـدر الى طرابلس ويسـكن فى الطريق الجنوبى من المدينـة قبيلة « أولاد بلال » والرحلة من غدامس حتى « ادرى » (وتقع فى وادى شرقى فزان) ثمانية ايام ، وتبـلغ المسـيرة من غدامس حتى غات عشرين يوما .

حينما حل شهر سبتمبر ، انشغل الاهالى فى جمع البلح الطازج الوفير والذى يشـكل موردا غذائيا رئيسـيا . وهنـاك محصولان للبلح ، احدهمـا « البلح الطازج » ، والآخر محصول البلح الذى يجمـع فى نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر ، وحين يجف يصبح أكثر حلاوة من سـابقه

ووردت لنا معلومات من طرابلس مؤداها ان الباشا يعتزم ايفاد سلطان آخر يحل محل المكنى ، طمعا فى الحصول على خراج أكبر ، وايدت هذه المعلومات بعض الخطابات التى وصلت فزان ، وانزعج المكنى كثيرا واصابه المرض فلزم فراشه . وبدا يصلى بانتظام لاول مرة على غير عادته . وكف عن السباب وتردد على لسانه حديث الجنة والحياة الاخرى.وفى هذه الاثناء كان المرض قد بدا يعاود السيد «ريتشى» ، ورغم ذلك لم يكف عن زيارة المكنى وافلح فى أن يبرئه من علته . وهكذا رد بفعل الخير المعاملة السـيئة التى تلقيناها منه .. ولقد رافقت السيد «ريتشى» فى العديد من زياراته الى القلعة ، وسمعنا هناك أن الباشا بلغـه حماقات المكنى ، وبات من المتوقع أن يرسل الباشا رسله ليشنقوه ويستولون على أملاكه . ولم أر فى حياتى طاغية مستبدا تحطمه المخاوف مثلما رايت المكنى ، الذى آثر العزلة فى حجرة مظلمة ، لا يتردد عليه سـوى زائر أو اثنين وتقوم على خدمتـه جاريتان ، ولا يسمع حديثه الا همسـا .

كان هذا هو الحال حينما قرر (المكنى) أن يرسل الرجل الاول فى بلاطه ويدعى « أبو بكر بوخالوم » (Aboo Bekr boo Khallo um)؛ مضى الرسول برفقة عشر جوارى كترضية للباشا وما قيمته مائة دولار من العطور مع ثلاث جوار هدية خاصة «للبك» الوريث الشرعى ، وأثنتان لشقيقه وثلاث اخر للوزراء ، وانتهزت هذه الفرصة وكتبت رسالة الى القنصل ليبعث الى ببعض المال ، ولقد أوضح السيد «ريتشى» فى الرسالة سوء الحال الذى بلغناه • وبمجرد أن رحل الرسول تلقينا هدية من الخراف والسكر (المصرى) ، من المكنى الذى بدا اهدأ بالا ، ومع هذا فقد كان يعد العدة سرا للفرار • وأمر أن تظل بعض الخيول على أهبة الاستعداد كما امر بطحن كمية من الغلال تكفى رحلة طويلة • وكنا نعلم أنه لن يفر هكذا دون اراقة دماء ، فقد كان لابد أن ينتقم من المماليك ، وأن يستولى على أموالهم وممتلكاتهم ، فهم كما يعتقد ـ الذين أفشوا أسراره ، ووشوا به الى الباشا ، ولن تسلم ممتلكاتهم أيضا من نواياه • وكان صديقانا يوسف والحاج العجوز يتسللان الى منزلنا ليلا ، يحملان لنا الانباء أولا باول ، فنعقد على اثرها « مجلسا للتفكير فى سلامتنا • وعلمنا أن عشرة على الاقل من المماليك سيهرعون الى منزلنا اذا حلت الاضرابات ، ولما كانت اسلحتنا أفضل بكثير من اسلحة السلطان فاننا نستطيع أن نعتمد عليها طويلا اذا هوجمنا •

ولقد كانت نوايا المكنى الغادرة واضحة كل الوضوح فان بالنا لم يهدا على الرغم من انه كان عندما يأتى لزيارتنا يظهر لنا صداقته الكاذبة ، وكانت احدى تسلياتنا أن نصوب غداراتنا الى هدف وضعناه فى نهاية الغرفة • وكان المكنى يغرم كثيرا بمثل هذا الضرب من التسلية ، وبدأ عليه أنه استطاع اجادة التصويب بسلاحنا ، الا اننا كنا دائما نتفوق عليه وعلى اتباعه ، ولا شك أنه كان لهذه النقطة أهميتها فى اقناعه بمهارتنا ، وربما تردد كثيرا قبل أن يفكر فى الهجوم علينا • وكان لدى بعض المسدسات الصغيرة أغرم بها المكنى كثيرا ، ولمح مراراً الى رغبته فى شرائها ولكنا كنا نتظاهر بعدم الفهم • ووافق ريتشى على مبدأ الاحتفاظ باسلحتنا معمرة وعلى أهبة الاستعداد وكثيرا ما ترددنا على فنائنا للتدريب على التصويب واطلاق النار •

وأخبرنا احد خصيان المكنى ـ وكان قد حضر الينا يطلب دواء للانجاب لاحدى سيدات القفعة ـ أخبرنا أن سيده ، يعد العدة لهرب مفاجيء ، وأن أحداثا مروعة ستحدث بكل تأكيد قبل أن يغادر مرزق . ولم نكن نستطيع أن نتجاهل هذا التحذير ، وطفقنا نسهر الليالى ومسدساتنا تحت رءوسنا وبقية سلاحنا على أهبة الاستعداد .

وقضينا عدة ايام ونحن على هذه الحال ، السيد «ريتشى» ينام فى احد أركان الحجرة ، وانا احتل الركن المواجه ، بينما ينام بلفورد فى غرفة مجاورة . وذات مساء صحوت على صياح السيد «ريتشى» يصرخ بالعربية .. من أنت ؟ .. ياليون .. يوجد رجل على سطح المنزل .. ونهضنا جميعا ، ولما كنت أكثر الرفاق صحة فقد اندفعت الى السطح ، بينما هرول السيد «ريتشى» الى صحن الدار ليقطع الطريق على المتسلل . ورغم أننى قفزت على عدة أسطح مجاورة ، لم اجد احدا .. وكان صديقنا المملوك العجوز ينام على سطح منزله وبدقيته فى يده ، ونهض الرجل بينما أخذ الجميع يصيحون على الجيران يطلبون مساعدتهم فى البحث عن الغريب الذى حاول التسلل الى منزلنا .. وفى لحظة واحدة صحا كل الاصدقاء .. كل يبحث عن الغريب ، وأخفقت كل المحاولات فى العثور عليه ! .

وقال السيد «ريتشى» أنه كان نائما فى سريره ، حينما سمع صوتا اعلى السطح ، وحين نظر الى اعلى ، شاهد رجلا منحنيا فوق كوة منور المنزل وكانما يتفحص غرفتنا ، وبعد أن تأكد من المكان الذى ينام به «ريتشى» ، ركع على ركبته وتدلى برأسه من فتحةالمنور ليتبين المكان الذىأنام به،وتحرك السيد «ريتشى» بخفة ليتناول مسدسه ، واذا بالغريب يختفى بينما أطلق «ريتشى» لصوته العنان مناديا على ، واشار «ريتشى» بأنه رأى جسم الغريب حتى وسطه وقال أنه كان عاريا ويلبس عمامة بيضاء على رأسه ..

ولما كان سطح المنزل مغطى بالرمال ، فقد كان من السهل علينا أن نقتص أثر أقدام الغريب ، وحاولت تتبع آثار أقدام زائر الليل ، ووجدت أثرا لقدم كبيرة فى نفس الموضع الذى حدده ، «ريتشى» ، ولم يكن شكل القدمالغريبة يشبه قدم واحد فينا ، كانت كبيرة مفلطحة تماما كاقدام معظم الزنوج ، ولم

يكن من الصعب بعد كل هذا أن نتبين أن الغريب قد جاءنا ينوى شرا . وفى الصباح التالى ذهبنا الى المكنى وأخبرناه بما حدث ، وضحك المكنى كثيرا وقال .. لابد أن السيد «ريتشى» كان يهذى .. اما صديقنا الحاج محمود فقد كان مقتنعا بان ما حدث كان من فعل ابليس الذى يسكن منزلنا منذ أن قتل أحد الرجال بداخله ، غير أن مسالة اثر القدم حيرته تماما ، وأقترح أن يحضر مرابطا ليتشمم الاثر ويصلى ليعرف صاحبه ، واتفق معنا كثير من الناس الاكثر تعقلا على أن الغريب كان جاسوسا . وكانوا يقولون هذا فيما بينهم ، اما على الملأ فقد تظاهروا بالاقناع بأن الامر لا يعدو أن كابوسا اصاب السيد «ريتشى» ، تماما كما فسره المكنى !! .

وربما كانت الاستعدادات التى اتخذناها الى جانب حيطتنا وتسلحنا لمجابهة مثل هذه المفاجا ت سببا فى تأميننا من أية زايارات أخرى من هذا القبيل حيث لم نكف عن التحذير باننا سنضرب أى غريب بالرصاص . لم نستطيع أن نفهم أبدا سر هذه الزيارة، ولكنا لا نشك فى أن للمكنى يدا وراء هذا الحادث .. ولم يمض وقت حتى عاود المرض المكنى .. وبدا يتودد الينا مرة اخرى .

وبعد رحيل «بوخالوم» نزل بعض مشايخ العرب ضيوفا على القلعة ، وشوهد المكنى مرارا يسير بصحبة شيخ «البارودة» ، وكان الشيخ مشهورا بأنه يعرف كل مسالك الصحراء ، أكثر من أى واحد آخر فى فزان . وكانت قبيلة «البارودة» ، آنذاك تسكن بالقرب من مصر ، وتوقع الكثيرون أن الشيخ سيساعد المكنى على الفرار .. ولقد كانت كل الطرق تحمل نفس الخطر بالنسبة للمكنى ، فقد كان مكروها من الجميع .

ولندع المكنى فى قلعته ، ولنتحدث قليلا عن أهل مرزق ..

اعتاد أن يذهب أصحنا وأقلنا مرضا الى بساتين النخيل ليصطاد لنا الحمام الذى كان يوجد بوفرة قبل أن يهاجر ناحية الجنوب . ولقد مكنتنا هذه الرحلات من أن نقف على أسلوب الاهالى فى زراعة الحبوب . وتوجد الآبار على عمق ما بين عشرين وثلاثين قدما ، والبئر أشبه ما تكون ببركة واسعة عميقة ، وهم يرفعون الماء بواسطة ساقية من جذوع النخيل توضع مائلة على

فوهة البئر • ويدور بغل أو اثنان ـ حسب الساقية ـ وخلفهما الرجال يحثونهما على السير بالضرب على مؤخرتهما ـ بقسوة ، وتترك العصا اثرها واضحا على جسد الدواب • وينساب الماء عبر قنوات صغيرة حفرت على جوانب الحديقة ، وتقوم النسوة والاطفال بتوزيع المياه حسب الحاجة • وحينما يراد رى المكان تفتح الجسور ليغرق النخيل تماما • ولا شك أن لهذا العمل أهمية ، فالامطار لا تعرف طريقها للاراضى العطشى ، والندى يكاد يكون نادرا • ويسكن الفلاحون الذين يتعهدون الحدائق فى اكواخ يبلغ ارتفاعها ستة أقدام من جذوع النخيل • وحين يجف البلح يدفن فى فجوات تحفر فى الرمال وتغطى بها • اما محصول القمح والذرة فيجمع فى حزم صغيرة ، ويترك ليجف الى وقت الحاجة ، حينئذ ينهالون عليه بالعصى ، وتترك الدواب لتسير عليه فى مكان نظيف تماما • الا أن بعض الرمال ـ رغم كل احتياط ـ تجد طريقها الى المحصول • وتصنع أشجار الرمان والتين مظلة مناسبة بالقرب من الآبار ، وهم لهذا يتعمدون زراعتها بالقرب من العيون •

وبالقرب من منزلنا يقع المسجد الرئيسى الذى يذهب اليه السلطان كل يوم جمعة ، كما نذهب نحن حيث يتعين علينا أن نظهر بالمسجد مرة أو مرتين يوما بعد يوم • وتنتصب بالمسجد مئذنة مستديرة يصعد اليها المؤذن ليرفع الآذان ، وامام المسجد تصطف المقاعد (المصاطب) توفر مكانا مريحا للمتسكعين كل صباح ، يجلسون اليها ، يتجاذبون اطراف الحديث ، يتكلمون عن السوق ، وربما استهدف حديثهم الخافت سلوك السلطان •

ويرتدى أغنياء مرزق نفس لباس أهل طرابلس تقريبا • أما العامة فهم يلبسون قميصا كبيرا من القطن الابيض أو الازرق له أكمام طويلة ، وسراويل قطنية وصنادل « من جلد الابل » • ولما كانت القمصان طويلة ، فانها تلبس وحدها فى كثير من الأحيان • وحينما يغادرون منازلهم فى طريقهم الى الأسواق أو الحقول ، يلبسون العباءة (الجرد) ، ويضعون على رءوسهم غطاء أحمر أو أبيض ، وربما أضافوا عمامة فى ايام الجمع ، وينتعلون خفا أصفر • ويحرص الرجال على أطلاق لحى صغيرة يمشطونها بعناية • وفى الحقول تلبس النسوة قبعات من الخوص تحمى عيونهن من وهج الشمس ،

وربما لبسن نعالا من الياف النخيل.اما الاطفال الصغار فهم يخرجون عرايا كما ولدتهم امهاتهم ، اما العبيد فيرتدون قمصانا ويسير أغلبهم عراة الرءوس يتسكعون طوال النهار تلسعهم حرارة الشمس ، ويتهافت على اجسادهم ووجوهم الذباب . اما لباس النساء فيختلف فى نوعه عن لباس النساء «المغربيات» ويبدو مظهرهن غير مقبول ، تسبقهن رائحة كريهة . ويجدلن شعورهن فى ضفائر يرحنها على جباههن لتبلغ الحواجب .

ويضعون الزيت بكميات كبيرة على شعورهن ، ويتساقط على وجوههن وملابسهن . وتدهن النساء شعورهن «بتحويجه» يصنعنها من نبات يشبه الافندار البرى ، والقرنفل ويضيفن الى ذلك نوعا أو اثنين من مساحيق يسمينها عطرية ، وتبدو «الوصفة» فى النهاية عجينة بنية قذرة .. يغرقن بها شعورهن ، ولا يمر يوم أو اثنان حتى يصبح منظرهن مقززا . اما مؤخرة الشعر فهى أقل قرفا ،ويجدلنه فى ضفيرتين طويلتين ترتاح كل واحدة على كتف ، وتعلق بها حلى فضية أو من أحجار المرجان .

وفى أغلب الاحوال تجدل النساء شعورهن بخيوط صوفية سوداء حتى يبدو الشعر أكثر طولا ، وفى منتصف الجبهة توضع حلية من المرجان تتدلى لمسافة بوصة أو اثنتين . وفى مؤخرة الرأس يلبسن منديلا ينسدل على ظهورهن ، ويثبت بواسطة شريط جلدى يمر تحت الذقن . وتثقب النساء شحمة الأذن بقدر ما يملكن من أقراط . ولعلك ترى واحدة تلبس ستة أو سبعة أقراط ، ويتوسط المجموعة قرط كبير يبلغ محيطه خمس بوصات ، ويتدلى الى أسفل حتى ليلمس الكتف . وتدور حول رقابهن صفوف عريضة من الخرز ، صفت فى نماذج مختلفة ، وربما وضعن قلادات من المرجان.وفى بعض الاحيان تضاف الى ذلك رقيقة عريضة من الذهب تتوسط الصدر .

وتلبس النساء ، فى العادة ، قميصا أزرق مطرزا عند الصدر والرقبة ، كما يلبسن قمصانا بيضاء من الحرير المخطط يسمونها « شامى » Shami يستوردنها من مصر ، ويكتمل الزى بالرداء او الجرد ، كما يسمى ، والأحذية الحمراء ، وتفضل النساء الالوان الداكنة .

اما نساء الطبقة الراقية فيلبسن سراويل تشبه تلك التى تلبسها نساء

مصر • والسروال مطرز بالحرير بالقرب من نهايته ، ويصنع تباينا رائعا مع أجسادهن السمراء ، ويلبسن قلادات على هيئة قلوب من العقيق الاحمر، كما يلبسن مجموعة من الخواتم فى الاصابع الخمس جميعها • ويلتف خيط حريرى حول الجسد ويتدلى من الكتف مثبت به اكياس من القماش أو الجلد تحوى أحجبة وتمائم • كما يلبسن أساور فضية من الزجاج أو القرون أو العاج حسب قدرتهن على الشراء • وحول الكاحل يلتف «خلخال» من الفضة أو النحاس أو الحديد • ولقد شاهدت زوجا من « الخلخال » يزن ١٢٨ أوقية ، وفى تقديرى أن حلية كهذه لابد وأن تصيب القدم بالورم وتصيب الكاحل• اما نساء العامة فهن لايلبسن سوى الجرد والنعل الخفيف • ويشترك النساء والرجال فى عادة فريدة وهى وضع عيدان البرسيم وقطع البصل فى فتحات انوفهم ،مما يكسبهم مظهرا منفرا •

والرجال أكثر نظافة من النساء غيرانهم جميعا ، سادة ، وخدما ، يعجون بالقمل وهم لايخفون حقيقة كهذه وكثيرا ما راقبت السلطان يبلل ابهامه حين يتصيد قملة لا يسهل عليها الفرار قبل أن (يفعصها) بين أظافره ، وملامح الوقار تغطى وجهه •

وحين يسترخى الرجال على البسط ربما بعثوا فى طلب عبد يبحث لهم بين طيات ملابسهم عن القمل • وحين تعرض أمة للبيع يقال عنها تجيد التدليك والبحث عن القمل •

وحوالى العشرين من سبتمبر ، عاود السيد «ريتشى» المرض ، ولزم فراشه ، وعلى الرغم من أن بلفورد كان قد برىء من مرضه تقريبا ، فان الصم قد اصابه تماما • واستلزم الامر استئجار امرأة تعد لنا الطعام مقابل دولار واحد فى الشهر ، وكانت تحضر الينا مرة كل يوم تعد لنا الخبز أو تصنع الكسكى • ورغم المصاعب التى المت بنا فقد جاهدت لرفع معنوياتى • وفى الامسيات كان «ريتشى» يخلد للنوم ، اما انا فكنت أخرج مع (محمد) الى الحفلات وكنت أشارك الاهالى الرقص وشرب اللاقبى والبوزة (وهى خمر يشبه فى طعمه البيرة الرديئة الغليظة القوام وتصنع من البلح ودقيق القصب والماء وتترك طيلة الليل ، وحينما تتخمر تصبح جاهزة للشرب) وتفضل غليظة القوام التى تسكر على الفور •

وكنت مضطرا الى أن أخفى زياراتى هذه ، فلو عرف الناس أنى اشرب خمرا ، فسينظرون الينا على اننا كفرة • وكانت جلساتنا دائما تضم عامة الناس ، على الرغم من أنى رأيت ـ ذات مرة ـ القاضى العجوز نفسه يسمع مغنية تلعب على الربابة • وكنتيجة لهذه الزيارات وجدتنى أكثر تعرفا على لغة الاهالى وعاداتهم ، ولقد كان ذلك امرا له وزنه عند متابعة رحلتى الى الجنوب • ومن خلال هذه اللقاءات ـ أيضا ـ أستطعت أن أتعرف على الكثيرين ممن قدموا لنا مساعدات لا تنسى • وفى هذه الجلسات كان رفيقى محمد ـ شأنه شأن الآخرين ـ يستهويه الشرب والرقص ، وسرعان ما يفقد وعيه • وكنت أحرص على أن اظل واعيا ارقب الآخرين وأدون ملاحظاتى بل لعلنى كنت أكثرهم قدرة على ألاستمتاع بغناء المطربات وعازفات الرباب ، رغم بدائية الالحان • وكانت اغلب الاغانى باللغة السودانية ، وكنت أطرب لسماعها كثيرا فكلماتها ذات وقع موسيقى حلو •

وذات مساء غنت لنا مطربة اغنية حلوة ، قالت عنها انها كانت تعجب شقيق السلطان الاسبق « سيدى المنتصر » ومن خلال كلمات كثيرة منها أكتشفت انها نفس الاغنية التى ذكرها هورنمان ، والجدير بالذكر أن المطربة التى غنت له ، بل وتذكرت هورنمان ، فقد امضى بالقلعة وقتا طويلا (١) • ولقد كانت بعض الاغانى التى نسمعها تضم صورا شعرية جميلة ، وعلى سبيل المثال •• العاشق يصف محبوبته كانها شجرة نخيل حديثة النضج ، سمرتها فى لون جناح الغراب الاسود ، واسنانها كاللؤلؤ وعيونها كالشمس ، ورائحتها كانفاس الزهور، وكلماتها كالمسك ، وصوتها كنغم الرباب وقبلاتها عسل أو سكر مصرى • ولقد كانت الاغنيات العربية جميلة أيضا وتسير على غرار الأغنية السودانية•• وحاول احدهم أن يعلمنى أغنية ، وأنشدها ـ كما هى العادة ـ بصوت خفيض رتيب ، وبطل الاغنية هو أحد أولاد سليمان ركب حصانه ليرى محبوبته ، وكلمات الاغنية كما يلى : ـ

---

(١) أنظر يوميات الرحالة فريدريك هورنمان تعريب مصطفى جودة ـ منشورات مكتبة الفرجانى طرابلس ـ ليبيا •

ها أنذا،أمتطى جوادى أذناه كالاقلام ، يجرى كالظباء، لايعرف أحدا سوى سيده ، وطاقيتى الجديدة تناسبنى تماما ، وسيفى حاد ، وغدارتى نظيفة ، وجرابى يلمع فى أشعة الشمس ، وكما يرف قلب الحمامة حينما تفقد صغارها •• كذلك يدق قلب حبيبتى حينما ترانى •• لن تسمح للكلب أن ينبح عندما تترك خيمتها بحجة البحث عن حطب ، واذا راها أحد من أقربائها معى ، فلن تتعرض لنقمتهم ، بل سأحملها على فرسى ، وأطير بها ، فجوادى أذناه كالاقلام ، ويجرى كالظباء ، ولا يعرف أحداً سوى سيده ، وطاقيتى الجديدة الحمراء تناسبنى تماما ، وسيفى حاد ، وغدارتى نظيفة وجرابى يلمع فى أشعة الشمس ••

ويرقص الاهالى رقصات عديدة ، ويشتهر المكان بأثنتين أو ثلاثة ، ويلتئم شمل الرفاق فى الغسق ، ويصطف عدد من الفتيان والفتيات جنبا الى جنب يرقصون على قرع الطبول • ويمسك الرجال بصاجات معدنية يقرعونها كما يقرع الكاستراتيت Castanets ويغنى الفريقان فى صوت واحد • أما حركاتهم فهى خطوة الى الامام يخطونها فى صف واحد لحظة معينة يتغير فيها اللحن • ويقفون لحظة على أقدامهم المتقدمة ، ثم يخطون خطوات الى الخلف ويدورون نصف دورة على ناحية ، ونصف دورة أخرى على الناحية الثانية ، وحينئذ يتحرك الصف كله ببطء ويشكلون دائرة تحيط بالعازفين ، ويشترك الجميع ـ الراقصون والعازفين ـ فى الرقصة • وطوال العرض لا تلحظ أية حركات غير لائقة أو مبتذلة ، بل على العكس ربما أعطتك الرقصات انطباعا طيبا ومبتهجا من خلال حركاتهم البطيئة المنتظمة •

وهناك رقصة أخرى ، ترقصها النساء دون رجال ، ويشكلن دائرة ليحطن بقارعى الطبول ، وفى أغلب الأحوال ، ينشدن نشيدا جماعيا ، وتتقدم احداهن وذراعاها مفرودتان وتقترب ثم تبتعد عن العازفين مرتين أو ثلاثة حتى يتبدل اللحن،حينئذ تعود ادراجها سريعا وترتمى ناحية الارض وتتلقفها النسوة قبل أن تسقط الى الامام لتعود واقفة ، وتدور حول نفسها مرة وتعود الى مكانها • وتتقدم فتاة أخرى تعاود الرقصة ذاتها • وربما اثار قرع الطبول كل الراقصات فيطلقن الصيحات والصرخات النشوى • وهم يرقصون أيضا

داخل المنـازل ، الا أن هذه الرقصات ليست مسلية كـتلك الرقصات التى يرقصونها فى الاماكن العـامة ولن أتعرض لهذه الرقصـات فهى بعيدة عن الوقار والحشمة • فلا ترى رجلا أو امرأة يقف أوتقف على قدميها الا ويأتى أو تأتى بحركات غير لائقة • ويرقص العبيـد رقصات تتطلب نشاطا وحيوية هائلين • ويشكل الرجال دائرة كل يمسك بعصا ويدور الجميع نصف دورة ثم دورة كاملة ، ويلوحون بالعصا فى كل اتجاه ، ثم يقفزون الى أعلى قـــدر المستطاع • ورقصة أخرى يرقصها الصبية ، ولا تصاحبهم الطبول فيها ، بل ينشدون فى صـوت واحد ويرددون جملة واحدة •• لا اله الا اللـه •• لا اله الا الله ••

وكثيرا ما كان السلطان يدعو السيد «ريتشى» ليعود واحـدا من أبنائه ، أو واحـدة من خليلاته الزنجيات حـين يلم به ـ أو بها ـ مرض • وكأن «ريتشى» يذهب دائما ، لكنه أصبح الآن مريضا هو الآخر • لهذا فقد استلزم ألامر أن أذهب بنفسى أصف الدواء للمرضى • وأتيحت لى بذلك فرصة رائعة لأن أرى أسرة السلطان •• أراها عن كثب •• فرصة لم تـكن لتتاح لولا مرض «ريتشى» ••ولشد ما صدمت بمظهر بنات السلطان •• فكانت احدى بناته ، ولم تكن قد اتمت عامها الرابع ، والاخرى على أبواب عامها الثانى ، كانتا تلبسان زيا من أروع الازياء المغربيـة على الاطـلاق ، ولا نكاد نرى نسيج الرداء ، فكله مغطى بالحلى الذهبية • فمن الرقاب تتدلى القلادات ، وفى الايدى تصطك الاساور ، وحول الاقدام تلتف الخلاخيل ، وتخلف الاورام ، وتلبس كل منهما قميصا حريرياً يتكون من شرائط من مختلف الالوان ، والقمصان تتدلى على سراويل حريرية ، كما تلبسـان صـديرية مطرزة وطاقية ، واظافرهما واطراف الاصبع وراحة اليد وبطن القـــدم مصبوغة بالحناء •

أما أصغر الابناء فلم يتم بعد عامه الرابع ، وتلوح من عينيه امارات الغباء والبلادة ، ويلبس ملابس غريبة كشقيقتيه ، فضلا عن عدد كبير من التمائم والاحجبة مخباة فى اكياس ذهبية تتدلى من جسده كله • وغطاء رأســه مرصع باللآلىء وعشرات الحلى الذهبية على هيئة يد مفرودة تمنع عنه عين

الحسود • وملابسه مطرزة وتتكون من صديريات ثلاث وقميص حريرى أبيض ـ فالنساء فقط يلبسن الملابس الملونة ـ وسروال فضفاض من الحرير

أما لباس رجال البلاط فهى طرابلسية الطراز ، وقد اعتاد المكنى تقليدا للباشا ـ أن يهب رجاله بعض الملابس ، وحينما «يتعطف» على احدهم بثوب يضطجع فى كرسيه ويقول فى خيلاء •• «البس هذا» ، ولابد أن يلبسه الرجل فى حضرة السلطان ويركع ويقبل يده • ولقد رأيت ـ ذات مرة ـ القاضى يتلقى قفطانا ، وكان صغيرا عليه ، وحين حشر القاضى نفسه فيه ، لم يستطع أن يحرك ساعديه ، ومع هذا اضطر الى أن يسير الى منزله بهـذا الرداء •

ولكل ابن من أبناء السلطان عدد كبير من العبيد يصحبونهم اينما ذهب ، ويختارون فى العادة من نفس أعمار سادتهم ، ويلهو ابناء السلطان مع العبيد ، وينهالون عليهم ضربا دون سبب ، ودون أن يجرؤ أحد على الشكوى وتتكون حاشية الابن الاصغر من عدد من العبيد،بعضهم يكبر السيد بخمسة أعوام • وتجد أحدهم يحمل برنس ابن السلطان وآخر يحمل فردة حذاء وثالث يحمل الفردة الاخرى وبعضهم يلبس لباسا رائعا واخرون يسيرون عرايا • ويتبع المجموعة عبد يحمل بندقية سيده ، ولا يسمح له أن يطلق طلقة واحدة منها •

وكماليات الحياة فى مرزق محدودة حيث يعتمد الناس اعتمادا اساسيا على البلح ، وربما لا يستطيع كثير منهم أن يتذوق القمح لشهور عديدة • وحين يحصلون عليه يصنعون عجينة ، يسمونها عصيدة ، وهى ضرب من البازين أما الدجاج فقد اختفى تقريبا من الاقليم كله هذه الايام ، فالسلطان يحتكر هذا الصنف لعائلته •

أما الخراف والماعز فتاتى عبر الجبال القريبة من بنى وليد ، على بعد اربعمائة ميل ، وتسير فى الصحراء لخمسة أيام أو يزيد دون ماء أو طعام ، وينفق الكثير منها وترتفع أسعار ما يبقى على قيد الحياة • وحين يصل القطيع يباع الخروف السمين بما بين عشرة واثنى عشرة دولارا ، أما النحيف منه فلا يزيد ثمنه على ثلاثة دولارات ، ويصنع الخبز بطريقة رديئة

ويسوى فى أفران يصنعونها من الطين فى فجوات فى الارض وربما كان الكسكسى والرشدة والدويدة أفضل ما يقدم فى فزان •

وتشبه الطواحين ، الطواحين العربية اليدوية • وحين (يجرش) الذرة لا يمكن تجنب الحصى والرمال • ويضيف القادرون الى طعامهم كمية كبيرة من الشحم والفلفل الاحمر • وفى العادة يضاف ربع (جالون) من الزبد الى الوجبة ويجلب الزبد من سرت أو بعض البلدان الساحلية فى قرب من جلد الماعز ، واغلبه زنخ فاسد ، وهو فى قوام الزيت ويباع بأثمان مرتفعة وينقل تجار الزبد شحم الماشية ايضا • أما الزيت فياتى من بنى وليد ومصراتة وغريان • وتعيش كل الحيوانات على البلح ، وتتغذى به الخيول والبغال • اما الخراف والماعز فتأكل النوى •

١ أكتوبر – وافق اليوم العيد الكبير ، وهو اليوم الذى يلتقى فيه الحجاج بمكة ، ويقدم كل واحد فيه الضحية • وفى ذلك اليوم يشترى الرجال اللحم لزوجاتهم وأولادهم وعبيدهم • ولعل من العادات الواجبة أن يذبح الرجل الضحية بنفسه • وتذكرنا السلطان فى هذه المناسبة وارسل خروفا ، ولم نكن نتوقع منه هذه المكرمة ، وقمت بذبح الخروف ولقد كانت الوجبة جديدة علينا تماما ، وأكلنا كثيرا يومها ووقعنا فريسة للمرض فى اليوم التالى •

والجدير بالذكر أن المسلم لا يأكل لحم الذبيحة ، الا اذا ذبحت بطريقة معينة وذلك بأن يهل عليها المسلم باسم الله •

لم نتبرع بلحم الى الان ، فلا نملك فى الواقع ما نقدمه وحينما حضرنا اول الامر ، كان الاهالى يرفضون ما نقدمه لهم من لحم خشية أن تكون الذبيحة لم تذبح طبقا للطريقة الشرعية ، أما الان فهم لا يتورعون عن قبول أى شىء •

وتحسنت صحة السلطان وأصبح مصدر ازعاج لبلفورد ، وطلب منه أن يصلح له مدافعه الثلاثة وعجلاته وعرباته • وكان من الصعب على بلفورد نظرا لسوء حالته ان يشرح للحداد كيف يصنع مسامير طويلة أو أن يلوى قضبان الحديد ليصنع عجلة • وحظى بلفورد بطيب الطعام فقد دأب

السلطان على أن يرسل له رزا ولحما كل يوم • ولم ينسنا بلفورد وكان يتمنى لو شاركناه طعامه •

وحينما انتهى بلفورد من مهمته طلب منى المكنى أن أشرف على بنـــاء عربة ركوب له ، ووعدته فى حالة وجود خشب جيد أن يتولى بلفورد ذلك على أن أتولى أنا تدريب أربعة خيـول لجرها • ومنيت نفسى بقضاء وقت طيب فلم يكن لدى ما انشغل به •

وكان المكنى يرسل الينا بين الحين والاخر بلحا طازجا • من نوع جيـد • بل أنه سـمح لنا بقطع نخلتين من بين نخيله المليـون ونصف لكى نشرب اللاقبى •

وبدأ بلفورد فى صنع الهيكل ، ومن خشب قديم وصناديق مختلفة صنع عربة طولها ستة أقدام وعرضها ثلاثة وارتفاعها أربعة • وجعل بلفورد لهـا بابا فى الخلف يسمح بدخول من يركب ، غـير أن المكنى شـاء الا أن يجعل الفتحة أصغر لدرجة انه بات فى حاجة الى من يدفعه دفعا اذا اراد الركوب • وبعد أن أكمل بلفورد بناء الهيكل اعد له ركيزتين ركب بهما عجلتين كانتا لمدفع ميدان ، وهكـذا ارتفعت العربة قرابة ثلاثة اقـدام عن الارض•وطوال فترة الاعداد لم يبرح المكنى المكان وكان بادى السرور ووفد الكثيرون لرؤية العربة وتساءلوا عما اذا كانت تشبه عربة الملك وزوجاته• ولكم كان محيرا أن أجد اجابة ، فقد صنع بلفورد معجزة بما اتيح له من امكانيات متواضعة ، ولم تكن العربة بصفة عامة أفضل من عربات السـوق التى تجرها الحمير فى ضواحى لندن • ولكن سرعان ما تبدل مظهر العربة حين غطت بقماش من القطيفة وزودت بسرير • ودهنت العربة والعجـلات بلون أخضر • وكان المكنى قد أحضر معه صدا نحاس (زنجار) عجن بزيت الزيتـون ودهنت به العربة ، وأضـيف الى ما تبقى من دهان بعض الخـل ودهنت العربة مرة اخرى • وفرح المكنى بها كثيرا ، ولكن سرعان ماظهر بالعربة عيب تلو آخر ، فلم يكن بالعربة مكان مناسب لسائق وكانت الجياد بنشاطها وحيويتها لا تؤمن على جر عربة صغيرة كهذه • واستعرضنا بدائل عدة لعلاج ما ظهر بالعربة من نقائص وتبين لنا أن ليس ثمة سوى حل واحد

وهو ان نقنع بعربة يجرها حصان واحد • وتبدت عبقرية بلفورد ، وتحت اشرافى استطعنا أن نعد طاقم الفرس ، وأكتشفنا فيما بعد أن العربة كانت منخفضة لدرجة انها أصبحت مائلة عن الارض بـ ٢٥ درجة على أقل تقدير وعلى هذا فان رأس السلطان ستكون منخفضة عن قدميه بمقدار قدم بأكمله ولم يكن ذلك بعائق بالنسبة للمكنى الذى قرر أن يركب العربة بأى ثمن • وركبها المكنى يجرها العبيد فى بقعة فضاء بالقرب من القلعة • وقرر المكنى فى النهاية أن يتنزه بالعربة يجرها حصان • وأوثق الفرس بالعربة وحينما سيق الفرس وئيدا عبر بوابة صغيرة الى حيث ينتظر المكنى جمح وراح يعدو بأقصى سرعة • واصدمت العجلة بالبوابة وهدمت جزءا من البناء الا أن العربة ذاتها ، لدهشة الجميع لم تصب بسوء • وتقرر فى النهاية وضع سرج أكبر على ظهر الفرس وأن يعهد الى بابا اسماعيل « المدفعجى » التركى بقيادة العربة • ووهب المكنى بلفورد ، عرفنا منه بالجميل ، ثمانية دولارات عاد بها الرجل الينا فرحا واستطاعت هذه الدولارات أن تقينا شر الموت جوعا ولم يتخل عنا الحظ ووفقت بعد ذلك بعدة أيام من بيع سرج حصان بثمانية دولارات أخرى الى واحد من التبو • وفى منتصف الشهر تحسنت صحة ريتشى قليلا ، لكنه ظل على صمته وخواره حتى ظننا أن الرجل لن يعمر طويلا •

وفدت بعض قبائل التبو الى مرزق ومعها عدد كبير من العبيد ، ولاحت لنا فرصة طيبة لبيع واحد من خيولنا بعد أن فوضنى السيد ريتشى بذلك • واستطعت أن أقنع أحد رجال التبو بأن يعاين الخيول ، وكنت اعطيها مـاء كثيرا حتى يزداد وزنها ويتحسن مظهرها • وقبل الرجل أن يدفع فى احد الجياد سبعين دولارا ، دفع منها جارية قدرنا ثمنها بعشرين ، ووعد الرجل أن يدفع الباقى عندما يبيع عبيده • وأرسلنا بالمرأة ذات الثلاثين ربيعا الى كريمة الشيخ محمد لتتعلم الطهى •

واقتصدنا قدر المستطاع فى انفاق ما تبقى لنا من مال قليل • وبقى لدينا قليل من القمح وسرعان ما نفذ • وخلال الشهرين أو الثلاثة الماضية ، كثيرا ما انقضت أيام كاملة دون أن نتذوق طعاما • وخلال هذه الفترة وقعت أنا وبلفورد صريعى المرض ولزمنا الفراش ، فقد اصيب بلفورد بالحمى ،

أما أنا فقد اختارت الاوجاع ظهري ورأسي ، وكثيرا ما ادت بي الالام الى حالة من «الهستيريا» والهذيان وساءت حالتي كثيرا . وبدأت أشكو من الام الكبد والطحال . ولحسن الحظ فقد كانت بي رغبة في الحياة ، وفي هذا الشهر مات عشرون تاجرا من طرابلس من جراء سوء التغذية والماء الملوث وسقط كثير من أهل مرزق - ايضا - فريسة للامراض ، وأصبح من النادر أن تجد شخصا تبدو عليه سيماء الصحة .

وبقيت اسبوعا في فراشي ، وعندما غادرته كنت قد استحلت الى هيكل عظمي ، أما بلفورد فقد ظل على حالته السيئة .

وذات مساء ، وكنا نجلس جميعا بالمنزل ، جاءنا صديقنا المملوك يوسف وخاطبنا قائلا . يوسف أنت وسعيد أصدقائي ، لقد سلك المكني معكما نفس الاسلوب الذي سلكه معنا ، فهو يريد لكما الموت ليستولي على ما معكما من بضائع . أجب على سؤال واحد . هل تريد مالا ؟ وحينما اطرق « ريتشي » برأسه بالايجاب ، استانف يوسف حديثه وقال : انني لا أملك مليما واحدا ولكني سأذهب لاقترض لكم ما تحتاجونه من مال . وطلب السيد «ريتشي» عشرين دولارا ، وخرج الصديق الطيب وعاد سريعا ومعه ثلاثون دولارا . ولقد كانت مفاجأة تماما ولم نستطع أن نقدم للرجل ما يستاهل من شكر وثناء ولقد مكنتنا هذه المساعدات الموسمية من توفير طعام جيد عوضنا به ما عشناه من حرمان ، وسرعان ما تحسنت حالتنا وارتفعت روح «ريتشي» المعنوية .

وساعدني السيد ريتشي حين تماثل للشفاء في تركيب دوارة لتحديد اتجاه الريح على صار قديم وشد هذا الاختراع الينا كثيرا من الزوار الذين سرهم منظر الدوارة وهي تدور ، وأبدى عدد منهم استغرابه فماذا يفيدنا أن نعرف من أين يأتي الريح .

انتشرت العقارب هذه الايام في كل المنازل ، وخشيت أن يكون بمنزلنا بعض منها . وكنت قد تعلمت في طرابلس طريقة للامساك بها دون التعرض لخطر لدغاتها ، وقد قدر لي ذات مرة أن اجربها . فقد حدث ذات يوم وبينما كنت أهم بالجلوس على حصيرة وضعت يدي دون قصد مني على عقرب

فلدغتني على الفور • واسرعت بأحداث جرح في يدي وصرت أشفط الدماء بفمي ووضع السيد ريتشي على الجرح مادة كاوية • وعانيت الاما مبرحة في يدي ، ولعل النصف الايمن كله من جسدي قد تعرض لشلشل خفيف • ومضت ليلة قبل أن تبارحني الالام ، غير أن الجرح كان قد تورم قليلا ، والمعروف أن العقرب اذا لدغت طفلا فهو لا يعيش أكثر من ثلاثة ايام •

لقد عثرنا على أفعى ، وهي تشبه السحلية وتستطيع اذا تعرضت لخطر أن تدفن نفسها في الرمال • وتعتقد النسوة أن بمقدور هذا الكائن أن يتنبأ لهن بعدد الأطفال الذين سيرزقون به • فحينما تشك الافعى فانها تصدر صرخات وتعني كل صرخة طفلا •

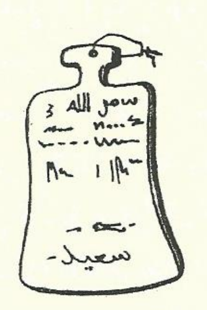
وأنواع الزواحف قليلة وتشمل السحالي والثعابين الصغيرة بعضها سام ويسمى أفعى • ويوجد الكثير من العقارب والعناكب ، وتبلغ بعض العناكب حجما هائلا ويسمى « عقرب الريح» • وهي تجري بسرعة ولدغتها سامة لكنها ليست خطرة • وهناك نوع من السحالي يسمى « الورل » ويبلغ طولها قرابة ثلاثين بوصة وهي متوحشة وحين تعض فانها لا ترخي عضلات فمها حتى تموت • وعندنا واحدة ظلت تقبض باسنانها على قطعة قماش حتى ماتت • وضربة ذيلها مروعة ويعتقد الاهالي أن من تصيبه ضربة منها لا ينجب

وهنا تمضغ النسوة الطباق كما يمضغه الرجال ، ويستحلبون معه القطرون أو الصودا • ولا يدخن سوى العظماء فدخان اللفائف ثمنه مرتفع •

وفي ٢٨ أكتوبر وافق اليوم عيد اخر هو عيد أول السنة الهجرية ، أو عيد «الطقطاقة» ، وكنت ما أزال مريضا • وهكذا ، فقد انقضت ١٢٣٥ سنة على هجرة الرسول من مكة الى المدينة • وبهذه المناسبة وهب المكني اثنتين من جواريه «المنبوذات» الى اثنين من عبيده ، أحدهما كان يعمل سكرتيرا وحلاقا والاخر كان سائس خيل • وفي منطقة فضاء بجانب المسجد أمضينا ليلتين في مرح وحبور وفي الامسية الاولى جلس الحلاق (وكان أكبر الاثنين شانا) • جلس على بساط يستند على اثنين من أصدقائه ، وكان ثلاثتهما يلبسون أبهى الحلل التي استطاعوا اقتراضها • وجلس «العريس» وبيده شمعة موقدة ومصباح مشتعل وضع أمامه ، والرجال والنساء يغنون من حوله

ويعاملونه باحترام شديد ، وقد أمسك مروحة بيده • وأحضرت العروس من القلعة يحيط بها حشد من النساء يطلقن زغاريد الفرحة وصـــيحات الابتهاج ، وكانت ممسكة بشمعة فى يدها وقد تحلت بحلى فضية كبيرة ، وقلادات سوداء جميلة من الخرز ، وحينما كانت فى عصمة الســـلطان أنجبت له ثلاثة أبناء لكنهم ماتوا جميعا • ولم يتفضل العريس بالنظر اليها ، وتصدر الموكب فى وقار ومضى مسندا يديه على أصدقائه الذين ساروا على جانبيه حتى منزله (كما يفعل الباشا وسلطان فزان) ومضى الموكب حثيثا ناحية المنزل • وانقضت الليلة التالية على غرار سابقتها ، وفى صبيحة اليوم الثالث شاهدت أحد العريسين ينظف جوادا على قارعة الطريق ، ولا يستر جسده سوى اسمال باليه ، وهو الذى كان منذ بضع ساعات يرفل فى الملابس الحريرية والحلى الذهبية •

وقدر لى أن أرى الفقهـاء وتلاميذهم وهم يجلسـون على الارض ، ويتعلم الصغار القراءة والكتابة على لوح خشبى يستوردونه من بورنو والسودان ، ويرددون الكلمات خلف سيدهم ، وحين يجيدون حروف الهجاء ، يتعلمون كيف ينسجون بعض الجمل ، ويملى عليهم الشيخ بضع كلمات ، ويشـــبه اللوح الشكل التالى •



وغالبا ما يردد الشـيخ بعض آيات من القرآن فى صـوت عال ، ويردد الصغار ما يقول ، وحينما يبدا الصغار فى تعلم الكتابة ، يتلو الشيخ ســـور القرآن مجودة ، ويتابعه الصبية فى المصاحف ويتقدم الاولاد سريعا ، ولا تمر ثلاثة اعوام أو أربعة حتى ينهوا مرحلة معقولة من التعليم • والجدير

بالذكر أنك تجد الصغار بينما يستطيعون قراءة القرآن بسرعة وكفاية • فهم لا يستطيعون قراءة سطر واحد من كتاب غيره • اما الحساب فهو لا يدرس بالمرة • ويدفع الاطفال صاعين من القمح كل شهر ، اما الاجر السنوى فهو دولار واحد • وحينما ينتهى الابن من دروسه يصيب الشيخ من ابيه بعض الملابس ، وبضعة دولارات • اما اذا كان الاب رقيق الحال فيقتصر الامر على شيء يؤكل وكلمة تحية • هى (الله يبارك) ••

ويبدأ الشيخ يومه الدراسى مع الصبية بالصلاة • ومواعيد الدراسة ليست منتظمة على الاطلاق ، ويقوم الشيخ بتلقين تلاميذه حينما لا يجد شيئا آخر يفعله • والمواعيد المعتادة هى الصباح الباكر والامسيات • والعقاب هو الضرب بالعصا على القدمين أو اليدين ، فضلا عن عادتنا الانجليزية القديمة – الضرب بالسياط – الا انها لا تمارس كثيرا • واقلام التلاميذ من أعواد القصب ، وتقوم الرمال بدور الممحاة • وحين يقوم كل تلميذ بمراجعة دروسه ، وربما كل واحد يراجع درسا مختلفا ، فان ضوضاء عشرة تلاميذ فقط من الصعب تصورها • وحينما كان يحكم فزان سلاطين من اهلها ، جرت العادة أن يجتمع التلاميذ الذين اتموا دروسهم فى يوم محدد من كل عام ، يجتمعون ، وكل يلبس أفضل ما يستطيع الاصدقاء أن يقدموه له • ويلتئم شمل الجميع جنوبى البلدة • وعند ربوة عالية يقف الفقيه وفى يده راية صغيرة ، بينما يقف الصغار على مسافة منها • وحينما يغرس الشيخ الراية فى الرمال ، ينطلق الصغار تجاهها ، ويهدى السلطان التلميذ الذى يلحق بها قبل الاخرين ملابس جديدة غالية وبعض المال • ويدور الفائز حول المدينة يتصدر الجميع على فرسه • على أن هذه السباقات قد ابطلت منذ أن تولى المكنى الحكم ، واشتكى الاهالى من انه لم يعد هناك حافز يدفع أبناءهم للعلم • وفى فزان يوجد النمل باعداد هائلة فى كل المنازل ، وقد قضت أسراب النمل على كثير من طعامنا المحفوظ • ولدغة النمل مؤلمة ، ولا أدرى لماذا يطيب للنمل أن يترك الطعام ليتبختر على فراشنا يوزع اللدغات •

وهناك ظاهرة فريدة لابد أن اسجلها عن فزان ، وهى أن البراغيث لاوجود لها فيها ، بل ولا يعرف شكلها من الاهالى الا من سنحت له فرصة السفر

الى السواحل • ويوجد البق بكثرة ، والغريب أن له نفس الاسم بالعربية ويوجد نوع من البق يغرم بالرمال ويكثر فى المواقع التى تحط فيها القوافل رحالها • ولدغة حشرة البق حادة ، ويروق لها أن تتجمع على سيقان الخيول ويفقد الفرس اعصابه ويهتاج وربما اقتلع وتده •

ويقوم دخل السلطان على الضرائب التى يفرضها على التجار ويتقاضى ضريبة قدرها دولاران أسبانيان على كل عبد ، صغيرا كان أم كبيرا ، بمجرد دخوله الى فزان • ويبلغ عدد العبيد فى بعض السنوات ٤٠٠٠ عبد ، كما يتقاضى عن كل حمولة جمل من الزبد أو الزيت سبعة دولارات ، أما حمولة الملابس ثلاثة دولارات ، ويدفع التجار الذين يشترون البلح دولارا واحدا ضريبة عن كل حمولة يشترونها (الضريبة تساوى فى بعض الاحيان قيمة البلح ذاته) هذا مع العلم بان عدد الحمولات المباعة والمشتراة تزيد على ثلاثة آلاف حمولة كل عام • اما اشجار النخيل ، بأستثناء نخيل القاضى والمماليك فيدفع عن كل مائتى شجرة دولار واحد • ويبلغ دخل السلطان من ضريبة النخيل وحدها عشرة آلاف دولار • ويدفع عن كل خروف أو ماعز خمسة دولارات • وحينما يباع العبد يتقاضى السلطان دولارا ونصف علاوة على الضريبة سالفة الذكر ، فاذا بيع اربعة الاف عبد ، بلغت الضريبة بالطبع ستة الاف دولار ويغل نخيل السلطان حمولة ستة الاف جمل ، ويبلغ وزن الحمولة الواحدة أربعمائة رطل ، وعلى هذا فان ثمن بلح المكنى على اسوا تقدير يبلغ ١٨٫٠٠٠ دولار • اما فيما يتعلق بالضرائب المفروضة على الحدائق ، فلابد أن تدفع كل منها عشر محصولها • وهناك ايضا هدايا الجوارى والعبيد ، الى جانب الغرامات التى يفرضها على الاهلين • وكل مدينة تدفع مبلغا معينا صغير ، ومع هذا فربما بلغ مقدار هذه الحصص أربعة الاف دولار • وبالاضافة الى كل ذلك ، هناك غزواته السنوية التى يعود منها بما بين ألف وألف وخمسمائة عبد ، يستولى منها على الربع ، ونفس النسبة ايضا من الجمال • والمكنى وحده له حق بيع الجياد ويشترى الواحد منها باربعة أو خمسة دولارات ، ويبادل الجياد بعد ذلك بالعبيد • وهو لا يعطى رجاله وموظفيه أى أجر بل يعتمدون هم ايضا على الجبايات التى

يفرضونها على الاهالى ومن كل هذه الدخول لا يطالب المكنى بدفع أى مبلغ سوى الخراج الذى يدفعه للباشا سنويا وقدره ـ حتى ما قبل نزاعه الاخير معه ـ ١٥٫٠٠٠ دولار • على أن كل ذلك لا يشكل كل مصادر دخله ، فله مصادر أخرى ، فاذا مات رجل ولم يخلف ابناء استولى السلطان على ارثه • واذا حكم على أحدهم بالموت ورث ماله ايضا ويوزع السلطان على رجاله مقدار مكيالين من الذرة وأربعة مكاييل من البلح كل شهر وذلك مما يتقاضاه من الغير • وتتقاضى جواريه حصتهن من الذرة والبلح والزيت تبعا لحجم كل منهن وعمرها •

ورافقت صديقى المملوك «محمدا» ومضينا الى تسوا Tessouwa وهى مدينة صغيرة على بعد عشرين ميلا غربى مرزق • وتضم المدينة اطلال قلعة عربية قديمة ، بنيت من الطين • ولا يوجد النخيل بكثرة فى تسوا ، ويقدر عدد سكانها بثلاثمائة نسمة ، ويفصلها عن مرزق منطقة صحراوية رملية •

وفى الثامن من نوفمبر عام ١٨١٩ ، داهم المرض السيد «ريتشى» مرة ثانية ، وودت أن ابيع بعض ما لدينا من بارود لتوفير بعض اسباب الراحة له • ولكنه لم يقبل ، وفى التاسع من نوفمبر داهمنى المرض ايضا ولزمت فراشى ، وعلى الرغم من أن بلفورد كان متوعكا فقد قام على خدمتنا • ولم تنقض ثلاثة أو اربعة أيام حتى ساءت حالة «ريتشى» كثيرا ، وانتابه الهذيان تماما كما حدث له فى مرضه الاخير • وفى بعض الاوقات كانت صحتى تتحسن قليلا فاقوم على خدمة رفيقى المريض • وحينما تماثل ريتشى قليلا للشفاء ، سالنى بقلق شديد • هل معك مال ؟ وحين اضطررت الى أن أجيبه بالحقيقة ، تجنب بعد ذلك كل حديث عن هذا الموضوع • ولم يكن ريتشى يشرب شايا ، بل كان يشرب الخل والماء فقط • ولقد كان الخل هو السائل الحمضى الوحيد الذى لدينا • وحينما برىء من الامه ، تصور أن المرض سيغادره خلال يومين أو ثلاثة ، خصوصا وانه خرج من المرض أكثر بدانة مما كان عليه منذ بضعة شهور • وفى ١٧ نوفمبر عام ١٨١٩ بدا السيد ريتشى معافى تماما لدرجة أنه كان يستطيع النهوض من فراشه وأن يلبس ملابسه • واجلسناه على حصير فى منتصف الحجرة حينما بدا أكثر

حيوية • وشكرنا ريتشي كثيرا على ما اديناه نحوه من خدمات ، وابدى رغبته في أن يشرب قدحا من القهوة ، وكنت أرفض أن أعطي له قهوة خوفا من أن تضره ، والح في طلبه كثيرا ، ولم أجد بدا من أن أقدم له ما يريد وأراد أن ينام على الحصيرة ، فأعددنا له فرشه عليه ، ونمت الى جانبه • وعند الظهر اختبر لسانه في المرآة ، وراعه لونه ، ولكنه عاد وقال كنت خائفا من سواد لساني ، ولكني تذكرت انني شربت قهوة •• ومضى يقول لو انني لاحظت هذا السواد دون ان اعرف سببه ، لقلت لكم أنني مريض بالحمى الصفراء ، ولقلت لكم وداعا • وفي المساء حضر مملوك أو اثنان وتحدث ريتشي اليهما قليلا ثم راح في سبات عميق • وبقيت يقظا شوطا طويلا من الليل • وفي الصباح وجدت ريتشي بعيدا عن فراشه ، وقد تعرى من الغطاء وقد انتابته حالة هذيان واستلقى على الرمال الباردة • فوضعناه على الفور فوق فراشه • وهدأ قليلا وبدا كما لو كان قد استعاد قواه • وفي العشرين من نوفمبر أصبنا دجاجة ، وأعددنا لريتشي قليلا من الحساء • وبينما كان يحتسيه جاءنا رجل وقال «ان الرسول عاد من طرابلس يحمل بعض الخطابات» • وخرجت وعدت ـ خيبة الامل ـ خالي الوفاض ، فلم أجد رسالة واحدة لنا • وكان حساء ريتشي اول وجبة معقولة يصيبها منذ عشرة ايام ، وقال انه يشعر بتحسن كبير ، وذهب لينام • ووضعت فراشي عند باب حجرته ، وبقيت أراقبه • كان يتنفس بصعوبة ، ولما كان قد أصيب بضيق التنفس هذا قبل ذلك فلم أقلق كثيرا عليه • وعند التاسعة مساء سمعت بلفورد يصرخ قائلا ـ انه ميت ـ وهرولت اليهما واختبرت ريتشي ووجدته ما زال نائما ، ورجوت بلفورد أن يكون أكثر حرصا فربما سمعنا الرجل • وعدت لفراشي ، وفي العاشرة نهضت مرة ثانية لاجد ريتشي ينام هانئا ويتنفس بسهولة ، ومرت خمس دقائق ، قبل أن يتوقف تنفسه تماما ، وتحسسته لاجده قد قضى نحبه دون غصة أو انين

وتبادلنا النظرات انا وبلفورد واحساس كئيب يخيم علينا ، ربما بعد ايام قلائل دورنا لنلحق بالرفيق الراحل • ولاول مرة طوال محنتنا ضاعت امالي • وفي الصباح خرجت وأخبرت صديقنا يوسف والحاج محمد وتأثرا وقدما الينا كل مساعدة ، وأسرع بلفورد ليصنع كفنا • وكم كان عملا كئيبا

حزنا .. وجاءنا المغسلون ليقوموا بعملهم الكئيب . وغسل جسد السيد ريتشى وعطر ودهن بالكافور ولف فى رداء قطن أبيض . وخلال اعداده للدفن جاءت النسوة النائحات ، جئن ليلطمن الفقيد . لكنى طردتهن واغلقت الباب . وبينما كنت مشغولا ، بدا أن خادمنا أو بعض المعزين قد سلبونا بعض ما نملك ، وسرعان ما اكتشفت اننا أصبحنا هدفا لكل طامع واستأجرت عددا من الرجال ليحملوا الفقيد ، ومضت جماعتنا الصغيرة يصحبنا بعض المماليك . مضينا بخطى سريعة الى المدافن . وفى المساء ، بعيدا عن العيون قرأت أنا وبلفورد الصلوات البروتستنتينية ، أما اليوم فها أنا وبلفورد نتلو آيات من القرآن امآم الجميع ، تلك الايات التى يمكن ان يعتبرها أى مسيحى جاد ، أفضل صلاة وأكثرها قبولا فى مناسبة كهذه .

وبعد أن انتهينا من كل شيء .. عدنا الى المنزل لنمضى يوما حزينا . ولقد كان ضروريا أن نوزع بعض الطعام على المساكين الذين تجمعوا بكثرة عند بابنا ،فى الوقت الذى لم نكن نملك فيه قرشا واحدا لنشترى به طعاما لانفسنا ولكن صديقنا الطبيب يوسف امدنا ببعض مال ، وبعد انتهاء مراسيم الدفن بساعة واحدة ، جاءنا الرسول ، ومعه رسالة طال انتظارنا لها . وتقول الرسالة : ان الحكومة البريطانية قد اعتمدت مبلغا اضافيا قدره الف جنيه استرلينى . ولو وصلت هذه الرسالة قبل ذلك بقليل ، ربما استطعنا أن نتجنب متاعب كثيرة . وذهبت الى السلطان لاخبره بموت السيد « ريتشى » فتظاهر المنافق بالتاثر الشديد وهو الذى كان يعلم تماما انه كان بوسعه مساعدتنا ، وربما لو تحقق ذلك لتحسنت احوالنا ، وربما لم تتسبب فاقتنا فى موت السيد ريتشى . واخبرت السلطان بالمبلغ الذى انتظره ، ورجوته أن يقرضنى بعض المال . وتحدث المكنى كثيرا عما يشعر به من مودة تجاهى وتعلل بفقره وضيق ذات يده . وفى النهاية اعلن انه سيقرضنى مبلغا صغيرا ، وذكرنى بأننى مدين له بثمانية دولارات ، ولم يكن هذا بصحيح ولكن لم أكن فى حالة نفسية تمكننى من الاحتجاج .. وقلت له : اننى لن اساله مساعدة او صداقة بعد اليوم . وكان ذلك من وجهة نظره نكرانا للجميل .

وعند عودتي وجدت المسكين بلفورد منهكا بعدما بذل من مجهود ، في الوقت الذى كنت أحس فيه بالمرارة والاسى لما حدث • ولم تمر بضعة ايام حتى وقعت انا وبلفورد فريسة سهلة للحمى ولزمنا الفراش تحت رحمة أى ارق كريم • وطيلة ذلك اليوم التالى تقاطر علينا الزوار ، لاداء واجب العزاء وفكرت جديا فى انه لن تمضى بضعة ايام حتى نوارى التراب • ولزمنا يوسف والحاج محمد يقومان على خدمتنا ، كما سهرت خادمتنا على راحتنا ، وكانت لنا نعم الطبيب • وامضينا عشرة أيام ونحن على هذه الحال واشترى منا يوسف – بناء على رغبتى – مائة رطل من البارود • وأصبنا فى النهاية بعض مال ، ولكن مرضنا حال دون أن نستمتع بما معنا من نقود وبعنا حصان السيد ريتشى العجوز ، الذى لم يستعد صحته ابدا منذ رحلنا عن طرابلس ، وقبضنا فيه سبعين دولارا • كما بعنا بعضا من النثريات ، بالرغم من معارضة السلطان فى ذلك ، وبعد أن سددت ما علينا من ديون تبقى لدينا مائة وخمسون دولارا واعتزمت أن اسير جنوبا – هذا ان شفيت بالطبع – بالرغم من اننى مازلت افتقد أهم الضروريات •

وتمنيت أن اعود لانجلترا للحصول على تعليمات جديدة فيما يتعلق بالبعثة ، هذا بالطبع بفرض اننى ما زلت معيناً بها • والمؤسف أنه لو وصلت الالف جنيه الى طرابلس ، فلابد أن يضيع وقت طويل قبل أن اتمكن من استلامها ، وربما استدعى الامر أن أذهب بنفسى لاستلامها • وحينئذ ستظهر مشكلة أخرى ، فأين أضع حاجياتى ؟ ولقد كان بلفورد مريضا لدرجة انه لا يستطيع حراستها أو حتى يستطيع البقاء وحيدا فى مرزق • هذا الى جانب أن ألف جنيه لا تكفى أبدا لرحلة تتوغل فى اعماق أفريقيا ، فالامر يتطلب أن أشترى أشياء تختلف تماما عما أحمل ، وبدون هذه الاشياء لا يمكننى أبدا أن أقوم برحلتى •• هذا الى جانب أن مرض بلفورد ، سيحول بينه وبين مرافقتى ، فى الوقت الذى يعتبر فيه سفرى بمفردى ضربا من الجنون • وحالما استعدنا صحتنا قليلا صعدنا الى الطابق التالى وفتحت حجرة السيد ريتشى حيث وجدت بعض أوراقه مبعثرة وصحفا وخطابات ، ورتبت كل شيء ، وحرقت كل ما كان خاصا بالسيد ريتشى ، تم كل ذلك فى وجود

بلفورد ، واحتفظت بكل الاوراق التى كتبها ريتشى بخط يده ، ودهشنا عندما وجدنا انه لم يترك سوى مذكرات ضئيلة للغاية ، وقد كان فى تصورنا بالرغم من شهور مرضه ، انه ولابد يكتب بعض السطور ، على الاقل عن الفترة التى سبقت وصولنا مرزق .

أعلم تماما انه كان يعتمد على ذاكرته ، وانه كان ينتظر بفارغ الصبر ، أن يحل طقس بارد يستطيع فيه أن يسطر أفكاره على الورق . وربما كانت هذه المبررات سببا فى انه لم يترك شيئا له قيمته أو شيئا من المذكرات ذات الصبغة العلمية وقد كانت لديه المقدرة على تناولها دون شك وانه لمما يدعو الى الاسف أن السيد ريتشى ابان مرضه لم يرض أبدا أن اكتب له أية أفكار تستحق التدوين ، على الرغم من الحاحى عليه ، وكنتيجة لتلك الظروف السيئة التى عشناها فقد ضاع الكثير جدا من المعلومات القيمة .

وساعدنى بلفورد فى نقل كل صناديق الامتعة التى لدينا الى حجرة كبيرة لتفحص محتوياتها .. لقد حزمت قبل وصولى الى طرابلس ، وكان السيد ريتشى قد اعتزم الا تفتح هذه الصناديق قبل وصولنا « بلاد الزنوج » . ووجدت من بين ما وجدت ستمائة رطل رصاص ، وحمولة جمل من الفلين معدة لحفظ الحشرات عليها .. ولما كانت هذه الاحمال لا تستاهل نقلها الى طرابلس ، فقد أودعتها منزل يوسف واخذت منه ايصالا عنها .. ووجدت أن ما بقى من أمتعة بما فيها خمسمائة رطل من الكتب وصندوقان للادوات ، تحتاج الى ثمانية جمال ولهذا فقد كتبنا بها قائمة واودعناها بعيدا . وحينما هاجمتنا الحمى مرة اخرى كنا وكل ما نملك تحت رحمة اى متسلل .

ولقد وجدت انه من الافضل أن استغنى عن خادمنا ، وكذلك المرأة التى كانت تعد لنا الطعام ، فلم اكن أثق بها كثيرا . وكان يوسف قد اقرضنا ايام محنتنا ، صبيا ذكيا يدعى «بركة» قدم لنا والجارية مساعدات لا تنسى .

وفى الامسيات الباردة ، كنا نوقد نارا فى حفرة فى الارض ، نلتف حولها مع بعض الاصدقاء وسمعنا منهم قصصا طويلة الا أن الصم الذى الم ببلفورد منعه من أن يستمتع بها كما استمتعت .. ولقد كانت معظم هذه الحكايا ، حكايات دينية ، وحين يحكيها الحاج محمد العجوز يبدؤها عادة بما يلى

« حينما يزور شخص قبر الرسول ثلاث مرات ، كما فعلت انا ، فأنه يعرف الكثير . شكرا لله » وطالما سمعنا منه حكايات شيقة عن بلاد السند أو فارس حيث تنام الشمس ، وحيث تنمو اشجار كبيرة ، وتنمو الثمار اكبر واكبر حتى تنفجر ويسقط منها رجل يصيح .. واق .. واق . بسم الله الرحمن الرحيم .. وما يلبث أن يذوب ويختفى وتبتلعه الارض .. (وكثير من هذه الحكايات الغريبة يتناقلونها ويصدقونها فى الاقليم كله .. وفى مرزق تجد بعض نسخ من السندباد البحرى ، والف ليلة وليلة .. ولعلهــــا تحظى بما يلقاه القرآن نفسه من ايمان وتصديق . (١)

اما يوسف فقد كان يسليني بغنائه والتهكم على العرب ، كما كان يحكى لى حكايات مشوقة عن الطـوارق .. والحكاية التـالية ، على الرغم من المبالغات التى تحويها تناسب هؤلاء القوم تماما . تقول الحكاية : أن رجلا سافر فى مهمة من غات الى غدامس ، وهى رحلة تستغرق ثمانية عشرة يوما وأعد الرجل طعاما يكفيه طيلة الطريق الا انه التهمه فى وجبة واحدة ، وامتطى جمله وأمضى الرحلة كلها دون طعام آخر .. ولابد أن اســـجل هنا أن الطوارق يستطيعون الصبر دون طعام ما بين ثلاثة أو أربعة ايام دون أدنى تعب . وفى ٨ ديسمبر بلغتنا انباء تقول أن صائدى العبيد عادوا بغنائم ضئيلة ، بعد أن فطن الناس الى قدومهم .. وسمعنا أيضا أن رجال «واداى» ذبحوا اثنين وثمانين من التجار البيض فى العاصمة وارا Wara وصمموا أن يقتلوا اى تاجر مغربى يدخل بلادهم .

بدأت استعيد صحتى قليلا ، كما أن بلفورد قد زالت عنه الحمى ، الا أنه ظل على صممه . ولقد لاحظت أن جاريتنا تنطق حرف الفاء باء ، فتقول «يوسب» بدلا من يوسف ، كما وجدت أن هذه ظاهرة عامة فى كل أهـالى بورنو وباجرمى ، كما لاحظت أن هؤلاء القوم ، واهالى فزان ايضا ينطقون السين «شينا» والعكس صحيح .

وصلت المكنى اخبار مطمئنة من طرابلس ، وبدا يستعيد صولته وجولته وجاءته اوامر أن يسجن تجار العقيلة (وهى بلدة تقع بين طرابلس ومصر)

---

(١) تشبيه بعيد عن اللياقة والفهم الصحيح (المراجع) .

وأن يستولى على ما معهم من عبيد وبضائع لحساب الباشا • فقد كان الباشا مشغولا بحروب أخرى مع أهل البلاد • وقد أنفذ جيشا للتصدى لهم • واستطاع المكنى أن يقبض على أربعة عشر تاجرا واودعهم القلعة ، وصدرت أوامر اخرى بالقبض على تجار الدواخل كما صدرت أوامر بالتحرز على التجار القادمين من مصر • وكان بين هؤلاء السجناء واحد يكن له المكنى كرها عظيما ، واستطاع السجين أن يهرب بصحبة تسع عشرة جارية ، وارسل السلطان الجنود فى اثره واستطاعوا أن يقطعو عليه سبل الماء • واستسلم الرجل فى النهاية على وعد بالابقاء على حياته ، الا أن الجنود قتلوه فى الصباح التالى • وعادوا براسه وأملاكه الى مرزق • ولو أن هذا الرجل قد فطن الى الخدعة المدبرة له ، لما استسلم ولبات أمر القبض عليه أمر صعب المنال • وقبل أن يلفظ أنفاسه الاخيرة قال « اخبروا المكنى انه رجل شرير ولن يدخل الجنة وسيموت بخدعة هو الاخر » •• ونطق الشهادتين واغمض عينيه الى الابد •

جاءنى الصديق يوسف ذات مساء ، ومعه رجل عجوز قدر له أن يزور «اشانتى» Ashantee وسرد الرجل حكاية غريبة لا تصدق عن اهلها وقال ان هناك تجارا بيضا قابلهم على الساحل • ولم اكن لاصدق فى البداية لولا انه ذكر كثيرا من العادات التى لا تنطبق الا على الاوربيين •

ويوجد فى مرزق ستة عشر مسجد ، بعضها كبير والآخر صغير ، ولكل مسجد امام والقاضى هو رئيس الجميع • وهى وظيفة يفخر بها كثيرا • والقاضى نفسه لم يذهب أبعد من فزان ، ولا يمكن أن يتصور شيئا أفضل من البيوت الطينية والنخيل ، وكثيرا ما سخر منا حين حدثته عن انجلترا ، وحين ذكرت له انها تقع وسط البحر •

وقبل أن اترك مرزق وطرابلس لابد أن أسجل هنا أن اختيارنا للملابس المغربية لم يكن بأية حال وسيلة كافية تماما لحمايتنا ــ سواء فى طرابلس أو فى مرزق أو فى دواخل افريقيا ــ فعلى الرغم من أن هذه الملابس قد تخدع العابرة ، فانها لا تكفى وحدها مطلقا اذا اضطرتك الظروف أن تبقى فى مكان ما فترة من الزمن ، أو أن تقوم برحلة مع اغراب • ولقد وجدنا انه

من الضرورى أن يكون المرء على علم بتعاليم الديانة الاسلامية ، هذا الى جانب اختيار ملابسهم بالطبع • والى هذا الاحتياط يرجع الفضل الى أننا لم نلق صعوبة كبيرة • اما لو كنا قد اعلنا صراحة اننا مسيحيون ، فربما كنا قد لقينا كثيرا من المتاعب فى مرزق ، اما فى الدواخل فقد كان من المؤكد اننا سندفع حياتنا ثمنا لهذا الطيش • ولقد كان لترديدنا اننا جئنا من بلد مسيحى أثر كبير فى اثارة الشكوك ، الا أن صلواتنا ومعرفتنا الكاملة بالدين الاسلامى وكذلك ترديدنا لا اله الا الله محمد رسول الله •• كان ذلك كافيا بأن يرد عنا كل شر •

وفى زياراتنا للمساجد وجدنا أنه ليس من الضرورى أن نصلى «لمحمد» (١) فصلوات النهار تتلى بصوت خفيض ، اما صلاة الصبح والمساء فلابد أن تتلى بصوت عال ، ولقد كان من السهل علينا أن نتجنبها • وخلال الصلوات الثلاث الاخرى يمكن أن تصلى لمن تشاء ، فقط تحتاط لمواعيد الركوع والسجود لتكون فى اللحظة المناسبة • ولقد كانت السورة الوحيدة التى كنا نرددها هى سورة الفاتحة ، وهى السورة الاولى من القرآن • ولابد أن أسجل هنا أن الفاتحة آياتها رقيقة ومعبرة حقا •

وفى اعتقادى أن أى انسان لا يمكن أن يمر بافريقيا دون أن يبذل جهده ليبدو كمسلم ، ولو قدر لى أن أعود الى هذه البلاد مرة ثانية ، سارفض أن اصطحب معى أى شخص لا يأخذ هذا الامر بعين الاعتبار •

وربما استطاع الرحالة اذا حالفه الحظ ، أن ينجو •• هذا اذا كانت رحلته ستنتهى عند فزان •• وكلما توغل جنوبا كلما وجد اناسا أكثر تعصبا وسيكون الموت — فى هذه الحالة — نهاية حتمية له ولرحلته •

وعلى الرغم من أن المسلمين يعلنون ويتظاهرون بانهم ملتزمون بتعاليم القرآن •• فأنهم ينتهكون واحدا من أهم هذه التعاليم ، وذلك فيما يتعلق بالكفار •• ويقال أن المسلمين لهم أن يقتلوا كل من لا يقبل الاسلام دينا • الا أن عليهم اولا أن يعلموه الاسلام ، واذا رفض الكافر القران فللمسلم ان

---

(١) هذا سوء فهم وغباء (المراجع) •

يتخذه عبدا ونفس الدين يقرر أن المسلم لا يمكن أن يباع ويشترى . ولا يفكر أى مسلم فى أن يعلم عبده أو ان يجتذبه الى دينه ، وبدلا من هـذا نجده يبيعه ويستولى على ثمنه . وواضح أن ذلك ليس من العدالة فى شئ، ولكن المكنى لا يكتفى بذلك ، فهو يمتلك كل سكان المدن حيث لا دين سوى الاسلام وحيث المساجد ، ويتصرف فى أقدارهم كيف يشاء دون تردد أو نـدم .

أما عن الطقوس الاسلامية ، فلن أتعرض اليها ، فكثيرا ما اشار اليها ، الرحالة قبلى حتى باتت معروفة تماما .

الفصل الخامس

في اليوم التاسع من ديسمبر عام ١٨١٩ ، بدأنا نستعد للرحيل ، وفي الثالث عشر من ذلك الشهر انتهينا من حزم واعداد كل ما لدينا من أمتعة لتودع أمانة عند الحاج محمود • واشتريت جملا رائعا من جمال المهارى يبلغ طوله سبعة أقدام وست بوصات ، ويستطيع أن يحمل خمسمائة رطل • اشتريته من صبي - بعين واحدة - لا يزيد عمره على اثنى عشر عاما•ولعل الصبي كان أصلب في مساومته لي أكثر من أي رجل تعاملت معه قبل ذلك • ولم تكن صحتي على مايرام فقد كنت أعاني آلاما مبرحة من كبدي المريض وطحالي المتضخم • ولكن كان من الضروري أن اتفقد بعض المناطق المتاخمة لمملكة فزان والواقعة الى الشرق والجنوب منها ، وذلك قبل أن اعود الى طرابلس ، وصممت على أن أقوم بهذه الرحلة رغم ضعفي الشديد ، بادئا بزويلة شرقا ، ومنها الى قطرون وتقرى الى الجنوب من فزان •

واستطعت أن اقنع بلفورد بأهمية تغيير الهواء ، ووافق على أن يرافقني في رحلتي هذه ، على الرغم من اننا كنا نبدو معا كرجلين في طريقهما الى القبر ، وكنا أبعد ما نكون عن مغامرين يسافران عبر بلاد غريبة واقرضنا يوسف بن الحاج خليل - مشكورا - ابنه الصغير «بركة» ليقوم على راحتنا ويقود جملنا •

وفي الرابع عشر من ديسمبر وافق السلطان وأعطانا «التذكرة» وكان معي أيضا خطاب الى قائد زيزو وآخر الى قائد تراغن وشقيقه • وقاربت الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم نكن بعد قد تحركنا ، وانزلنا الاحمال واودعناها ظهر الجمل عشرات المرات دون مبرر فكل يتدخل دون داع وكل يعرض خدماته • وتحركت قافلتنا الصغيرة بعد أن اخذ التعب والارهاق منا كل ماخذ • وفي الثالثة الا عشر دقائق ، مررنا بمجموعة من الاكواخ تنتشر على يسار الطريق ، ويطلق على المكان اسم (منقلي)

وعبرنا قرية أخرى تقع الى الجنوب منها ، وعلى بعد ميل واحد وتسمى غروات وفى الرابعة بلغنا قرية صغيرة تابعة لحدائق قرية « الحاج حجيل» ، حيث وجدنا صديقنا محمدا يزن بلح الباشا ، وكان ارتفاع كوم البلح يبلغ اثنى عشر قدما ، وطوله ثلاثين ، وقد جمع من كل المناطق المجاورة ، وترك محمد عمله مرحبا ، وأمر أن يعد لنا قليلا من « اللاقبى »، وأن تذبح دجاجة أو اثنتان واستضافنا فى الكوخ الذى يعيش به .

سرنا ذلك اليوم سبعة أميال الى الشرق وجنوب الشرق ، وفى المساء استقدم محمد عازف ناى ، واثنين من نافخى القرب وراحت النسوة يقرعن الطبول ويغنين ويرقصن تحية لنا .

تقع قرية « الحاج حجيل » على بعد نصف ميل جنوبى الحدائق ، ويسكنها قرابة ٢٥٠ نسمة . وهذه القرية هى التى تحدث عنها هورنمان ، وأشار اليها على انها «سيدى بشير» والصحيح أن لسيدى بشير ضريحا بها فقط .

١٥ ديسمبر ١٨١٩ : درجة الحرارة ٣٠ ٩°، والساعة الثامنة والنصف صباحا . بدأنا السير يرافقنا « محمد » فى طريقنا الى « زيزو » وعلى بعد ميل واحد جنوبى شرق الحدائق ، بلغنا ضريح سيدى بشير ، حيث قرأنا الفاتحة وتصدق بدولار على الفقراء . والضريح عبارة عن مبنى طينى صغير طليت واجهته ، وغطى سقفه بسعف النخيل ، ويتربع وسط واد رملى وقد جرت العادة ، تبركا بسيدى بشير ، أن تتوقف كل القوافل الاتية أو التى فى طريقها الى الدواخل تريح العبيد والدواب قبل أن تمضى قدما الى مرزق وبالقرب من المكان توجد اطلال قلعة عربية قديمة تسمى قصر حمادى .

وتركنا الوادى ، ومضينا لنبلغ طريقا جيدا يسير تجاه جنوب الشرق ويؤدى الى «زيزو» . ومر بنا أربعة من رجال السلطان يمتطون الجياد ومعهم ثلاثة من تجار «العقيلة» يركبون الجمال ، ويسير خلفهم ثمانية وثلاثون عبدا . وقد كان هؤلاء التجار يتعاملون مع تجار السودان طوال ستة اعوام ، أما الان فهم فى طريقهم الى سجن مرزق وقد كان به حين غادرنا المدينة أربعة عشر سجينا من العقيلة ايضا .

وفى العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة ، بلغنا القرية الصغيرة « زيزو » حيث وجدنا القائد سعدا يجلس على الرمال بالقرب من داره ، وقد انهمك فى صنع حذاء نسائى أحمر . وحينما رأى أمر السلطان ، نهض من فوره وهرول الى المنزل يحمل أدواته ، وعاد سريعا الينا فى حلة جديدة وسيف يتدلى على كتفه . كان أسود البشرة تلوح على ملامحه امارات الطيبة والامانة سمينا يحمل مظهر رجل شره يحب الطعام ، وبينما كنا ننتظره ، رايت امراة سوداء طلت شفتيها بطلاء احمر باهت وعلى يديها الاثنتين وشم واضح وودت أن أسألها بعض اسئلة ، ولكنها بدت عابسة متجهمة ، لدرجة دفعتنى الى السكوت .

وتقع «زيزو» وسط واد صغير تغزر به أشجار النخيل ، وفى منتصفها توجد اطلال قلعة قديمة على ربوة مرتفعة ، ومنازل القرية متهدمة ، وتنتصب أشجار النخيل من أفنية كثيرة منها . ويبلغ تعداد القرية ــ حسب تقدير قائدها ــ سبعين نسمة ، وتقع على بعد سبعة اميال جنوب شرقى » الحاج حجيل» . وتركنا محمدا فى عهدة الصديق الجديد .

وفى الحادية عشرة والنصف صباحا غادرنا المكان ، وفى الثانية والنصف مررنا بقرية على يسار الطريق تسمى « عرق اللبان » ، وقلعة تسمى قصربغيا Gasser Bighia وفى الثالثة الا ربعا بلغنا أطلال قرية تسمى موهاتن Mohhaen وفى الثالثة والربع بلغنا قرية أخرى يسمونها (ديسا) Dessa ووجدنا بها قائد تراغن ، ووعدنا أن يأتى الينا فى الصباح وان يرسل آخاه بأسرع ما يستطيع . والى الجنوب من «ديسا» وفى مواجهتها توجد قرية اخرى تسمى الرشدى Ershadi وتركنا ديسا وسرنا ساعة عبر منطقة منبسطة ذات قشرة ملحية . وتذكرت صقيع انجلترا ، وفى الواقع فان الطريق منذ تركنا «الحاج حجيل» يكاد يحمل نفس الطابع . وفى الخامسة بلغنا حدائق وبساتين تراغن ، وبدت لنا كافضل منطقة مزروعة رايناها ، وفى السادسة الا ربعا بلغنا المدينة ذاتها وقدم الينا يوسف منزله ، ونمنا به حتى الصباح وبعث الينا «المرابط» وهو الرجل الاول بالقرية ، بعث الينا يعتذر عن عدم استعداده لان يرسل لنا خبزا ولحما .

وعند الثانية ظهرا اشار مقياس الحرارة الى ٢٥ درجة

سافرنا شرقا بميل ناحية الجنوب
٧ أميال من الحاج حجيل
١٦ ميـــلا من زيزو
٢٣ ميـلا

١٦ ديسمبر ١٨١٩ – درجة الحرارة ٩ ، صباح مشرق • قمت بزيارة المرابط حيث كان يجلس على ربوة صغيرة ، نصف عار ، يسـتمتع باشـعة الشمس ، وقد جلس ندماؤه حوله يرهفون السمع الى حديثه • كان سمينا معتدا بنفسه ، وأخبرنى أن أفراد أسرته كانوا جميعا من المرابطين العلماء وتركت الرجل ، معجبا بتواضعه ايما اعجاب ، ومضيت الى الحدائق لرؤية جداول الماء التى طالما سمعت عنها • ولما كنت غريبا وكانت هـذه الجـداول احدى مفاخر فزان ، فقد تبعنى عـدد كبير من النـاس ، تركوا أعمـالهم ليشهدوا انطباع الدهشة فى عينى وانا ارى هذه الجداول للمرة الاولى • وكانت عبارة عن أربع برك يبلغ محيط كل منها ثلاثين وأربعين قدما تغطيها الحشـائش ، وتسـبح بها اعداد كبيرة من الضـفادع • ونزلت عن دابتى وشربت من ماء البرك على الرغم من انه لم يكن نظيفا تماما • وكانت تربة الحدائق التى تروى بواسطة هذه البرك بيضـــاء ملحية تماما كتلـك التى ترويها العيون • وطارت حولنا اعداد من طائر غريب يشبه السمان ، الا ان له ذيلا اطول • ولم أستطع أن أصيد واحدا منها فلم اكن احمل بندقيــة • والمكان يكثر به اشجار النخيل ، وتصنع مظلة معقولة للآهلين •

ولدى عودتنا الى المدينة ، لاحظت أن أسوارها ومنازلها يغلب عليها اللون الاخضر الباهت ، بينما تبدو القلعة ذات لون مائل للحمرة • ولاحظت أن تربة المناطق المحيطة بالمدينة تميل الى اللون الاخضر وجمعت بعض العينات منها • ويبدو على المدينة أنها ذات أهمية كبيرة ، اما اليوم فهى لاتعـــدو أن تكون أطلالا ، وفى تقديرى أن عدد سكانها ما بين خمسمائة وستمائة نسمة • فى الثانية ظهرا سجلت درجة الحرارة ١٩ • وأرسل الينا المرابط دجاجتين وقليلا من الخبز ، وشاركنا القائد الطعام • ولقد لاحظت بسرور بالغ أن صحة بلفورد قد تحسنت على الرغم من هزاله وضعفه •

١٧ ديسمبر الحرارة ٣٠° صباح غائم ، وريح شمالية شرقية ٠

زرنا القصبة ، أو القلعة وأطلالها ٠ ويبدو عليها انها كانت ذات اهميــة كاحدالحصون العربية ٠ وأخبرنى المرابط أنها شيدت قبل مرزق اى انها لابد وان تكون هناك منذ ستمائة عام ٠ ويقال أن خمســمائة بغــل من البغــال التى اشتركت فى نقل مواد البناء قد ماتت قبل ان يكتمل بناء القلعة ٠ومنذ ستين عاما خلت كان يسكنها احد اشقاء السلطان الذى حكم الاقاليم الشرقية ،وكان يسمى سلطان الشر ٠ ومن القلعة استطعنا أن نلحظ أن المدينة تشغل واديا يحــده النخيل جنوبا وتتاخمه الصحراء ناحية الغرب وجنوب الشرق ٠

ومواقع البلدان الاتية كما يلى : القليب El Glaib جنوب غرب على مسافة ثلاثة أو اربعة اميال ، بن خليف .Benn Gleif جنوب الغرب أربعة أميال ـ معفن .Mafen جنوب غرب ثمانية أميال ، الجبار .Zebbar جنوب أربعة أميال الزيتونة .Zaitoon جنوب شرق سبعة اميال ٠

وفى تراغن توجد أربعة مساجد ، كل به مئذنة صغيرة طينية ، وبعض منازل المدينة كبيرة ، الا أنها اصبحت أطلالا لتغير ظروف مالكيها ولقد كان منزل صديقنا يوسف أفضلها دون شك ٠

يعتقد الناس هنا أن التربة الملحية تناسب الذرة أكثر من غيرها،واميل شخصيا للاخذ بهذا الرأى ، خصوصا بعد أن أتيح لى أن أرى المحاصيل ٠

وفى الحادية عشرة قبلت دعوة المرابط لتناول الغذاء ، واهديته سكينا ومقصا وفى الواحدة الا ربعا ، تركت المدينة يرافقنى بعض من عبيد يوسف ، رافقونا بعض الطريق ثم عادوا ادراجهم ٠

وفى الرابعة الا ربعا بلغنا مجموعة أكواخ لا تزيد عن ثلاثين كوخــا بنيت من الطين وجذوع النخيل ، ويطلق على المكان الزيتونة ونصبنا خيامنا وسط الاكواخ ٠ وتجمع الاهالى حولنا ، والدهشة تمــلأ عيونهم ٠ وحينما اخبرهم القائد سعد أننا ضيوف الباشا انطلق الاهالى يذبحون كل طير تصل اليه أيديهم ، ولم تمضي ساعة حتى جهزت لنا وليمة فخرة ٠ وتضايق القائد كثيرا عنــدما اعطيتهم بعض المال ، فقد كان يخشى إن يعتاد الاهالى ذلك ٠

١٨ ديسمبر درجة الحرارة ٥° درجات بباب الخيمـة ، صبح صحو ، ورياح شرقية • أنتظرنا طويلا حتى أمسك الرجال بالجياد ، فقد قطعت اوتادها وهامت على وجهها بالصحراء • وتوقف حصانى عندما سمع ندائى ، وفى التاسعةوالربع تأهبنا للسير وتوجد على بعد ثلاثة أرباع الميل جنوب شرق زيتونة ، قرية أخرى تشبهها تماما ويسمونها «طويلة» ومررنا خلال «طويلة» ، واظن اننى صافحت كل سكانها الرجال • وبالقرب منها توجد اكـوام من بقايا بناء سـمعت انه كان قلعة ذات يوم ، وعلى الرغم من أن سورها كان سيء البناء فقد كان ملفتا للانتباه • وتركنا (طويلة) ، ومضينا عبر واد عار يلتقى بالصحراء شمالا، وعلى بعد ميلين الى يمين الطريق ، توجد كثبان رملية غير منتظمة • واتجهنا شمالا مع ميل الى الشرق قدره ٦٥ درجة • وهبت علينا عاصفة شـمالية شرقية • ولقد لاحظت انه عندما يكون الطقس باردا ، تكون حرارة الشـمس أكثر قسوة وتحرق البشرة ، وظهر أثر ذلك واضحا حول أنفى وأنف بلفورد وبدت فى شكل بقع حمراء مؤلمة • وفى الحادية عشرة دنت التلال الرملية منا وبلغنا مرة أخرى منطقة نخيل بالقرب من قرية تسمى مغوا Maghwa. واسترحنا بها قليلا بالقرب من أحد الابار ، حيث لحق بنا بشير الصـــقر وشقيق قائد تراغن • وفى الواحدة والنصف بلغنا منطقة تلال مرة ثانية ، وفى الثانية وعشر دقائق بلغنا قرية يسمونها طالب Taleb. بها ثمـانى عشرة شجرة نخيل وخمسة أو ستة أكواخ طينية • وأهدانا شيخها بعض البلح والماء الشديد الملوحة • وتسمى الجبال التى تفصل مابيننا وحميرة ب « قارة » ، وفى الرابعة وعشر دقائق مررنا بالقارة عن يميننا ، ومضينا طيلة النهار عبر منطقة حمراوية تماما باستثناء بعض القرى • وعند أحد الوديان زرنا بئرا يسكنها ابليس !! فالعرب لا يقتنعون بان الصدى الذى يخرج عن البئر يمكن أن يصدر لاى سبب آخر ••وفى الخامسة بلغنا حميرة Hamera. وكنت مجهدا تنتابنى آلام الكبد ، ووعدنى القائد بأن نستريح بالمكان ، وأن ننزل فى منزل السلطان • واضطررنا أن ننتظر طويلا وسط القرية حتى اعدت دار السلطان لاستقبالنا ، واضطررت الى أن الوح «بالتذكرة» ، فدبت الحياة فجأة فى الكل ، فبدوا أكثر نشاطا واهتماما بخدمتنا •

١٩ ديسمبر : اشتد بى المرض ولزمت الفراش ، وتجمع حول منزلنا كل سكان المدينة ، يحملقون فى الغرباء ٠

٢٠ ديسمبر : درجة الحرارة ٣٠ ْ٣

فقدت المدينة معظم أسوارها ، وتحطمت بفعل السنين ، والمدينة ذاتها تعطيك انطباعا بالبؤس والتعاسة،وتتوسط الصحراء تحيط بها بضع أشجار نخيل وبالقرب من الاسوار المتهدمة تنتشر الاعشاب الشوكية المخضوضرة ٠ وجاءنى الشيخ بزوجتيه المريضتين ، احداهما تشكو صداعا ، ومن عينيها المحتقنتين واستطعت أن أداويها ٠ أما الثانية فلم أستطع معها شيئا فقد كانت حالتها ميئوسا منها ، وطبقا لما قالته،وما ردده زوجها فانها حامل منذ ثلاثة أعوام وكثيرا ما سمعت عن حكايات كهذه (١) وفى تصورى أن النساء يلجأن الى هذه الحيلة حتى لا يطلقهن أزواجهن ٠ وجاءتنى السيدة كثيرا ، ولكنها كانت تخرج اكثر ضيقا ، فلم يكن لدى علاج لها وفى الحادية عشرة والثلث تركنا المدينة ، وفيما يلى بعض المواقع التى سجلتها :

(البدرى) El Bedere على مسافة ميلين شمال شرق أم الارانب على مسافة ميلين غرب جنوب الغرب ميلان وأم الارانب مسقط رأس الشيخ بارود ٠ ومن هنا تبدو Teweewa. طويوه ، جنوب غرب ميلين أو ثلاثة وطوال الطريق كانت الصحراء تمتد عن يسارنا كالمعتاد ، وعلى اليمين تتوائب التلال الرملية ٠

وكانت المرحلة الاولى من رحلة اليوم عبر واد عار ، ولمدة ساعة ونصف مرحلة مضنية خلال واد ملحى وقد تشققت الارض فى مناطق كثيرة بفعل حرارة الشمس مما أعطى لها مظهر بحر بنى هائج ٠ ومضينا نسير بصعوبة بالغة ٠ وفى الثانية الا ثلثا بلغنا قرية أم زيغن واسترحنا قليلا بها ، يبعد المكان نحو سبعة أميال ونصف شمال شرق حميرة ٠ ولقد لاحظت أن الوديان التى كانت تتخلل التلال الرملية كانت مغطاة بصخور هشة ٠ تشبه

---

(١) الغريب ان حكايات كهذه مازالت سائدة ويصدقها الاهالى فى الجنوب (المرجع) ٠

قطع الخزف الاصفر ، تحدث رنينا اذا طرقتها بقطعة حديد • وفى الثانيــة والربع أستأنفنا السير ، واتجهنا شرقا بزاوية قدرها ١٧° شمالا ، والتقينا ثلاثة من تجار «العقيلة» مكبلين بالاصفاد يرافقهم ثمانية جمال تحمل بضائعهم التى جاءوا بها من مصر ، وقد قبض عليهم لدى دخولهم زويلة وفى الساعة الرابعة ، مررنا بتل يتربع عن يسارنا ويمتد شرقا وغربا لعدة أميال ويسمونه منقــــار Mengar وبعض أشـجار الطلـح تتبعثر عنـد أقــدامه ويقال عن هذه الاشجار «نكتة» اذ يقال أن أحدهم جاء الى هذا الموقع وبه خوف شديد من أولاد سليمان ، وأعماه الخوف فظن هذه الاشجار فرسانا، وهرول فزعا الى أهل زويلة ينبئهم بالخبـر • وعلى الفـور قام أهل زويلة بابعاد الاطفال والنساء وخرجوا وساروا شوطا طويلا قبل أن يكتشفوا أن العدو لم يكن سوى بضع أشجار •وعبرنا واديا ملحيا ثانيا ، وفى الخامسة وعشر دقائق بلغنا زويلة ، وعلى اليمين واليسار نجد أكوام الحطام بالقرب من الاســوار ، وعلى منطقـة مرتفعـة كان رجـالات المدينة وهم شرفاء (١) فى انتظار قدومنا للترحيب بنا • وأوصلنا الرجال الى منزل فخم ، وجاءنا عـدد كبير من الزوار ومعهم المؤن من كل الاصناف والاوصاف وكلما تقدم أحدهم بما أتى به شكره القائد سعد ببضع كلمات واستبد بى المرض هنا ، وآويت الى فراشي تاركا الحشد يستمع الى الاعاجيب التى يحكيها القائد عنى وعن بلفورد حتى صنع منا ابطالا •

٢١ ديسمبر درجة الحرارة المسجلة فى التاسعة صباحا ٧° درجات لزمت فراشي وزارنى عدد كبير من الشرفاء ، وأرسلوا الينا أثنى عشر طبقا من اللحم والحساء وبعضا من الخبز • وأستطاع بشير والقائد أن يأتيا على الطعام كله • ولم أستطع أنا وبلفورد أن نذوق شيئا ، فقد أفقدنا المرض والتعب كل شهية•

٢٢ ديسمبر درجة الحرارة ٩° رياح شرقية شمالية شرقية وعند الساعة الثانية ظهرا اصبحت درجة الحرارة ٢١° ، وتحسنت حالتى قليلا لتهاجمنى نوبة حمى قاسية وأصبح طحالى أكثر ايلاما ، ولم أستطع الرقود • وفى

---

(١) شرفاء هنا تعنى أنهم من نسل النبى عليـه الصلاة السـلام كما تردد فى الـكتاب أكثر من مرة (المعرب) •

المساء تحسنت حالتى ، وجاءنى عدد كبير من الاهالى يطمئنون على ، وليتفرجوا على ما احمله من «خوارق» ولعل البوصلة وعلبة الثقاب المطلية بالفوسفور أكثر ما أثار دهشتهم • وجاءنى الشريف محمد على متاخرا ، وكان لابد أن أعرض عليه البوصلة والثقاب وشكرنى كثيرا وجاملنى لتحولى الى الاسلام ، ودعانى الى المسجد الاكبر يوم الجمعة التالى •

ان كل سكان زويلة تقريبا من البيض ، وهم شرفاء ، لا يتزاوجون مع الاخرين ، وهم يعتزون بنسبهم لمحمد « صلعم » • وهم بدون شك أكثر أهل فزان كرماوهدوءا ووقارا ، ويكشف مظهرهم عن ذوق سليم • ولقد لاحظت هذا المساء أن هؤلاء الناس كما هو حال كل العرب والسود ، يعبرون عن أعجابهم بالضحك وهو عادة ما يكون مصحوبا برفع ظهر اليد المغرورة الى الجباة ، وكلما تعاظمت دهشتهم ازداد مرحهم الصاخب •

٢٣ ديسمبر درجة الحرارة ٩° الرياح شرقية •

بلغ حب الاستطلاع عندى مداه هذا الصباح،لرؤية دجاجة غريبة حدثنى عنها الشريف محمد الدهبى فى الليلة الفائتة ، ونسج حولها حكايات مشوقة وصفها بأن لها ريشا أبيض ، ويبلغ طولها قدما ونصف وتختال فى مشيتها وكان الرجل قد أحضر دجاجة وديكا من القاهرة ، والغريب فى الامر أنه بالرغم من أن الديك كان يصيح عاليا ويكره الديوك الاخرى ، كانت الدجاجة تصيح أيضا كالديك غير أن بيضها كان كبيرا • وطبق البيض الذى قدم لى لم يكن يزيد عن خمس أو ست بيضات من بيضها ، وظننت للوهلة الاولى أن به عشرين بيضة على الاقل • وتجمع الرجال ليشهدوا الدهشة فى عينى حينما أراها • وبينما مضى سيدى محمد ليحضرها سرد الاهالى أكثر من حكاية عنها • وحينما وصل سيدى محمد فى النهاية ، توسل الى الناس ان يفسحوا له مكانا ، واتجه نحوى وملامح الاهتمام على وجهه ، وكشف العباءة لتقفز منها أوزة •• ومضت تسير متبخترة ، ولخيبة أمل الجميع استلقيت على قفاى من الضحك •

ومضينا خارج المدينة لنرى الاطلال القريبة التى كثر الحديث عنها بعد رحلة هورنمان ، والتى لم يرها هورنمان نفسه ، ولم يسمع عنها •• فيماعدا

بناءين او ثلاثة من الطين بناها العرب الاوائل • ولعل اعظم هذه الاثار من وجهة نظر _ «الشرفاء» هو المسجد العتيق ، ويقع على بعد نصف ميل غربى المدينة • وهو عبارة عن مبنى مستطيل كبير بنى منذ زمن بعيد ، على الرغم من انه عربى الطراز دون شك • والحوائط مبنية باتقان ، لا يعرفه الناس الان ، شيد من الطوب وتغطيه طبقة من الطين • وفى الطرف الشمالى الغربى تنتصب مئذنته ، وهى متهدمة تماما لكنها مازالت مرتفعة بحيث تشرف على مشـــــهد عريض للمنطقة المحيطة • ويبلغ طول المسـجد من الداخل حـوالى ١٣٥ قدما ، ويبلغ عرضه ٩٠ ، وهى دون شك مقاييس هائلة اذا قيست ببنايات العرب • وعلى الرغم من ابعاد هذا المسجد ، فالسقف لا يعتمد على أعمدة أو حوائط داخلية • أما اليوم فقد سقط السقف تماما ، ولا يمكن التكهن من أى مادة كان مصنوعا • ويوجد به قبلتان ، ثبتت احداهما فى جـــدار داخلى ، والاخرى بنيت فى حـائط رئيسى وعلى هيئـة منبر ، وربمـا بنيت ليخاطب منها الامام الحشود التى تتجمع فى فناء المسجد • وهى عادة شائعة فى رمضان ، وفى الميلاد وفى الاعياد الدينية الاخرى •

وتركنا المسجد ، وذهبنا الى منطقة تبعد عن المدينة بنصف ميل ناحيـة الشرق لنرى خمسة مبان • وتقف المبانى كل يواجه الاخر ، وبينها يمتد ممر عرضه ثلاثة أو اربعة اقدام • والمبانى ذاتها مربعة ، طول ضلع كل منها ٢٠ قدما وارتفاعها ٣٠ قدما ولها أسطح على هيئة قباب • وبكل مبنى نافذتان واحدة قريبة من الارض ، والاخرى مرتفعة وضيقة • ولعل مواد البناء هى من الطوب المجفف فى الشمس مغطى بطبقة طينية • ويرتفع الطوب حتى منتصف البناء ، ثم تليه أحجار حمراء غير مستوية ، لا شك أنهم قطعوها من الجبال المجاورة وعلى أية حال فان بعضا من هذه الاحجار مازال متماسكا

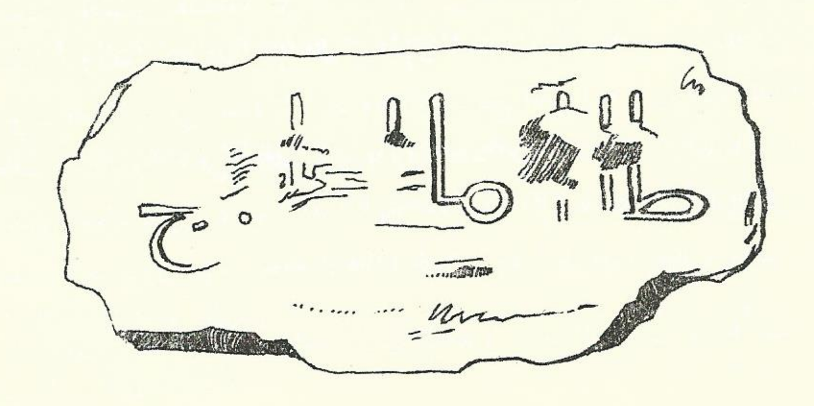
اما البناء من الداخل فهو فارغ تماما ويبدو انه لم يكن به حوائط داخلية ولقد دهشت حينما علمت أن هذه المبانى كانت أضرحة الشرفاء الذين عاشوا هنا منذ خمسمائة أو ستمائة عام • ويضم كل مبنى رفات أحد الشرفاء ، وكل ضريح مزين _ حسب العادة _ بقطع الفخار والملابس وبيض النعام

ويكن اهالى المكان الاحترام كله لهذه المبانى ، ويحكون حكايات مشـــوقة عن الموتى الذين يرقدون فيها •

أما عن الكتابات التى تزين هذه البنايات ، فتروى عنها قصصا طريفة ، وما زال مبنيان منها محتفظين بهذه الكتابات وان كانت فى طريقها للزوال الان

وأهل زويلة شأنهم فى هذا شأن المغاربة جميعا ، يعزون أية كتابات أو نقوش غريبة إلى المسيحيين ، ليكون مبررا معقولا للحكايات الخرافية التى يتناقلونها •• وتوجد النقوش على الجزء الاعلى من الحوائط ، وهى منقوشة على جوانب البناء لا على واجهته مما يجعل أمر رؤيتها وقراءتها عسيرا نظراً لوجود المبانى الاخرى القريبة ، ولا توجد مسافة كافية للرجوع الى الخلف ورؤيتها بوضوح • وربما كان أقل هذه ألنقوش اتقانا ، مكونا من سطر أو سطرين على أرضية مربعة من الاسمنت الابيض طولها قدم واحد • أما النقوش الاخرى فارضيتها قدميها وقوامها الجبس والحصى ، وهناك حروف كبيرة غائرة بها ، تبدو كأنها كتابات عربية ، ولكنها ليست واضحة تماما •• وقال الشرفاء ان هذين النقشين هما الوحيدان الباقيان ، وقد كتبهما المسيحيون بعد وفاة نوح بوقت قصير — ولم يحاول أحد أن يفك رموز هذه الكتابات واكتفوا بالاعتقاد بانها مسيحية الاصل •

وفيما يلى بعض الحروف التى نقلتها والتى أعتقد انها تبرهن بجلاء على أن هذه المبانى عربية الاصل • ويوجد تحت هذه «الاشكال» افريز «كورنيش» رقيق متقن عليه بعض الرسومات الصغيرة •



وقال لى أحدهم ، انهم وجدوا أوراقا ومخطوطات بين انقاض هذه الاطلال ، ولكن أحدا لم يتمكن من افادتى بمكانها واسم من وجدها .

وعند عودتى ، مضيت لاتفقد القلعة .. أو انقاضها ان صح التعبير ، وهى تحتل مساحة كبيرة وسط المدينة . ولابد أن حوائط هذه القلعة كانت هائلة ، فقد لاحظت أن عرض بعض مواقع من الحائط تبلغ ثلاثين قدما ، وبنيت على رار منازل طرابلس . وبالقرب من المدينة ، سقط حصانى فى فتحة فى الارض ، ودفعنى مظهرها لاختبارها ، فوجدتها مقبرة ، وبدلا من أن تشبه المقابر المعتادة التى توجد فى مرزق ، وجدتها على هيئة قبو . والجدير بالذكر أن كل مقابر زويلة تقريبا بنيت على هيئة أقبية . ويوضع الجسد فى القبو المنحوت ولهذا فانه لا تردم سوى فتحة المقبرة . وحوائط زويلة الحالية بنيت من نفس مادة بناء القلعة ، ولا يوجد بالمدينة سوى بضعة منازل جيدة . الا أن بقايا أطلال المدينة ، تعطى انطباعا بأنها كانت مدينة عظيمة ومشيدة بطريقة أكثر تطورا من المدن العربية بصفة عامة . ويتباهى الاهالى بأن باب زويلة كان بمصر ، ودفعنى هذا الادعاء الى استنتاج ان ربما كانت بمصر مدينة اطلق على احدى بواباتها اسم زويلة ، ونقله العرب حرفيا(١) . ويطلق العجائز لفظة «زيلة» على المدينة وذلك بدلا من زويلة . ويوجد بالمدينة ثلاثة مساجد كبيرة ، ولكل منها ثلاثة مداخل .

٢٤ ديسمبر درجة الحرارة ٨°

وافق اليوم يوم الجمعة وذهبت الى المسجد للصلاة وقابلنى الجميع بحفاوة عظيمة على الرغم من انى لمست الشك فى عيون البعض ، وطفق كثير من الرجال يراقبون « طريقة » صلاتى . وبعد الصلاة تجولت مع الامام فى انحاء المسجد ، وكان الشيخ فخورا به ، وحقيقة فقد كان أنظف مسجد رأيته فى الاقليم كله . وفى هذه الاثناء التصق بنا أحد المرابطين وأبدى اهتماما نحوى ، مما أكد للناس أهميتى ، فلم يحدث أن أعطى الرجل اهتماما لاحد دون أن يستحقه – هكذا قالوا – ومرابطنا هذا يدعى (أبوموسى)

---

(١) باب زويله ، هو اسم أحد أبواب القاهرة ، ومازال الاسم معروفا للعامة حتى اليوم (المعرب) .

وقد أخبرنى الشيخ أنه ضرب أباموسى لسبب ما ، وسرعان ما انتقم منه «ابوموسى» فقد رأى الشيخ ليلتها فى منامه .. رأى ابليس وحوله عدد من الشياطين وفى وسطهم يقف «ابوموسى» منتصبا ، وقد تعاظم حجما وطولا .. وضرب الشيخ فى منامه ضربا مبرحا .. وتاب الرجل بعد ذلك عن ايذاء «أبى موسى» .. كيف لا .. وهو ولى من أولياء الله الصالحين !! وحدث أثناء احدى غزوات صيد العبيد ، أن نفذ الماء من الرجال ، وأحدق الخطر بهم وبماشيتهم .. وظلوا دون ماء مدة يومين كاملين .. وتذكر رجل من أهالى زويلة الشيخ أباموسى ومعجزاته وتوسل اليه أن يصلى لله ليفرج عنهم .. وفى منامه رأى الرجل «اباموسى» يشير الى مكان معين فى الجبل ، وأكد له أنه سيجد ماء هناك .. وذهب الرجال الى المكان ولدهشتهم وجدوا ماء كثيرا يكفى الجيش بأكمله !

ويطيب لى أن أذكر بعض أسماء « الشرفاء » الذين أحاطونى بحدبهم ، وكرمهم .. محمد بن على ، على الهندى ، عبد الرحمن ، على أبوبكر ، ومحمد الدهبى . وهؤلاء جميعا تربطهم وشائج الرحم ، وكانوا - والحق يقال - مهذبين كرماء ، ولم يطلب واحد منهم منى شيئا . وذبح لنا القائد سعد شاة ، وأعدها لتكفينا بقية الرحلة حتى «قطرون» ، وساصف فيما يلى الطريقة العربية التى أعدت بها الذبيحة .. خلص القائد الشاة من الشحم ، وقطعها قطعا صغيرة ، وأذاب الشحم وعبأه فى جرة . اما اللحم فقد خلطه بالبصل والثوم دون ماء ، وترك فى الاناء ما بين ثلاث وأربع ساعات ، ثم رفع ووضع فى قربة من جلد الماعز .. ويحفظ الشحم ليضاف الى الكسكسى والبازين والاطباق الاخرى . أما اللحم - وقد أعد بهذه الطريقة فانه يظل طازجا لمدة اسبوعين أو ثلاثة .

٢٣ ديسمبر - اضطررت لان استأجر جملا آخر ، فقد كان علينا أن نمضى فى رحلة لمدة ثلاثة أيام ، ولابد من ماء لنا ولجيادنا ، ولابد من جمل يحمله ، ويحمل المؤن الكبيرة التى أهداها الينا الاهالى من «زميطة» و « دويدة» ، ومن تمر ودقيق ومأكولات اخرى .

٢٥ ديسمبر - درجة الحرارة ٩ فى الحادية عشرة الا ربعا . رافقنا الاهالى

الطيبون حتى بمشارف المدينة ، ووعدونا باللقاء من جديد فى مرزق •

تحسنت حال بلفورد كثيرا ، أما أنا فقد بقيت على ضعفى الشديد وامتد طريقنا عبر أعلى التلال وأكثرها تعرجا وصعدت الجياد التل بصعوبة ، وكنت مجهدا لا أقوى على السير واضطر بشير الى أن يجذبنى جذبا لاصعد المنحدر • وفى الثانية عشرة الا ربعا ، تجاوزنا التلال وبلغنا سهلا رمليا كثيفا ، ظللنا نعانى من السير به طوال أربع ساعات كاملة ، الى أن بلغنا تربو Terboo ولعلها كانت أكثر القرى التى شاهدناها بؤسا وفقرا • ويكاد أهلها رجالا ونسا ، أن يكونوا جلدا على عظم ، ومع هذا فقد كانوا مضطرين لاطعامنا واطعام دوابنا دون مقابل • واشتريت كمية من الذرة ووزعتها عليهم ، وأخبرونى اننى أول شخص من عبد السلطان يأتى الى ذلك المكان • لا شىء يفوق المكان سوءا سوى مائه ، فهو مالح كأنه ماء البحر • وفى وسط الاكواخ يرتفع بعض الحوائط مسافة اثنى عشر قدما ، وهم يطلقون على هذه الحوائط اسم القلعة • ولا يوجد بالمكان نخيل كثير ، ويعيش الاهالى تقريبا على رعى الجمال التى ترسل لترعى فى مراعيهم ، ويتقاضون أجرا ضئيلا من الذرة او البلح •• وسرنا مسافة عشرة أميال •• ووافق اليوم احتفالات « عيد الميلاد » وشربت أنا وبلفورد قدحا من القهوة نخب أصدقائنا فى انجلترا •

٢٦ ديسمبر درجة الحرارة ٤٠ ٣° •

صبح رائع ، بارد واشعلنا بعض نار ، ورأيت مشهدا غاية فى الغرابة •• جاء أحدهم الى حداد القرية يسأله علاجا لالام كبده ، وكان قد كواها أكثر من مرة حتى لم يبق موضع فى بطن الرجل دون كى • وحين اكتشف الحداد ذلك أشار على الرجل أن يكوى ثلاث مرات على ظهره •• وأكد له أن الامه ستذوب على الفور •• وأحسست بالالم ، وطلبت من المريض أن يتبعنى ، وأعطيت له بعض الدواء ، ولكنه رفض أن يأخذه ، ولا شك أنه دفع للحداد بعض الذرة ليكوى له ظهره فى صباح اليوم التالى •

ويمكن من هذا المكان ـ تحديد مواقع بعض الجبال كما يلى :

منقار مجدول Mangar Mejdool. جنوب ٧٥° غرب ، (منقار)

Menga أم الصغير جنوب غرب ميلين ، منقار التربو Terboo شمال شرق ، ميل واحد • ولحقنا بالجمال فى العاشرة والنصف عند « أم الصغير » على بعد ثلاثة أميال ونصف جنوب غرب «تربو» • ومررنا بضريح أحـــد الاولياء ، وكالعادة توقفنا لقراءة الفاتحة واسم « المرابط سيدى سيد الطـير » وسـمى هكذا لانه ـ كما يقول أهل المكان ـ يظهر عصر كل جمعة على هيئـة طـائر اخضر جميل الا أنه لم يظهر الا لبعض معارفه وأشقائه المرابطين •

سرنا عبر وادى ملحى وبلغنا بضع أشجار نخيل مبعثرة ، ومررنا بواد أكبر وفى الواحدة وخمسين دقيقة بلغنا مجدول Mejdool. ومجدول قرية صغيرة أكواخها طينية متلاصقة يحيط بها سور ولها قلعة ويبدو على الاهالى هنا أنهم أكثر أهل فزان حيوية والفة • وخلف المدينة تمتد سلسلة جبال من «تربو»، حتى تلتقى « بمنقار » •

وفى المساء أرسل لنا الاهـالى وعاءا كبـيرا من « اللاقبى » ووأضـح أنهم مغرمون كثيرا بهذا الشراب المسكر •• وجاءنا خمسة أو ستة رجال مخمورين وجلســوا الينا دون دعوة • واسـتطاع القائد سـعد أن يبيع كمية كبيرة من الطباق الى النساء ، وكان قد أحضرها من « زيزو » واستأجرنا دليلا للطريق ، فقد كان صديقانا لا يعرفان الطريق •

٢٧ ديسمبر درجة الحرارة ٥° فى التاسعة والنصف صباحا • غادرنا المكان ومعنا ماء يكفى ثلاثة أيام • وكان الطريق يمتد عبر سهل مفروش بالحصى ، تحيـط به الجبـال عن كثب • وفى الحـادية عشرة تقـاصرت الجبال • وفى الثانية عشرة وعشر دقائق بلغنا واديا صخريا يشبه فى لونه ومظهره الوعـر بعض مواقع من جبل السوداء • وعموما يمكن أن يقال ان كل جبال المنطقة تتكـون من قطـع البازلت السـوداء غـير المنتظمـة • ومر بنـا خمسة أو سـتة رجـال من رجـال التبـو المسلحين ، وكل واحـد يحمـل ثلاثة رماح خفيفة وقوسا • وكانوا أول رجال رأيتهم مسلحين على هذه الصورة • وفى الثـانية ظهرا هبـط بنـا الطريق الى واد مسـتو عبر ممر وعر شديد الانحدار • ويقع المرتفـع الجبلى الذى هبطنـاه فى أقصى الغرب من سلسلة

جبال السوداء المنخفضة التى تحيط بالمكان من الشرق . وتوقفنا للراحة قرب بعض أشجار الطلح ، حيث تقدم جملى المهارى نحوى وهو يرغى ويزبد ، وبدا كما لو كان قد فقد عقله واتزانه ، وأحسست بالخوف ، ولكن «بشيرا» طمأننى وأزال مخاوفى حين قال : لابد أن الجمل قد أكل بعض العظام ، ولم أكن أعرف هذه الحقيقة من قبل .

وفى الخامسة والنصف مساء ، نصبنا خيامنا على الوادى . والمنطقة حولنا مغطاة تقريبا بحصى صغير جميل فى حجم البازلاء وربما أصغر حجما . قطعنا اليوم ثلاثين ميلا .

ديسمبر ٢٨ – درجة الحرارة عند باب الخيمة ٥٠ ٤° . فى الثامنة الا ربعا صباحا مضينا عبر الوادى الذى لم ينته بعد ، وفى الثالثة والنصف بلغنا منطقة رملية تنمو عليها بعض شجيرات يسمونها (أمة آدم تفسرت) ولقينا رجلا من التبو ، ومعه ست عشرة جارية من « واداى » . ومررنا ببئر صغيرة شربنا منها وسقينا دوابنا . وفى السادسة والنصف بلغنا بئرا اخر ، ولكنا وجدناه منهارا . وجلسنا بجانبه نطهو طعامنا ، ويسمى البئر (بئر جفارة) . وأمسكت بجربوع صغير جاءنا يلتمس طعاما . وفى الطريق استطاع بشير أن يصيد غرابا بطلقة واحدة ، وراقبت القائد وهو يقبض عليه وتظاهر بأنه ينتف ريشه ، ولكنى اكتشفت انه انتزع رأسه ليحتفظ بها كرقية تشفى الام جنبه . وسرنا فى ذلك اليوم خمسة وثلاثين ميلا ، ونمنا على الرمال واقلقنا عواء ابن آوى .

٢٩ ديسمبر – درجة الحرارة ٣٠ ٢° . فى الثامنة الا ربعا صباحا تركنا البئر ومضينا عبر منطقة وعرة وفى التاسعة والنصف بلغنا بضع أشجار نخيل مبعثرة تحيط بعدة آبار تسمى آبار وادى الخير . ولحسن الحظ فقد كان لمائها مذاق طيب ، ورائع ، اذا قيس بماء مرزق . وآكد لى الرفاق نظافة الماء وأعددت منه كوب شاى شربتها دون سكر أو لبن – أشياء نسيناها تماما . وفى الثالثة والنصف ظهرا بلغنا مدينة القطرون ولحقت بنا الجمال فى الخامسة الا عشر بعد أن سارت عشرين ميلا .

وبقى بشير وبلفورد عند مشارف المدينة بالقرب من الحدائق لسقى الجياد • وذهبت والقائد سعد الى المدينة ، وكم ود القائد سعد لو أننا دخلنا المدينة تسبقنا الجياد حتى نعطى الاهالى انطباعا بأننا من علية القوم • ودهش القائد حينما قلت له : أن سلطان بلادى لا يخشى أو يخجل من أن يدخل مدينة ما دون حرس أو موكب أو جنود يطلقون النار تحية • وفسر القائد ذلك بأن ملكنا لا يود أن يبعثر بارودنا هباء • ومررنا بالقرب من منزل امرأة من التبو ، والمنزل تحيط به حديقة تنتصب منها أشجار النخيل وتوقفنا على مقربة من أسوار المدينة •

وتحيط بقطرون تلال رملية بنيت فوقها أكواخ التبو من خشب النخيل • ويبدو عليهم أنهم مجتمع منعزل • ويسمى أهل المدينة أنفسهم بالفزانيين ، على الرغم من أن لغة (بورنو) أكثر شيوعا لديهم من اللغة العربية •

لما كانت الليلة هى ليلة المولد النبوى ، فقد كان كل شىء يبشر باحتفال رائع • وتجمعت بنات التبو الصغيرات يلبسن أبهى حللهن ، وكن أنيقات جميلات تختلف أرديتهن عن لباس أهل فزان • ووقفت اتأمل الفتيات وأنوفهن المعقوفة وأسنانهن البيض النظيفة وشفاههن الرقيقة كشفاه الاوربيات ، وعيونهن المعبرة المؤثرة ، وبشرتهن السمراء •• ولهن قامة معتدلة ومشية رشيقة وأقدامهن وكواحلهن رقيقة لا يثقلها الاساور الثقيلة وانما خلخال رقيق من الفضة يضفى بريقا على بشرتهن الرائعة ، ويلبسن نعالا خفيفة •

وتغطى رءوسهن أغطية رأس متشابهة • وقد جدلن شعرهن الى ضفيرتين تسقط كل على خد كأنها مروحة أو كأنهما أذنا كلب كبيرتان • وكانت قطعة من الجلد تتدلى على جباههن ومثبتة فى الشعر وتغطى مؤخرة الرأس ، تتوسطها سلسلة تضم عشرين حلقا فضيا وتنتهى بقطعة فضية كبيرة من الخلف مثبت بها عدة جدائل من الشعر ، وعلى الجبهة تستلقى حلية فضية تتكون من حلقات عديدة وعلى جانبى الرأس تتدلى قطعتان من الذهب والعقيق وحلية أخرى تتدلى فوق الاذنين من المرجان والصدف أو العقيق مثبت بها أجراس

صغيرة تحدث أصواتا مبهجة أثناء الرقص ، وتثقل رقابهن عقود مزركشة ولباسهن مطرز عند الصدور • وزنودهن عارية حتى الأكتاف وتحت آباطهن حلقات فضية وحول الرسغ يلتف سواران أو ثلاثة ، ويتدلى من آذانهن ثلاثة أو أربعة أقراط فضية من مختلف الاشكال • وتضع كل واحدة منهن حلية من المرجان في فتحة الانف اليمنى ، وفي اعتقادي أنها لا تلائمهن كثيرا • ويتكون رداؤهن من «شال» كبير أزرق أو أزرق وأبيض ويلبسنه بطرق مختلفة ويطرحنه على أكتافهن ، ويلتف عبر الصدر ويكشف عن الظهر والزند العاري • ولباسهن هذا قصير جدا ولا يصل الا الى منتصف الساق ، ولكنه مع هذا لا يبدو مخجلا أو خارجا عن المألوف •

وظلت الفتيات يدرن في المدينة طول المساء يستعرضن رقصاتهن ولباسهن صحبهن آمهاتهن الفخورات ، وتجمعن في منزل مجاور ، وجلست على الرمال بالقرب من الباب أختلس اليهن النظر •

والمعتاد في هذه المناسبة أن ترقص فتيات المدينة في كل مكان ، وسرعان ما تعالى قرع الطبول وبلغت الاسماع موسيقى القرب ، وعند منتصف الليل تجمع بعضهن أمام باب دارنا ، وطفقن يرقصن ، تتقدمهن امرأة عجوز تحمل في يدها مصباحا ، وفي اليد الاخرى تحمل سعف نخيل ، وكانت العجوز تغني ، والفتيات يرددن وراءها كلمات الاغنية • ووقف ثلاثة رجال ينشدون ويقرعون الطبول بأيديهم بينما كانت الفتيات يتقدمن ويعدن الى الوراء مع النغمة • وفي الوسط وقفت الفتيات الاطول ، وشكلت الاخريات الاصغر سنا الجناحين ، والتف بهن الاهالي يدندنون •

وواضح أن الحركة الرئيسية في الرقصة هي حركة رشيقة من اليمين الى اليسار مع دقات الطبول ، وكل فتاة تمسك بطرف شالها ، والطرف الاخر يغطي الاكتاف وتتحرك الاقدام بخفة ، حركة واحدة ، من اليمين الى اليسار وتهتز الرءوس مع وقع النغمة • وعند اشارة معينة يركعن ، وتستمر حركة الرأس والغناء • ويرقصن جميعا في حركات منسقة ، ويبدون في لباسهن

المتماثل وحركاتهن الواحدة وكأنهن ساحرات • وسرعان ما تطفأ المشــاعل، وتخبو الاصوات ليعاودن الرقصة فى مكان آخر •

ونساء التبو لا يغطين رءوسهن ، على عكس النساء العربيات ، وهن يحتفظن بثيابهن فترة أطول مما تستطيعه العربيات • وهن نظيفـات وزوجـات بالمعنى الصحيح ، يعتنين بأطفالهن الكثيرين ، ويقضين ساعات فراغهن فى صــنع السلال ، ويصنعن أيضا أوعية للشرب والطعام من سعف النخيل ويزينهـا بقطع من الجلد الملون • ويمارسن عملهن فى صبر وذوق • ويعود أهــل فزان يحملون هذه السلال ، هدايا لذويهم • وبعد أن أفضت فى ذكر محاسن أهل التبو • لابد ايضا أن أكون صادقا لاتكلم عن ولعهم التشديد بالطباق • ويمكن القول أن كل الافواه لا تخلو منه أبدا ، ومع هذا فانك تجد أسنانهم بيضاء نظيفة ولعل ذلك مرجعه الى اعتيادهم على تنظيف أسـنانهم بعـد الأكل بفرشـاة •

ويبدو رجال التبو أكثر حيــوية ورشاقة ، ويتميزون بالهــدوء والذكاء ، وسرعة الخاطر ورشاقتهم مضرب الامثال • ويصفهم البعض بالطيور ، تميزا وفخرا • ويشتهر التبو الذين يسكنون جنوبى فزان بهدوئهم وتمدينهم • أما من يسكنون الدواخل فهم يعيشون أساسا على الغزو والسرقة ويمارسون قطــع الطــرق ويغـيرون على جــيرانهم • وهم ليســوا موضع ثقة • انهم ليسوا قساة وانما هم لصــــوص حمقى • وهم لهـــذا ينفردون بتجارة (وادای) و (باجرمی) .Baghermee ولا يجرؤ الغرباء على المـرور فى أراضيهم • وهم كفار يعيشون حياة فطرية ، يلبسون جلود الحيوانات ، ويسكنون الكهوف أو الاكواخ البائسة • وتوفر لهم جمال المهارى فرصة القيام برحلات غير عادية ، وهم لهذا يغيرون مواقعهم بصفة دائمة •

وخلال السنوات الماضية قام (التكنى) بالاغارة على كثير من مواقع تبوبرجو Tibboo (of ' Borgoo) وتبو القوار .Kawar وهم الان ينتقمــون من أى أبيض يقع فى أيديهم • وسلاح التبو الذين يسكنون الدواخل ، عبارة عن ثلاثة رماح خفيفة ورمح كبير وخنجر أو سيف ، وسلاح آخر يطلق القــذائف يسمى شنقار .Shangar أما تبو «قطرون» فسلاحهم نفس السلاح الســابق

تقريبا ، لكنه أفضل صنفا ، ويضيفون اليه فى بعض الاحيان غدارة • وتعتمد تلك القبائل فى طعامها على البلح واللحم • وهم لا يستخدمون فحما كثيرا ، ولا يعرفون صنع الخبز ، وتشكل حبوب الحنظل البند الرئيسى فى طعــام التبو وتبستى .Tibesty وقوار .Kawar ولا تعرف هذه القبائل عادة الوشم

وتلقى جوارى التبــو رواجا كبيرا فى أســواق مرزق نظرا لجمــالهن أما الرجال فليس لهم جلد على العمل الشاق •

٣٠ ديسمبر درجة الحرارة (٤°)

يقطن مدينة «قطرون» الفزانيون ، وهم جميعا سود • وكما لاحظت من قبل فان «التبو» يسكنون خارج المدينة ، ويبنون بعض الاكواخ والمنــازل • وهناك قلعة وسط المدينة ، تحيط بها الاســوار ويبــدو على «التبــو» انهم لا يختلطون بأهل المدينة ، ويشكلون مجتمعا منفصلا ويتمسكون بعـــــاداتهم القــديمة ولغتهم وطريقــة لباســهم • ويوجــد ب «قطرون» عدد كبير من المرابطين ، ويحظون باحترام أهل فزان • بلغت المدينة أنباء عن وجـــود صائدى (الغازى) (Ghrazzie)على بعد ثلاثة أو أربعة أيام عن المدينة،وارتفعت على الفور أسعار الغلال وبلغ سعر الكيلة (جالونين) دولارا كاملا • وتوقفت الراقصات الحسناوات أمام منزلنا فى طريقهن الى المدينة • ولابد أن اسجل هنا اننى لم أشاهد رقصا أكثر وقارا من رقصــهن •

وقمت بزيارة الحاج «رشيد» ، وهو مرابط عظيم شديد الدهاء ، وأمدنى بكثير من المعلــومات عن وادى التبســتى ، وعرض على أن يرافقنى الى كل قبائل «التبو» لو أعطيته ساعة ومنظارا • وكنت أنوى قبول هذا العرض ، ولكننى عدلت عن الفكرة تماما لتدهور صحة بلفورد ، ولم يكن بالتأكيـــد يستطيع أن يتحمل رحلة سبعة أيام أو أكثر دون ماء أو نار • وأعـــد لى المرابط طبقا من التابركة .Taberca وتصنع من حبوب الحنظل ، ووجدت الوجبة شهية وليس بها أى مرارة ، على عكس غلافها •

وحكى لى المرابط قصصا عديدة عن سكان جنوب التبو ، وولعهم بالسطو على ممتلكات الاخرين ، فربما سرقوا جملا فى المساء وما ان يطلع الصبح حتى يكونوا قد التهموه كله •

وفيما يلى بعض المعلومات عن التبستى كما سمعتها منه . يوجد فى التبستى عين كبيرة ماؤها ساخن يغلى كما لو كان على نار ، وقوام التربة التى توجد بها هذه العين هو الكبريت ، وفى مواقع كثيرة يمكنك أن تجد الكبريت نقيا . ويشرب الاهالى ماء العين كدواء شأنهم شأن الاخرين ، الذين يأتون الى المكان للغرض نفسه . وللماء مذاق لاذع ، وأكد لى الرجل انه اذا غسل أعمى عينه بهذا الماء فانه يسترد بصره على الفور ، كما يفيد الماء أيضا فى القضاء على الام الروماتيزم . ولعل وجود التربة الكبريتية ووجود العين يلقى بعض الضوء على أن جبال التبستى من أصل بركانى .

والطريق من تبو برجو الى واداى كما يلى :

(الاتجاه) : جنوب شرق الجنوب :

من بورجو الى كارمدى Karmedy يومان ، يوجد بئر ، من كارمدى الى باكليا Bakalia يومان يوجد بئر ، من باكليا الى بوشاشيم .Boushasheem (يومان وبحيرة) ، ومن بوشاشيم الى خرمة Kharma يومان وبئر .

جنـــوب

من خرمة الى سوبو .Soboo يومان (توجد مدينة للتبو بالطريق) ومن سوبو الى أم هاراجى Em Haraije يوم (توجد مدينة واداى بالطريق) من أم هاراجى الى كارمدى يومان ومدينة بالطريق .

كارمدى الى وارا .Wara ساعتان . وهذه المدينة هى مدينة « واداى » الرئيسية ومقر السلطان .

ولم ير المرابط (فترى) Fittre ، ولكنه وصفها بأنها بحيرة كبيرة زاخرة بالسمك وهم يجففونه ويملحونه ، وينقل لمسافات بعيدة حيث يباع ولم يقل المرابط انه كان هناك أى نهر يتصل بتلك البحيرة .

والطريق من « وارا » كما يلى :

من وارا Wara	الى فترى	Fittri	خمسة أو ستة أيام جنوبا
	الى موداجو	Muddago	خمسة أيام جنوب غرب
	الى بحر الغزال	Bahrel Ghazal	سبعة أيام جنوب غرب
	الى كوجا	Kaugha.	ستة أو سبعة أيام أو ثمانية أيام جنوب غرب

وهم يطلقون لفظة (موداجو) على بعض الجبال المرتفعة ذات الصخور السوداء أما لفظة باتالى .Battali فهى المناطق الواطئة الجافة ، والتى كانت قاعا لمجرى ماء كبير . واخبرنى الشيخ انه رأى هياكل عظمية لاسماك وحيوانات أخرى ، كما انه رأى صوفا وجذوع أشجار فيما يسمى ب «باتالى» تماما كما توجد هده البقايا فى بحر الغزال الذى يبعد عن «باتالى» بخمسة أيام شمال الشرق ومن يدرى فلعل (باتالى) كانت تتصل ببحر الغزال ذات يوم !! وقال الشيخ : انه لا يوجد أنهار أو حتى جداول صغيرة فى المنطقة الواقعة بين قطرون ووارا باستثناء مواسم المطر ، وفيها تتجمع المياه وتملأ الوديان فترة الامطار .

ويربى أهل «التبو» نوعا متميزا من الخراف والماعز تشبه تلك التى يربونها فى بورنو والسودان . وتتميز هذه الخراف بذيل طويل يصل الى الارض وهو ذو نهاية مستدقة . وتسمى هذه السلالة ب (مازقرى) .Majiggri وللمازقرى شعر كثيف اسود فى أغلب الاحوال . أما الماعز فهى أنيقة نظيفة لها شعر ناعم أملس لامع كشعر الخيول . ويتوفر الماعز بكثرة ويباع بأسعار رخيصة .

٣١ ديسمبر — درجة الحرارة ٤° .

حاولت أن أشترى غلالا ولم أستطع أن أجد ما قيمته دولار واحد . والملاحظ أن الذرة الهندية قافولى Caphooly تباع بنفس سعر القمح بفزان .

أعطيت صاحبة المنزل الذى نسكن به ، دولارا وهو مبلغ كبير . فشكرتنى كثيرا ، ومع هذا فقد طلبت منى بعض الزبد . وحينما كنت أعد أمتعتى تأهبا للرحيل جاءتنى تقول «ألن تعطينى قليلا من القمح أو الذرة ، أو أى هدية أخرى ؟ . انك ستعود مرة ثانية دون شك .. أنت تعرف ذلك .. » ولقد كانت المرأة بحق نموذجا لجشع التبو حيث سلوكهم مشابه تماما لسلوك أهل فزان ، ويقول مثل فى فزان .. أعط للمرزقى اصبعك فسيسألك عن ابطك ثم عن عظمة كتفك .

وحينما يلتقى أهل التبو بعد غياب ، فانهم لا يتصافحون كما يفعل العرب ،

وانما يجلسون القرفصاء ، امام بعضهم البعض ، ورماحهم فى أيديهم اليمنى ، ويحركون ظهورهم ويكررون لا .. لا .. لا وهى تحيتهم المعتادة ، وتعنى « السلام » ثم ينهضون ويقتربون من بعضهم البعض وينخرطون فى حديث طويل . ولغة التبو لغة سريعة جميلة ، بها كثير من الاصوات السلسة المائعة ، ولا تشبه أى لهجة زنجية أخرى . وجاءت كثير من نساء التبو يسألننى دواء للحمل ، بعضهن يطلبن أولادا وأخريات يطلبن بنات (١) وكنت مضطرا الى أن أخيب أملهن ، وقلت لهن انه ليس لدى ما يطلبن .

ولم تصدق واحدة منهن ذلك ، وربما افترض اننى لا أريد افشاء السر الى الغرباء أما فى بلادى .. بلاد النصارى فلا شك أن الجميع يعرفونه .

وسأعرض فيما يلى بعضا من مفردات لغة التبو :

Trono	ترونو	واحد
Chew	شيو	اثنين
Agozoo	أجوز	ثلاثة
Tuzzaw	توزاو	أربعة
Fo	فو	خمسة
Dessee	ويسى	ستة
Tootoosoo	توتوسو	سبعة
Oossoo	أوسو	ثمانية
Issee	ايسى	تسعة
Mordum	موردم	عشرة
Woogghe	ووجى	طائر
Kokaiya	كوكايا	دجاجة
Gooroo	جورو	ابريق
Eery	ايرى	يأتى
Yustoo	يوستو	يذهب
Kortoo	كورتو	يحضر
Oonee	أونى	نار
Eee	اى	ماء
Tibbi	تيبى	طعام
Yinni	يينى	لحم
Timbi	تمبى	بلح
Hadinni	هادينى	خراف
Gillayli	جيلايلى	ملح
Enguddi	انجودى	وجه

(١) تخطب فتيات التبو قبل الزواج ، كما هو الحال عند العرب .

Dafoo	دافو	رأس
Kay	كاى	ذراع
Afhirri	أفيرى	كتف
Askee	أسكى	جواد
Farr	فار	بقره
Augrr	أجور	بغل
Gonee	جونى	جمل
Toogoo	توجو	شمس
Winnighi	وينجى	ساخن
Wow	واو	بارد
Gherra	جيرا	دم
Soorroo	سورو	عظام
Gon	جون	يأخذ
Yerroo	ييرو	أرز
Woo	وو	يأكل
Ia	آيا	يشرب
Aka	أكا	خشب
Aai	أى	حجر
Trri	تيرى	حسن
Zuntoo	زنتو	سىء
Aaih	آيه	رجل
Adi	ادى	أمرأة
Do	دو	بنت
Kallih	كالى	ولد
Borkono	بوركونو	فلفل
Awana	أوانا	يد
Soaa	سوا	عين
Ichee	اشى	فم
Tche	تشا	أنف

١٣ ديسمبر عام ١٨١٩

استأنفنا المسير فى الثانية عشرة ، وقابلنا حوالى خمسين فتاة يلبسن زيا أنيقا نظيفا ، ويرقصن ، يتقدمهن رجلان يضربان الطبول . وتقدم الجمع نحونا وأحاطوا بجيادنا وأخذ الجميع يغنى أغنية جماعية .. وفجأة ، وبدون مقدمات ، أطلق «بشير» بندقيته وهجم عليهم بحصانه كما لو كان فى غزوة لصيد العبيد ، وتفرق شملهم مذعورين .

وموسيقى التبو وفزان تتكون أساسا من الطبول ، وهم يصنعونها من جذع النخيل يجوفونه ، ويفردون رقعة من الجلد على فتحتيه . ويضربون بأيديهم

على ناحيــة ، وبعضــا على الناحية الاخرى • وتسمى الطبلة دنقــا Gongaa ولديهــم أيضــا القرب الموسـيقية البدائيــة ويســمونها الزكرا Zuccra ، ويستخدمون طبلة أخرى أصــغر من «الدنقا» وتســمى دبدبة أى ظبظبة (١) Dubdaba

الطريق رملي تماما وتتبعثر هنا وهناك بعض شجيرات ، وبلغنا قرية الباخى El Bakkhi فى الثانية ظهراونصبنا خيامنا بالقرب من منزل شيخ القرية ، وهــو مرابط أيضا•وشربنا من البئر القريبة ، وماؤها جيد نسبيا • واستقبلنا ابن الشيخ الغائب بحفاوة • والمكان من حولنا كأنه فردوس ، على صغره ، وسط صحراء عريضة تمتد كبحر لا نهاية له ، وتعطيك انطباعا مختلفا • وبدت نساء الواحة الصغيرة ــ كما فى قطرون ــ منهمكات فى صنع السلال •

١ يناير عام ١٨٢٠ درجة الحرارة ٥° •

كان صباح عامنا الجديد جميلا ، وأحسسنا اننا أكثر حيــوية • وفى الثــامنة والربع تركنا المكان بعد أن أهديت ابن الشيخ سكينا وبعض الخرز • ومضــينا حتى العاشرة والربع ، بلغنا مدروسة .Medroosa وهى قرية صغيرة نظيفة • بلغناها بعد أن سرنا ستة أميال جنوب غرب الجنوب • وحينما بلغنا مدروســــة وجدنا كمية كبيرة من « اللاقبى » فى انتظارنا • اشــتراها لنا القــائد • وأبتعت بلحا للجياد • وانتظرنا وصول الجمال ، ثم تابعنا السير ، وبلغنا بئرا خـــــارج المدينة ، وشربت الجياد • وبالقرب من البئر كانت هناك عدة حفر يستخدمهـــا الاهالى فى صنع القار (القطران) وطريقتهم فى ذلك كما يلى •

يدفن وعاء فى التربة وفوهته الى أعلى ، ويغطى بقطعة من فخار بها ثقب صغير ويأتون بجرة كبيرة يملأونها بالعظام ونوى البلح ، وتسد فوهتها باللحاء والخشب وتوضع هذه الجرة على الوعاء وثقبها الى أسفل • وتشعل نار قوية وينتظــــرون فترة حتى تمتلىء الحفرة بالرماد الاحمر • ثم يرشح القطران فى الوعاء الاسفل ليصبح جاهزا للاســتعمال • وهم يســتخدمون فى تنظيف جلــد القرب ذلــك المعجون الذى يشبه قار الفحم فى الرائحة والمظهر ، كما يستخدم لعلاج امراض الجمال الجلدية •

---

(١) جاءت فى النص الانجليزى هكذا وبحروف عربية (المعرب) •

ولقد لاحظت ، بعد أن تركت «القطرون» ، أن كل رجل رأيته كان مسلحا بحربة ، فضلا عن خنجر يتدلى من حزامه •

وفي الرابعة والربع ، بلغنا بئرا يقال لها كاساروا Kasarwa وأخرت وعورة الطريق الجمال حتى السادسة والربع ، وكنا قد قطعنا أربعة عشر ميلا جنوب غرب مدروسة • ولم يكن ضروريا أن ننصب خيامنا ، فقد وجدنا بعض أشجار النخيل واسترحنا في ظلها • وفي ضوء القمر ، وفي الليلة الاولى من أيام العام الجديد ، تناولنا وجبة بازين !! •

ينمو نبات السمار «ديزا» بكثرة وبينما كان يطهى طعام الغذاء جمعنا بعضا منه لخيولنا • ولا تقدم الخيول على أكله ويحتاج المرء لضرب الدابة حتى تأكل منه • وتجلب القوافل التي تعبر جبال التبستي هذا العلف من (تفرى) لاطعام الخيول والجمال •

فاجأنا القائد بدجاجتين حصل عليها دون مقابل ، بغير علم مني ، كترضية لنا بعد أن أخفقنا في شراء جدي •

ونظرا لانه من المعروف عن التبو انهم يسطون على القوافل فقد أعد كل منا سلاحه واشعلنا نارا كبيرة أمامنا وجلسنا نتوجس خيفة • ألا أن مخاوفنا لم يكن لها ما يبررها فلم يزعجنا سوى حملات الفئران البرية •

٢ يناير درجة الحرارة ٤٠ ١° •

ولقد كانت درجة الحرارة هذه ، هي أدنى درجة سجلناها في فزان • ونتوقعنا أن يسقط الثلج قبل أن ينصرم فصل الشتاء • ولقد كان الطريق ـ منذ تركنا قطرون ـ عبارة عن شريط ضيق لا يزيد على ثلاثة أو أربعة أميال ، وفي بعض الاحيان لم يكن يزيد على نصف ميل ، تحيط به الصحراء اللانهائية من كل ناحية •

وفي المساء اختفى جملنا ، وطفقنا نبحث عنه في كل اتجاه • وسواء اكان قد سرق ، أم اختفى طواعيه ، فقد كان حادثا مزعجا على أية حال •

ومنعتني نوبة حمى من أن ارافق الجماعة بحثا عن الجمل ، وفي الثانية صباحا عاد السائق به •• ان قدرة العرب على اقتفاء أثر حيواناتهم قدرة هائلة دون شك •• وتدعو للدهشة •

واستأنفنا السير • ومن فوق ربوة عالية ، لاحظنا أن هناك بعض التلال تحيط بالصحراء على بعد ، من شمال الشرق الى الجنوب • وأرتفعت درجة الحرارة الى ٢٥° ، ومررنا فى الثالثة والربع بقلعة قديمة تسمى قصر حليم Hallem. وفى السادسة والنصف بلغنا تجرى أو تغرى أو تجرهى Tegerry وتعتبر الحد الجنوبى لفزان • واستأجرنا منزلا مناسبا ، وكان الوحيد المشيد وسط حوائط القلعة القديمة • واستطعنا هنا أن نجد مكانا يصلح لايواء جيادنا • واسترحنا من تطفل الناس حيث لا يستطيع أحد أن يأتى ويحملق فى وجوهنا بعد أن أصبح بوسعنا أن نغلق باب القلعة ليلا •

الفصل السادس

٣ ينـاير :

صعدت الى سطح المنزل قبل شروق الشـمس حيث سجلت درجة الحـرارة عشر درجات ولقد كان الطقس مختلفا تماما عن اليوم السابق • ومن قمـة المنزل تراءت لى القلعة • وبلغ سمك جدرانها عند القاعدة ثلاثين قدما ، وعند القمـة لا يزيد على عشرة أقدام ، وقـوام الجـدران كالمعتاد من الطين ، وبهـا فتحات للبنادق • كانت تهيمن على المدينة فيما مضى،لكنها اليوم لم تعـد سـوى حطام • ويوجد بالقلعة عدة آبار ، ويقـال أن ماءها جميعه شـديد الملوحـة • ويطلق العرب لفظة امبرازا Embraza على على فتحات البنادق ، واللفظة قريبة من الكلمة الفرنسية المرادفة قربا محيرا ، أذ يسميها الفرنسيون **Embrazure** ويوجد بالقرب من القلعة عدة برك كثيرة بها مياه آسنة ، تسبب فى ظهورها ، نزع الاهالى للطين لاعادة بناء جدران القلعة • ولا شـك أن هذه البرك تتسبب فى تفشى الامراض بالمدينـة وتنتشر أشـجار النخيـل داخل المنازل وحولها ، ويعيش الاهالى عيشة بدائية ونادرا ما يفهمون اللغة العربية ، فلغـة « بورنو » هى السـائدة •

وهنا تتوقف القوافل الوافدة من بورنو ووادای والسـودان ، لاخـذ بعض الراحة • ولهـذا فان الاسـعار باهظة ، ويبيع الاهالى بضاعتهم للتجار الذين أضناهم الجوع بالثمن الذى يفرضونه • ومن الصعب أن تجد فحما ، ويبـاع المكيال من الذرة الهندية أو من الشعير بدولار كامل • وفى تجرهى لا يدفن الاهالى التمر كما هو المعتاد فى مرزق وانما يضعونه فى أوعية داخل المنـازل ويغطونها بالرمل ، أو يفرشونه على أسطح المنازل دون خوف ، نظرا لانعـدام ميـاه الامطـار •

ومنذ بضع سنوات خلت كانت تجرهى مشهورة بالجرائم التى يرتكبها سكانها

حيث كانوا يسطون على المسافرين بل ويقتلونهم أحيانا ، ولم تكن القوافل الكبيرة تسلم من بطشهم حتى داهمهم المكنى وكسر شوكتهم •

وحين يضطر فزانى لان يطعم رجلا وحصانا ، فانه يعتبر نفسه أنه قد عومل معاملة قاسية ولكنه لا يجرؤ على الشكوى • غير انه هو نفسه ، لو أرسل من قبل السلطان لمكان ما على رأس خمسة أو ستة فرسان ، فانه سيأكل فى كل كوخ يقابله ويصر على اللحم طعاما له ولرفاقه جميعا ، وربما طمع فى بعض دجاجات أو خروف ، هذا الى جانب اثنى عشر أو أربعة وعشرين رغيفا •

وحينما كنت أرغب فى شراء شيء ، كنت أصر على أن أدفع مقابلا لما اشتريه على الرغم من نصائح الرفاق الذين يحاولون استغلال خطاب السلطان الذى أحمله ، فهو يعطينى الحق فى أى شيء أريده دون مقابل • وحينما كنت أمد يدى الى أحدهم بالنقود ، كانت تصيبه الدهشة لحصوله على مقابل للبضائع التى أمدنا بها بعد أن اعتاد أن يفرض عليه ذلك فرضا •

ولقد كانت بعض القرى التى نتوقف فيها ، لا تضم أكثر من بضعة أكواخ ، وكانت قافلتنا الصغيرة تضم ستة رجال وأربعة جياد وجملين ، ومع هذا فقد كان الطعام يعد لنا على الفور ، حتى أمرت الشيخ ألا يحاول أن يستغل الاهالى المساكين ويحملهم فوق طاقتهم • وقد اعتاد الفزانيون شرب الشحم الصافى أو الزبد ، أو الزيت بشراهة كبيرة ، ولهذا فان أغلبهم يعانى دوما من « الصفراء » •

وتقع «تجرهى» فى أقصى جنوب مملكة فزان ، والصحراء قريبة من المدينة التى تقع جنوب أشجار النخيل ، والجدير بالذكر انهم هنا لا يزرعون اللفت أو الفجل ، بينما يشكل الجزر والبصل محصولهم الرئيسى كما يزرعون الذرة ايضا •

اشتدت وطأة الحمى على بلفورد ، ولم يعد يقوى على السير ، وبت أخشى الا استطيع أن أكمل الرحلة حتى تبستى •

٤ يناير درجة الحرارة ٢° ، الرياح شمالية •

داهمتنى الحمى مرة ثانية ، وعاودتنى كالعادة آلام الكبد والطحال ولعل آلامى هذه هو خشونة البازين الذى نأكله بكثرة والذى يعد من ذرة رديئة نيئة •

واحضر لى الشيخ ثمرة دوم وهى نادرة فى فزان ، ويؤكل لحاؤه ، وهو جاف وصلب . أما النواة فهى صلدة ولا يمكن كسرها ، وربما قاومت ضربة مطرقة .. ويوجد هنا ثلاث من شجيرات الدوم . اشتريت سمكة جافة مطهية بالبخار فى النيجر ، وساخذها معى الى انجلترا .

بينما كنت نائما فى فراشى – هذا المساء – سمعت مواء قطة ، وتصور الرجال أن ذلك لابد وان يكون شيطانا .. وحاولوا فى البداية أن يأخذوا الامر على محمل الهزل .. ولكن أحدهم قال «ان القلعة بناء قديم ولابد أن يكون مسكونا» .. وأسرع بشير والقائد الى بنادقهما المحشوة ، وأطلقا عدة طلقات فى الهواء ، ولما كان ابليس يخشى الرصاص ، أو أى شىء يدخل فيه عنصر الكبريت فقد تجرأ الرجال وأخذ كل شعلة ، وخرج من الباب ليروا ماذا حدث لابليس . ولابد أن القطة المسكينة كانت قد ولت الادبار . ولدى عودتنا قرأ الجمال آية الكرسى ، وهى تعويذة فعالة وتقضى على الارواح الشريرة ، أبتداء من ابليس وصغار الشياطين حتى الغول والعفاريت .. وأعقب آية الكرسى ببضع آيات ، ومع هذا فلم يزاولهم الخوف جميعا .. كيف لا ؟ وهم مقتنعون تماما أن أبليس مازال يسكن المكان ولم ترضهم سخريتى من مخاوفهم ، وقالوا ربما لا توجد شياطين فى انجلترا ، ولكنك لا تستطيع أن تشك فى وجودها فى فزان ، فهناك الكثير منها فى كل بيت قديم . وعلى الرغم من ظهور القطة بعد ذلك ، فلم يغير هذا من موقفهم شيئا .

٥ يناير .. درجة الحرارة ٧° ، الرياح شمالية شرقية . تحسنت صحتى وصحة بلفورد هذا اليوم .

أستقيت المعلومات التالية من أحد عربان «زويلة» ، وأميل شخصيا الى تصديقها فقد كان الرجل على دراية واسعة بالمنطقة .

من زويلة الى تمسة .. يومان ، بواقع ٨ ساعات فى اليوم الواحد ، اليوم الاول الى الشرق ، والثانى الى الشمال .

من تسمة الى فوجه .Fuggha يومان صيفا ، وثلاثة ونصف فى الشتاء،والاتجاه شمال الشرق . وتشمل يوما الى الغرب من «الهروج» الابيض . وتقع «فوجه»

ى واد يحتضنه جبلان يمتدان الى الشمال الشرقى،والجنوب الغربى• ويصنعون فى فوجه عباءات وأردية جيـدة •

واذا اتجهت الى الشمال الشرقى :

من فوجا الى زلة	ـ أربعة أيام ـ	يوجد بئر بالطريق
من زلة الى مرادة	ـ أربعة أيام ـ	يوجد بئر بالطريق
من مرادة الى جدابيا	ـ أربعة أيام ـ	يوجد بئر بالطريق
من اجدابيا الى بنغازى	ـ أربعة أيام ـ	(هى مدينة كبيرة على الساحل)

من فوجه الى بنغازى ـ ١٦ يوما ـ بمعدل ثمانى ساعات فى اليوم الواحـد

من بنغازى الى درنة

من بنغازى الى أبيار فيل ناقة	يوم واحـــد
من الابيار الى ساس الجوف	يوم واحـــد
من ساس الى مراوة	يوم واحـــد

من مراوة الى الحمرى (ترجع التسمية الى احـــد المرابطين المدفونـين بالمدينـة) يوم ونصـــف

الى الشرق

من الحمرى الى قررينـا	يوم واحـــد
من قورينا الى القبة	يوم واحـــد
من القبة الى درنة	يوم واحد (مدينة)
	٧½ سبعة أيام ونصف

والماء متوفر بالبلدان السابقة ، أما درنة فهى مدينة كبيرة على الساحل ، وهى مسورة وبها مسجد كبير به ستون عمودا •

ومن تجرهى الى بيلما Bilma طبقا لرواية بعض المسافرين الذين وصلوا من هناك أخيرا •

الى الجنوب

من	Tegeiry	الى	El Haat.	يوم	مكان تجمع
من	El Haat	الى	Meshroo	يوم	بئر
من	Meshroo	الى	Teneia	يوم	صخور
من	Teneia	الى	El wata	يوم	مكان تجمع
من	El wata	الى	El warr	يوم	بئر
من	Tl warr	الى	El Hammer	يومان	بئر

من	El Hammer.	الى	Maffrus	يومان	بئر .
من	Maffrus	الى	Zhai	يومان	بئر وتلال
من	Zhai	الى	El Mara	يوم	بئر وتلال
من	El Mara	الى	Hatait El Dome	يوم	بئر
من	Hatait	الى	Uguira	يوم	مدينة كبيرة من مدن تبو القوار
من	Uguira	الى	Kesbi	½ يوم	مدينة
من	Kesbi	الى	Shenumma	½ يوم	مدينة كبيرة
من	Shenumma	الى	Dirki.	يوم	مدينة كبيرة
من	Dirki	الى	Bilma	يومان	مدينة كبيرة جدا
				١٨ يوما	

المسافة من تجرهى الى بيلما تستغرق ثمانية عشر يوما ، بمعدل ثمانى ساعات أو تسع فى اليوم الواحد •

وسألت كثيرا عن بحيرات دومبو Domboo ولكنى لم اجد احدا يعرفها على الرغم من وجودها فى كل الخرائط • اما اجرام .Agram وتبعد أربعة أيام من بيلما الى غرب جنوب الغرب ، فتوجد بها كميات كبيرة من الملح ، كما توجد بحيرة كبيرة على حدودها • ويذهب الطوارق الى هناك يجمعون الملح ويحملونه الى السودان • وربما كان موقع اجرام كما يصفونه يتفق مع موقع دومبو على الرغم من اختلاف التسمية • والتقيت هنا بامرأة تدعى معرفة المستقبل بقراءة الكف ، وهى أول مرة أصادف فيها هذه الفئة من الناس • وودت أن أذهب الى العين المسماة (الويكة) El Wiekh ولم أشأ أن اصطحب بلفورد معى ، فلم يكن يحتمل الرحلة • وتركته برفقة القائد وبركة • ومضيت على أن أعود بعد بضعة أيام وذهبت الى احدى الحدائق لارى أشجار «الدوم» ، وجمعت بعضا من ثمارها ، لكنها لم تكن ناضجة تماما • وأشجار الدوم ، التى رأيتها – ويعتبرها الاهالى صغيرة – يبلغ ارتفاعها عشرين قدما • وعرفت أن الثمار تنضج فى الربيع ، ولشجرة الدوم مظهر شجرة النخيل لكنها مغطاة بالفروع • وتنمو الثمار على الجوانب وعلى قمة الشجرة، وورق الدوم أخضر ملتو وكثيف ويوفر مظلة معقولة •

٦ يناير – درجة الحرارة ٤° ، الرياح جنوبية •

كنت أعتزم الرحيل ذلك اليوم الى العين المسماة ب الويكة حتى ألتقى بحملة

صيد العبيد ، ولكنى خشيت أن أترك بلفورد وقتا طويلا ، ولهـذا فقد قـررت أن أمضى فى رحلة يوم واحد لتفقـد تلك المنطقة من الصـحراء • وعدت فى المساء وعلمت أن قائد المدينة عاد فى المساء من مرزق ، ومعه جملان محمـلان بالملابس والزيت والزبد وأشياء أخرى ، أرسلها السلطان لابنه عليوه•وعلمت أن الجيش سـيمر على موقعنـا فى الغـد ، ولهـذا فقد بات أمر الرحلـة التى أعتزمها غير ضرورى •

٧ يناير : صبح رائع ودرجة الحرارة ٤° •

تحسنت صحتى ، أما بلفورد فما زال على مرضه • وفى الثامنة والنصـف رحل الجمال وفى التاسعة لحقنا به • ينتابنى احساس بالسعادة لمغـادرة تجرهى وأهلها المساكين ومائها المالح وشعيرها التالف • وفى السادسة بلغنا «مدروسـة» حيث لم أجد طعاما ، ولو بمقابل ، فأهل مدروسة لا يعبأون كثيرا أو قليـلا بالسلطان ورسله • ولسوء الحظ فقد بلغ أهل مدروسة الكثير عنى ، وقالوا عنى اننى «أبله» أدفع ثمنـا لكل ما أحصـل عليـه ، على الرغم من أن لى الحق فى الحصول عليه دون مقابل •• وهناك فى مدروسة لقيت معـاملة سـيئة تمـاما ، واضطررت أن أمارس سلطاتى التى تخولها لى ال «تذكرة» ، ولكن بعد فوات الاوان ، فلم يعد ممكنا أن يعد الاهالى طعاما فى تلك الليلة • بدأت أشـعر بالقلق على بلفورد ، وكنا قد تركناه منذ بضع ساعات يتبعنا بطيئا على جملـه وبحثنا عنه ، وقبيل منتصف الليل بقليل تنفست الصعداء حينما وصل منهكـا جائعا ، وعرفت انه سقط من فوق حصانه من شدة التعب ، ولحسن حظه فقـد فطن الجمال الى أن الحصان يسير دون راكبه ، ولازم الحظ بلفورد حين عثر عليه الرجـل – يرقد بلا حراك – ومن يدرى فلو لم يفطن اليه الرجل لظـل بلفورد طوال الليل ممددا فى البرد القارس ، وربما عثرت الذئاب والثعـالب على وجبة دسمة لا تستطيع حراكا • وكان المسكين أصم تماما فلم يسـمع أصواتنا ، وكان من الممكن أن تضيع كل محاولاتنا فى العثور عليه عبثا • ووصل جائعا مريضا يحتاج طعاما ودواء ولم نكن نحمل منهما شيئا ، ورفض الاهـالى مساعدتنا ، وحتى قدح القهوة الذى استطعنا أن نعده له ، رفضته معدته •

٨ يناير درجة الحرارة ٤٠ ٣° الرياح شمالية •

تحسنت حالة بلفورد قليلا • رحل الجمل فى الثامنة صـباحا • شـاهدنا فى

وخلال الطريق أخبرنى (بشير) أنه زار بحر الغزال ، وكان وصفه يتفق تماما مع وصف معظم الذين سألتهم • وقال بشير لابد انه كان هناك بحر ، فقد التقط بنفسه قواقع جميلة ، (ويسميها العرب بيت الحوت أو بيت السمك) ، وكانت ملتصقة بالارض • ويبلغ حجم القوقعة الواحدة ضعف حجم قبضة اليد كما رأى هياكل عظمية لاسماك يبلغ طولها ذراعا ـ لا توجد هياكل صغيرة ـ والهياكل متحجرة ، وأضاف انه لو جمعنا أطراف الهيكل لبدت أمامنا سمكة كبيرة يزيد طولها على عشرة أقدام •

أعطيت للقائد جلد الخروف الذى ذبحناه بالامس ، وأخذه وجففه ودعكه بثمار شجرة القرد .Gurd ثم بالملح وتركه طوال يوم كامل ليجف ، ثم عاد ودهنه بالزبد •

١٠ يناير درجة الحرارة ٣٠ ٢° •

خرجنا للقاء سيدى «عليوة» وحملة صيد العبيد ، والتقينا بهم فى .El Bakkhi وصافحت اصدقائنا القدامى وعدت معهم الى قطرون •

وفى المقدمة يسير الفرسان ويتبعهم المشاة والسبايا والعبيد • وبعد أن صافحت كل الرفاق القدامى عدت معهم الى قطرون وكانوا قد أحضروا معهم ثمانمائة عبد هزيل أعرج ، يتشحون بقطع من الجلد والاسمال البالية ، وما بين الفين وثلاث الاف مهارى وخمسمائة بغل • وكان قد تخلف عن القافلة مائة وثمانون فارسا عربيا وثلاثمائة من المشاة • وعاد بصحبة عليوة مائة فرس وأربعمائة عربى • وفى الطريق نفق قرابة الف جمل والعديد من العبيد والاطفال ، ولم يكن يحسب للاطفال أى حساب • وحين يسطو العربى على قرية ويجد طفلا رضيعا فهو لا يقدم للطفل سوى الملح والماء ، واذا مرض بعد يوم،أثنين فربما تركه على قارعة الطريق ليموت وحيدا أو لتلتهمه الثعالب • وحين ضحك أحد العرب وهو يحكى كيف ترك طفلا هكذا وحيدا ، دهش حينما طردته من المنزل عقابا على فعلته •

ان واحدا من هؤلاء الجبناء المتوحشين لا يجرؤ على أن يلقى رجلا مسلحا بينما يمارسون كل انواع الوحشية على العجزة والاطفال •

وكان محمد الازهرى هو القائد الحقيقى للحملة ، بينما كان عليوة هو القائد الرسمى • واشمأز الرجل جدا مما شاهده فى حملته ، حتى أنه قرر الا يشترك فى حملة كهذه مرة أخرى •• وعلى آية حال فقد ذهب هذه المرة تنفيذا لاوامر (المكنى) التى لا ترد • وغابت حملة الصيد ستة شهور وهاجمت تبو يورجو وواجونج Wijnuga. وكذا المنطقة الواقعة جنوبى بحر الغزال • ولم تحقق الحملة نجاحا كبيرا فى «يورنو» فقد فطن أهلها الى مقدمهم ، ورحلوا عن المكان •

وأهل تبو «برجو» كلهم من الكفار ، ولكنهم هادئون ، يعيشون فى بيوت من الحصير الذى لا ينفذ منه ماء المطر ويسمونها «بوش» Booshi. ولقد شاهدت أكواخا كهذه فى قطرون وتجرهى ، وهى أفضل من منازل فزان بصفة عامة • ولا يزرع التبو سوى كميات ضئيلة من الذرة ، ويعتمدون بصفة اساسية على البلح الذى ينمو بكميات كبيرة ومن نوع ردىء • كما يعتمدون على لحوم الخراف والماعز والجمال • ولديهم ايضا سلالة من الماشية السوداء يشربون لبنها • ولباسهم بسيط ، ولا يلبس الاهالى سوى جلود الحيوانات أو بعض الملابس الخشنة التى يحصلون عليها من تجار البلدان المجاورة • اما الصبية والفتيات فيسيرون عرايا كلية • وكثير من الرجال لا يلبسون سوى قطعة من الجلد حول خصورهم ، ورءوسهم جميعا عارية ، أما الزواج فهم لا يعرفونه — كما يقول العرب ويعتبرون ذلك مبررا للاغارة عليهم — والنسوة مشاع ، ويعيش الاخوة والاخوات معا ، وهم يعترفون بذلك اذا سئلوا • وهم لا يؤمنون بالله ، ومع هذا فهم قوم مسالمون ، يحسنون جيرة الاخرين • وقال لى بعض التبو انهم يعبدون روحا عظيمة ، وضحكوا حينما سألتهم أين توجد هذه الروح ؟ وهم يعتقدون أن البرق والرعد والظواهر الطبيعية الاخرى ليست سوى أرواح أصدقائهم الراحلين ، وهم لهذا يخشون العواصف ويأكلون دم الجمال بعد طهوه على النار كما يأكلون الحيوانات التى تموت ميتة طبيعية •

وجاءنا محمد الازهرى ليقيم معنا فأعطيناه لباسا وطعاما ، ولم يكن هو أو أى فرد من أفراد الحملة قد ذاقوا شيئا طوال الاثنين والاربعين يوما الماضية سوى البلح • ومع هذا فقد كان سمينا ، كما كان الجميع يتمتعون بصحة طيبة ، ولعل فى ذلك برهانا واضحا على قيمة التمر الغذائية •

وكان (المكنى) يكن حقدا دفينا لمحمد الازهرى فأرسل يأمر بعض أعوانه ليقتلوه غيلة ولكن الازهرى كان محبوبا من الجميع ، وبدلا من أن يقتله رجال المكنى حذروه منه ووعدوه بالحماية .. وانتاب الازهرى غم وخوف وكان يخشى أن يتمكن (المكنى) منه . وعلى الرغم من أنه كان ينام معنا فى حجرتنا فقد كان يحتفظ بسلاحه دائما تحت وسادته .

ويتفق أهل واجونجا Waijunga مع التبو فى كثير من عاداتهم واسلوب سلاحهم . الا أن رجال واجونجا لهم طريقة مميزة فى تصفيف شعرهم ، ويجدلونه على هيئة شبيهة بقرن الكبش شكلا وحجما .

والتقيت هذا المساء بامرأة شابة من تبو «قطرون» ، وكانت تسأل الاهالى أن كان لدى أحدهم طفلا ، يبيعها أياه ، وسرعان ما وجدت طفلا ماتت أمه فى الطريق ، وكان نحيفا لم يتجاوز أسبوعه الثالث . وكانت المرأة قد فقدت طفلها ، ولهذا فقد رغبت فى شراء آخر ودفعت فى الرضيع اناء خشبيا لا يزيد ثمنه على بضعة قروش . ولم تمر بضع ساعات حتى عادت المرأة مسرعة بالطفل وأرجعته للرجل الذى باعه لها وطلبت منه ما دفعت لان الطفل يرفض الرضاع فاعاد الرجل لها الاناء . وهكذا انتهت الصفقة ، وأخذ الطفل واحد من العرب ، ووعد أن يذهب به الى زوجته للعناية به .

ولقد قضيت وقتا طيبا مع الطفل المريض الذى تعهدت بالعناية به ولكم كان مسليا حينما رأى الخبز لاول مرة . قدمت له رغيفا تردد كثيرا قبل أن يخاطر بلمسه ثم استجمع شجاعته واحتواه بين أصابعه وابتسم فى البداية وراح يقضم الرغيف ، واكتشف سريعا ، ربما لجوعه ، أن الرغيف لم يكن مخيفا الى هذا الحد وسرعان ما أتى عليه . وطوال يومين أو ثلاثة كنت أقدم له الطعام وعرفانا منه بالجميل كان يأتى الى جانبى وينظر طويلا فى وجهى .

قدر لى هنا أن أشهد كيف يصفد السجناء بالسلاسل . رأيت خمسة من الرجال يتميزون قوة ورشاقة وغلظة ، لا يتجاوز الواحد منهم ٢٥ عام وقد ربط كل منهم الى الاخر . وتوثق اليد اليمنى الى العنق حيث تلتف حلقة حديدية وتتدلى منها عند الظهر حلقتان تربط اليها السلاسل الثقيلة التى تجمع السجناء التعساء جميعا . وينام السجان وقد أوثق السلسلة فى رسغه حين

يخشى هرب غنيمته • ولقد اخبرنى القناصون انهم ظلـوا يطـاردون هـؤلاء الخمسة طوال ثلاثة شهور وعوقبوا حينما حاولوا الفرار أثناء القبض عليهم • ولقد كان هؤلاء الخمسة هم أصلب رجال القافلة فمعظم الاخرين كانوا أطفالا أو طاعنين فى السن •

ويحضر العرب كثيرا من الحمير والخراف من بورجو ، وخراف بورجو كبيرة وجميلة ، وتصل بعد الرحلة المجهزة فى أحسن صحة ، على عكس الحمير التى تصل مجهدة تماما •

ويوصف رجال «تبو» بأنهم جبناء ، وأخشى ما يخشونه البندقية والحصـان ويكفى ظهور واحد من العرب ــ خصوصا اذا كان راكبا ــ يكفى هذا ليدفـع عددا كبيرا من التبو الى الفرار • وهم يعدون بسرعة وخفة وحينما يحـاولون الهرب يستخدمون طرقا ناجحة وذكية •

وينتج اقليم التبو كميات كبيرة من البلح ، ويوجد بالاقليم مناطق صخرية منعزلة يتعذر الوصـول اليهـا ويعيش عليها كثير من التبـو ، ويدافعـون عن أنفسهم بالاحجار والسـهام •

وفى احدى حملات السلطان السابقة منيت حملته بخسائر فادحة رغم تفوق عدد جنوده على عدد اهالى التبو المسالمين •

ويمكن وصف اسلوب العرب فى اقتناص العبيد كما يلى : تحـط القافلـة رحالها على مسافة ساعتين أو ثلاث من القرية التى سيهاجمونها • وفى منتصف الليل يترك الرجال الخيام والجمال تحت حراسة خفيفة ويتقدمون ليصلوا مـع الفجر ويحيطون حينئذ الموقع كله وربما نجحوا فى الاستيلاء على السـكان جميعهم • واذا استطاع أحـدهم الهرب فهو لن يفلت من قبضـة المجموعـات المتمركزة على طول الطريق • وعلى ربوة عالية وفى موقع طيب يعسكر آخرون استعدادا لاستقبال الاسرى وتكبيلهم • ولا تمر بضـع سـاعات حتى يسـقط بين الف والف وخمسمائة أسير بينما لا يزيد عدد الغزاة على ثلاثمائة • وحين يفرغ الغزاة من الاسرى يأتى دور الجمال والقطعان والمؤن قبـل أن يسـتعد هؤلاء العرب المروعون للاغارة على موقع آخر •

وبشرة تبو برجو أقل سمرة من بشرة الزنوج وهم أكثر أناقة . وتجدل نسوة البرجو شعرهن الى ضفائر طويلة تتدلى خلفهن .

ويوجد في بورجو كميات كبيرة من الحمام ، وتهاجر هذه الطيور من فزان في اكتوبر ونوفمبر الى القوار Kawar وبيلما .Bilma وبورجو Burgo والى بلدان الجنوب الاخرى .

١٢ يناير – درجة الحرارة ٣°

تركنا قطرون وسبقتنا الحملة الى آبار وادى الخير .Wuda Kaire .

١٣ يناير – درجة الحرارة ١٠ ٢° .

تركنا وادى الخير في السابعة والثلث صباحا ومضينا عبر صحراء رملية لا نهاية لها ، وبلغنا مستوتة .Mestoote في السابعة مساء . ومستوتة قرية صغيرة محيطها ميلان . ويوجد بالمكان آبار متعددة ، كما يوجد به قلعة عربية قديمة متهدمة . ونصبت الحملة خيامها على بعد خمسة أميال منا .

١٤ يناير – درجة الحرارة ٣٠ ٢° تحت الصفر .

وتجمدت المياه التي تركناها في الاوعية خلال الليل ، وحتى قرب الماء تجمدت تماما . واضطررنا لتسخين الماء حتى نشربه . ورحلنا في العاشرة والثلث ، ومضينا عبر واد مستو . وحين أشارت الساعة الى الثالثة والثلث كنا نمضي عبر بعض المرتفعات الخطرة وحينما كنا نهبط هذه المرتفعات كنت أتوقع كل لحظة أن يسقط بي جملي المهارى . وفي السابعة والنصف بلغنا تلال معفن Mafen ومعفن قرية صغيرة ، وكنت أستطيع رؤيتها من تراغن عندما كنت بها أول مرة .

سرنا في ذلك اليوم خمسة عشر ميلا عبر الوادى ، واثنى عشر أخرى عبر المرتفعات الرملية .

السبت ١٥ يناير – درجة الحرارة ٢° ، صبح صحو .

تركنا معفن في التاسعة ، ومضينا عبر واد ملحى تشققت قشرته بفعل الشمس وبين الحين والاخر كانت تعترضنا صخور ملحية كبيرة مدببة ، وقد قد في

وسطها ممر عريض يكفى جملا للمرور من خلاله • ويمتد هذا الوادى شرقا وغربا عبر عشرين ميلا ، وعرضه حوالى ثلاثة أميال •

ومررنا بـ (تراغن) ، لكننا لم نشأ أن ندخل المدينة ، واسترحنا قليلا عند أحد الابار وذهبنا الى منزل بشير فى «ديسا» .Dessa حيث ذبح لنا عجلا ، وجاءتنا أمه وأخواته يرحبن بنا ، وبكين كثيرا من الفرحة لعودة بشير سالما • وأعطيت المرأة العجوز دواء لعينها ، وأرادت أن تعطينى فى مقابله خروفا كبيرا • وقدمت لنا أخته كمية من البيض واللبن • وسبقنا القائد «سعيد» بعد أن شرب كثيرا من (اللاقبى) ، سبقنا الى زيزو .Zaizo ليعد العدة لاستقبالنا •

١٦ يناير ، درجة الحرارة ٤° •

بدأنا المسير ، فى طريقنا الى مرزق ، فى العاشرة صباحا وسبقنى بلفورد الى المدينة ، وبقيت أنا أتفقد بعض القرى يرافقنى بشير • وقدمنى الى أصدقائه وجيرانه ، وعرفنى بفتاة بارعة الجمال ينوى الزواج منها • وعند الظهر سمعنا طلقات النار التى أطلقتها الحملة حين دخلت قرية «بيدان» وهى قريبة من قرية زيزو ، وحينما وصلنا زيزو لقينا القائد سعد ، وكان مخمورا وقد استلقى على الارض ، وسط الدجاج والخبز والبيض والحساء وأوانى (أللاقبى) •

وكان القائد سعد كريما معنا ، وود لو أهدانا كل ما بمنزله، وربما زوجته(١) العجوز أيضا التى وقفت بالقرب منا تناولنا صحاف الطعام • وأهدتنى سيدة الدار وعاء صنع فى السودان •

وجاءنى رجل يطلب دواء وكان يعانى آلاما شديدة فى صدره ، وعندما كشف لى قميصه رأيت منظرا مروعا ، فقد كان صدره كله مكويا بالنار ومتقيحا ، وتصورت انه لن يعيش سوى بضعة أيام ، ولم يكن لدى دواء له ، ولكنى نصحته بأن يحرص على نظافة جروحه • ولم يقتنع الرجل ، وقال لى صديقه الذى أحضره الى أنه لن يدعه يغسل جرحه ، فقد قرأ فى أحد الكتب الطبية القديمة ، أن غسل جروح (الكى) يؤدى الى الموت • ورحلنا عن المكان وقد أصابنا من أهله كرم بالغ ، وبلغنا مرزق فى المساء • وذهبت لزيارة المكنى الذى

---

(١) مبالغة خارجة عن المعقول (المراجع) •

لقينى بترحاب وشكرنى على ذهابى لزيارة ابنه • وأمضى يوسف والحاج وقتا طويلا معنا ، وسمعت منهما اخر اخبار المدينة •

١٧ يناير درجة الحرارة ٦° درجات •

خرجت مع عدد كبير من المماليك وأهالى فزان للقاء الحملة ، وأمضينا المساء فى الغناء والاكل ، ورقص الجميع وقد لبسوا أبهى حلل •

وفى صباح يوم ١٨ يناير تقدم الجيش ستة من حاملى الرايات ، يحيط بهم فرقة كبيرة من الموسيقيين • وحينما اقتربنا من مرزق خرجت النسوة والصبية وانضم الجميع للموكب • ودخلنا المدينة عند الظهر وعدت رأسا الى ابن السلطان لأرى كيف سيلقاه أبوه • ووجدت المكنى شاحبا مهموما ويجلس وحيدا فى «المجلس» بهو القلعة ولم يكن قادرا حتى على الترحيب بى • وتجمع الحشد وأفسحوا طريقا لـ (عليوه) وترجل الصبى يساعده أخوه الكبير وارتمى عند قدم أبيه السلطان وقبل يده • وساد الصمت حين بكى المكنى فرحا بلقاء ابنه • وحين استعاد المكنى ثباته أحضر «برنسا» مرصعا بالذهب وتقلده عليوه ، وانحنى يقبل يد أبيه • وتقدم الجميع الى السلطان يقبلون يده ، وتفضل المكنى وابتسم • حينئذ تفرق الحشد ، ودخل المكنى القلعة يعتمد على كتفى ولديه •

١٩ يناير

ظل (المكنى) طيلة اليوم خارج البوابة يحيط به الشيخ (بارود) وبعض الاهالى وبدت المنطقة الفضاء القريبة من القلعة غريبة تماما • فقد كان يحتشد بها اكثر من ألف جمل من جمال المهارى وبدت المدينة نشطة مفعمة بالحيوية تغص بالتجار من كل المناطق المجاورة •

جلس العبيد يرقبون الغرباء وهم عرايا تلفحهم اشعة الشمس ، وقد دهنت أجسادهم بالزيت ليبدوا فى حال أفضل • وعرض عدد منهم للبيع بينما ذهب اخرون يجمعون دم الجمال التى تذبح فى أوان فخارية وحين تطبخ الدماء على النار يأكلونها بينهم • وربما حرك بعض منهم وقد بدوا كهياكل عظمية ألشفقة حتى فى قلوب سادتهم • وبيع العبيد فى ذلك اليوم كأرخص ما يكون • فقد غص السوق بالكثير ، وبيعت فتاة جميلة لا تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها

بخمسة وثلاثين دولارا ، ولا يتجاوز ثمن غلام فى عمرها خمسة عشر أو عشرين دولار • وربما ارتفع اسعار ألاناث خصوصا اذا كن جميلات فى الوقت الذى ذكرته •

ا نأحدا ـ عدا البدو ـ لا يقبل على الاشتراك فى حملات صيد العبيد هذه فاسلوب حياتهم الذى يتميز بالترحال والتنقل ورغبتهم فى اكتساب مركز اجتماعى أفضل ، وفقدانهم الاحساس بالانتماء فلا أرض يزرعون ولا منزل يملكون ، ربما نهض ذلك كله سببا فى اقبالهم على حملات الغزو هذه •

أما من يملك فهو لا يعتبر عملا كهذا سوى خراب للاقليم ووبال على التجارة • غير أن خوفهم من المكنى أعظم من حرصهم على ما يملكون ولهذا نهم يشاركون ـ على غير رغبة منهم ـ فى حملات العبيد • ويلتزم من يشارك فى الحملة بأن يوفر لنفسه ما يلزم من السلاح والمؤن وله مطلق الحرية فى التصرف فى ثلاثة أرباع غنائمه • وحينما يشارك الجميع فى حملة فلا يستأثر الفرد بما يغنم باعتبار أن العمل عمل جماعى ، وفى هذه الحالة يحصل السلطان على ربع الغنائم ويعطى الفارس عبدين والراجل عبدا واحدا • واذا زاد عدد العبيد عن ذلك وزع الفائض على الجميع • واذا كان عدد العبيد قليلا فربما خص رجلين أو ثلاثة عبدا واحدا • ويساوى الطفلان غلاما بينما تعادل الفتاة غلامين •

وقدر لىأن أزور سوق العبيد مرارا والمشهد لا يختلف كثيرا عنه فى طرابلس ، فهناك مزايدون قدر ما بالسوق من عبيد ويهرول كل هنا وهناك يصرخ بأعلى صوته بالثمن الذى بلغته المزايدة ، وحينما يباع عبد فان المسكين يتبع البائع ككلب حتى يبلغ جماعات التجار الذين يفترشون الرمال •

ووصل أبو بكر بوحالوم ، وهو الرجل الاول فى بلاط المكنى ، وصل من طرابلس يحمل «تذكرة» من الباشا تأذن للمكنى أن يظل حاكما على فزان لثلاث سنوات شريطة أن يدفع للباشا ثمانين الف دولار • وخرج ثلاثة من أبناء السلطان وكوكبة من الفرسان وحشد كبير من الاهالى ، خرجوا جميعا يستقبلونه فى جليم Dglim وكيف لا وقد اختاره السلطان ليكون رسوله الى الباشا • ولقد كان أبو بكر هذا مواطنا فقيرا من أوجلة • كان ذلك منذ خمسة أو ستة أعوام ، أما الان فقد أصبح شيئا آخر فتكاد لا ترى ملابسه

الحريرية الغالية من كثرة ما عليها من حلى ذهبية • وعندما وصل أبو بكر الى المجلس استقبله المكنى بترحاب ، ووقف أبو بكر وتلا عليه خطاب الباشا ، ثم قبله ثلاث مرات ورفعه الى جبهته ـ وجاء دور الفقيه ـ وارتفع صوته العذب بآيات من القرآن والاهالى يطلقون صيحات الاستحسان قائلين الله •• الله ••!! ولقد أرسل باشا طرابلس عباءة حريرية موشاة بالذهب كهدية الى المكنى •• الذى لم يضيع وقتا وقبل العباءة ثلاث مرات ورفعها الى جبهته ثم وضعها على رأسه •

وأحضر أبو بكر عدة خطابات لنا ، وأخبرنا انه التقى مرارا بالقنصل والدكتور ديكسون .Dr. Dickon وأحضر لى بعض المال من صديق كريم كان قد عرف حالتنا السيئة •

وفيما يلى بعض المعلومات المتعلقة بالطريق من تجرهى الى بورجو ، استقيتها من كثير من المسافرين ، وأميل شخصيا الى تصديقها ، فالجميع يتفقون عليها •

من تجرهى .Tegerry الى بورجو Borgoo

الى الجنوب

تجرهى الى مشرو	Meshroo	يومان الى الجنوب ، وبالطريق بئر
من مشرو الى الوار	Warr	يومان ونصف يوجد بئر بين الصخور
من الوار الى فزان	Fezzan	يومان •• يوجد بئر بالطريق

جنوب شرق

من فزان الى آبو Aboo أربعة أيام ، وآبو هذه مدينة من مدن التبسيتى • وهى ماتسمى فيبابو .Febaboo

جنوب الشرق

من آبو الى واداى	Wadey Khareef.	يوجد بئر
من واداى توو	Tow	يوم بئر بالوادى
من توو الى زوار	Zooar.	يوم • تتجمع مياه الامطار
من زوار الى مارمار	Marmar	يوم على الصخور
من مارمار الى سوبكا	Subka	يومان ونصف ، بئر وأشجار دوم
من سوبكا الى توركا	Turka.	يوجد بئر

الى الشرق

من توركا الى بورجو	أربعة أيام
	المجموع ٢٢ يوما •

والمدينة الرئيسية فى بورجو تدعى «ين» .Yen أما الاسماء السالفة الذكر فليست مدنا ، وانما أماكن للراحة ٠

أما الطريق من « ين » فهو كما يلى :

من ين	الى كريمدى	Kermedi	نصف يوم
	الى وان	Wann	يومان
	الى جور	Gorr	نصف يوم
	الى ألبومل	El Bummel	نصف يوم
	الى تيكى	Tikki	يومان
	الى بيدو	Beddou	يومان
	الى وردا	Werda	يومان

و «ين» نفسها ليست مدينة بالمعنى المفهوم ، وانما هى مجموعة من الاكواخ الطينية ،وسكانها كثيرون وقت السلم وهم جميعا من (الكفار) ٠ ويفد الى «ين» أهالى واداى فى قوافل كبيرة يتاجرون مع أهل المدينة ٠

من تجرهى الى بيلما .Bilma

الى الجنوب

تجرهى	الى مشرو	Messhroo	يومان وبئر
من مشرو	الى الوار	Warr	يومانونصف يوجدبئران وصخور
من الوار	الى الحمر	El Hammer.	يومان
من الحمر	الى مافروس	Maffrus	يومان ونصف وبئر
من زايا Zhaia	الى سجدم	Siggidum	يوم ونصف قلعة قديمة وبئر
من سجدم	الى اناى	Anni	يوم بئر وأشجار دوم
من آناى	الى كبى	kisbi	يوم مناطق يسكنها تبو القوار ووندله ، وجوندا
من كبى	الى دركى	Dirki	نصف يوم
من دركى	الى شنما	Shenumma.	يوم وتريتا Traita
من شنما	الى بيلما	Bilma	يوم
			١٧ يوما

والجدير بالذكر أن كل المواقع السالفة الذكر هى أماكن للراحة وليست مدنا بالمعنى المفهـوم ٠

ولا تعتبر «القوار» و «بيلما» أقاليم متميزة وهما ليستا اكثر من قريتين صغيرتين واسر مبعثرة على امتداد الصحراء ٠ وأهل الاقليمين من المسلمين ، وتشـكل الفئة الثانية اغلبية عـددية ٠

أما واجونجا فهو اقليم يبعد ثمانية أيام شرقى بورجو • ويضم اقليم واجونجا مساحات واسعة ، ومدينتين كبيرتين تبعد كل واحدة ميلا عن الاخرى ، الاولى الى الشرق والثانية الى الغرب •

ويوجد بالمدينه الشرقية بحر كبير يجرى شمالا وجنوبا ويمر خلالها ، ويبلغ عرضه خمسمائة أو ستمائة ياردة ، وعمقه عظيم ، وماء هذا النهر مالح ، ويعج بالاسماك •

ولقد عبرت حملة المكنى الاخيرة هذا النهر على أطواف،أما الجياد فقد علقت بها قرب منفوخة واستطاعت أن تطفو بها الى الجانب الاخر ، ومعظم هذا الاقليم جبلى يضم مساحات صخرية سوداء واسعة ، ويقال عن هذه المنطقة - لوعورتها - انها مسئولة عن نزوح معظم الاهالى منها • ويوجد بالمكان الذى نحن به - تماما كما بورجو - صخور متعامدة عالية ولا تستطيع أن ترى قممها - كما يقول العرب - دون أن تفقد طاقيتك •

أما اقليم واجونجا الغربى فيمر به ثلاثة أنهار ، ماء اثنين منها طيب ، والثالث ماؤه مالح • وأكبر هذه الانهار أو (النيل) كما يسميه العرب - عريض وعميق الغور - ويجرى من الغرب الى الشرق • ويغل الاقليم كميات كبيرة من البلح، كما توجد به أعداد كبيرة من الماشية والفيلة ، أيضا ، والكثير من النعام • ويلبس أهل المكان - نساء ورجالا - بسترات من الجلود ، ويلبس بعضهم عباءات جلدية ملفتة للانتباه • والاهالى من سلالة طيبة وهم عداءون ممتازون •

وتبلغ المسافة من واداى الى واجونجا عشرة أيام الى الجنوب • وعلى بعد ثلاثة أيام من واجونجا توجد «قرية» أخرى أسمها تراويجا Terraweiga.

من بورجو الى بحر الغزال	خمسة أيام	الى الجنوب
من بورجو الى كانم	اثنا عشر يوما	جنوب غرب
من بورجو الى واداى	أربعة عشر يوما	جنوب جنوب الشرق

ويوجد بالقرب من بئر (الواخ) Wiakh وهو على بعد يومين من جنوب تجرهى ، يوجد بالقرب منه طريق اخر الى تبستى أبعد من الاخر وأكثر وعورة منه ، وتستغرق الرحلة منه الى براى Brai سبعة أيام ويقال ان الامطار تسقط بغزارة • وطوال السبعة أيام هذه يمضى المسافر عبر طريق صخرى وعر لا

ماء به ولا نبت ولا حيوان وتلقى كثير من الدواب حتفها حين تتعثر وتســـــقط في دروبه الوعرة الملتوية •

ويقال أن المنطقة المحيطة ببئر (الواخ) مغطاة تماما بعظام آدمية وحيوانية • وتبعد (آرنا) Arna ثلاثة أيام عن براى • وتبعد براى ثلاثة أيام الى الجنوب الشرقى •

ولا يعرف أحد هنا قبيلة التبو المعروفة ب فيبابو Febaboo وفي تقديرى أن هذا الاسم قد أخذ عن اسم آبو .Aboo في «تبستى» وهو اسم مدينة صغيرة وليس اسم قبيلة •

٢٤ ينـاير

جلست في مجلس السلطان ، ورأيت السلطان والاهالى يشترون العبيـــد الذين وقعوا في الاسر مؤخرا • ولقد كان أسلوب البيع والشراء جديدا على تماما • ففى البداية يقوم (بوحالوم) والشيخ (يارود) وآخرون من رجـــال السلطان ، يقومون باحصاء عدد العبيد لدى كل تاجر • ويقدم كل عبد في مزاد • ويقوم سماسرة السلطان بالمضاربة على العبيد الاقوياء ويضارب الاهالى ايضا ويحدثون جلبة وصخبا • ويضارب صاحب العبد أمام المشترين حتى يصل الى الثمن الذى يراه مناسبا ، فاذا باع فعليه أن يدفع ربع الثمن الى السلطان ، واذا لم يبع يعتبر هو مشـتريا لعبـده ، وعليــه فلابد أن يدفع ربع الثمن الذى طلبه ، الى السلطان بالطبع • ويقوم كتبة السلطان بتدوين اسم كل مشتر والمبلغ المربوط عليه ، وهكذا ، وببساطة يحدد نصيب السلطان من كل صفقة •

وفي الليلة الماضية احتفل محمد الازهرى بعيد ميلادى ، وشاءت «فاطمة» أن تحضر الحفل في منزله ، وجاءت يغطيها الحرير والذهب وعلى وجهها كثير من الاصباغ ، حرصت على أن تكشفه للنظارة حين تتظاهر باعادة ترتيب الخمـــار أو العباءة على رأسها • وشاركت اكثر من مائة امرأة في الصخب ، بغنـــائهن وأصوات طبولهن ورباباتهن وشاركت كثيرات بالرقص أيضا • ولقد كان ذلك كرما واضحا من «الازهرى» ، ولكننى لو خيرت لما قبلت أن أحضر حفلا مزعجا كهذا مرة أخرى • وأعقبت مراسم الاحتفال هـدية ، أعطاها الازهرى الى • وكانت عبارة عن جمل صغير شاء الازهرى أن يكون «افطارى» •

ولما كان الازهرى يرغب فى مصاحبتى الى طرابلس ، فقد عقد مشاورات يومية مع أصدقائه بشأن هذا الموضوع • وفى النهاية أعدوا هذه الخطة كوسيلة أمن ضد أعمال المكنى الذى كنا نخشاه • وتقرر أن يحمل الازهرى وزوجته السلاح دائما ، كما أوصونى أيضا أن احتفظ بحارس وأن أبقى سلاحى فى متناول يدى دائما • وتعذر علينا الحصول على جمال • فأصحاب الجمال مشغولون فى سوق العبيد ، وفى هذا الوقت من العام يأتى كثير من القوافل من السودان وبورنو ، تصطحب كل قافلة منها ما لا يقل عن الف عبد معظمهم من الاماء •

وقبل أن أترك مرزق ، سأحاول فى الفصل التالى أن أتعرض لهذا الاقليم أو هذه المملكة ، وأحاول أن أعرض ما رأيته من ملامح خلال فترة اقامتى بها •

الفصل السابع

فـــزان

تقع بونجيم أقصى شمالى مملكة فزان على خط عرض ٢٥ ٣٠° شمالا ، ولقد تحدثت عنها فى صفحات سابقة • وتقع تجرهى على خط عرض ٤ ٢٤° شمال ، وتشكل أقصى جنوبى فزان ، ويسكنها قبائل تبو الجبال • أما حدود فزان الشرقية فهى جبال الهاروتز خلف تمسة .Temissa أما الحدود الغربية فتمتد حتى أوبارى •

ويبدو الاقليم بصفة عامة كمنطقة عارية مجدبة تفرشها الرمال الصفراء الصغيرة والحصى ، فيما عدا منطقة جبال السوداء والهاروتز (Harutz) والاقليم جاف الى حد بعيد ، فلا يوجد بهذه المنطقة الشاسعة كلها سوى ثلاثة ينابيع صغيرة ، تتفجر بالقرب من «تراغن» • الا أن الماء يوجد فى أماكن عديدة على عمق يتراوح ما بين عشرة أقدام وعشرين قدما • ولا توجد زراعة فى منطقة الصحراء هذه باستثناء بعض الوديان حيث يوجد الكلأ الذى تتغذى عليه الجمال • وهم يطلقون أسماء عدة على الكلأ ، فيسمى عقول Agoul أو ظمرعن Thamaran. أو ديسة ، كما يوجد قليل من أشجار السنط ، ويسمونها طلح ولا ينمو النخيل الا بالقرب من المدن ، كما يزرع بالاقليم كميات ضئيلة من الذرة وبعض النباتات الغذائية الاخرى ، وتتطلب زراعتها جهدا كبيرا • وواقع الامر أنه لا شيء أكثر خطا من الفكرة الشائعة ، والقائلة بخصوبة الواحات •

صحيح أن فزان يمكن أن يقال ـ دون تردد ـ انها تقع وسط الصحراء ، ولا يمكن تمييزها عنها فيما يتعلق بمسألة الخصوبة ، فالتربة الناعمة غالبا ما تكون رملية ، ولكن يوجد تحت سطح التربة ـ بالقرب من مرزق ـ طين أبيض ، حين يضاف الى الرمل ، فانه يعطى تربة خصبة نوعا • وتوجد بعض الرقع

الصغيرة التى تزرع بالكامل الا أن كمية العمل الهائلة المطلوبة للمحافظة على رطوبة التربة ، تمنع عمال الفلاحة من استزراع مساحة تتجاوز فدانين ونصف فدان • ولا تزيد مساحة بعض هذه الرقع عن أربعين أو ستين قدما مربعا •

ويستخرج الاهالى الماء من الابار بواسطة الحمير لان الوسائل الالية معقدة للغاية ، ويوجد بالاقليم كميات كبيرة من الاطرون أو (القطرون) ، وصخور الملح ، والالومنيوم والشب والجبس والملح الصخرى (نترات الصوديوم أو البوتاسيوم) والكبريت وتشكل معظم هذه الثروات الطبيعية ـ ان صح التعبير ـ بندا رئيسيا من نشاطهم التجارى ويستخرج النطرون بالقرب من جرما ومن وادى الشاطىء • ويوجد الملح والالومنيوم فى مواضع عديدة وخصوصا فى المناطق الشرقية • كما يوجد واد ملحى بالقرب من معفن يبلغ طوله ثلاثين ميلا•

ويوجد بفزان الحيوانات التالية :

القط النمرى	The Tiger Cat.	وهو متوحش نوعا
الضباع	Hyena.	توجد بكثرة وهى متوحشة أيضا
ابن آوى (١)	Jackal	نادرة .وهى أصغر من كلاب أوربا
الثعالب	Fox	نادرة ،وهى أصغر من ثعالب أوربا
الودان	Wadan	وهو جاموس متوحش ، فى حجم الحمار له شعر غزير عند كتفيه وقرون طويلة وضخمة جدا •
الجاموس الاحمر	Red Buffalo	حيوان ثقيل الحركة ومن السهل اقتناصه
الجاموس الابيض	White Buffalo	حيوان أبيض رشيق ، جرىء حينما يجرح •
الظباء	Antelope	توجد بقلة بالقرب من مرزق
القط الوحشى	Wild Cst	يوجد وسط الصخور
الشياهم	Porcupine	تعيش فى الوديان بالقرب من « يونجيم » •
القنافذ	Hedgehog	توجد بالقرب من الآبار ، ويأكلها العرب •
الفئران	Rat.	•صفراء وبنية ، والنوع الأخير يوجد فى المنازل أما الصفراء فموطنها الصحراء •

(١) .Jackal كما يقول قاموس «المورد» تعنى ابن آوى، ويذكر المنجد أن ابن آوى نوع من الكلاب البرية يسميه العامة «الواوى» ويكنيه بعضهم «بأبى زهرة» (المعرب) •

القونتشا	Guntsha	حيوان من فصيلة الفئران ، أسود ذو ذيل غزير ، وله رأس يشبه رأس « الغرير » (حيوان ثدى صغير قصير القوائم يسكن فى حفر يحفرها فى الأرض) .
الجربوع	Gerboa.	ويوجد فى المناطق الصحراوية فقط .
الأرانب	Rabbits	فنية ، وبرية يستأنس بعضها فى مرزق ، كما يوجد فى البلدان الساحلية .
الأرانب الوحشية	Hare	توجد فى الوديان ، وهى نادرة
الجمال	Maherry.	« المهارى » وهى الجمال السريعة

أما طيور فزان فهى : ــ

النعام	Ostrich	ويوجد فى جبال فزان
العقاب أو النسر	Eagle	نادر
الصقور	Hawk	شائعة
الديكة الرومى البرية	Wild Turkey	توجد بكثرة فى الصحارى
الغربان	Raren	توجد بكثرة فى الصحارى
البط	Duck	رأيت بعضه طائرا ، ولكنى لا اعرف موقعه .
الفرء أو الفراء	Coot	وهى حيوان مائى ،وجدها احدهم فى الشارع واحضرها الى منزلنا، وكانت أول مرة تظهر فى فزان .
العصفور	Sparrow	ذكور ذات لون رمادى ، بعلامات سود ، أما الاناث فهى كمثيلتها فى أوربا ، ويوجد بكثرة .
الخطاف (١)	Swallow	ذو حجم صغير ولونه اردوازى
النهس	Butcher Bird	«وهو طائر من فصيلة الصردية» لونه اردوازى وصغير الحجم
البوم	Owl	نوع صغير الحجم كثيف الريش حول الرأس
الصعو	Wren	(طائر صغير جدا) ذو أجنحة سوداء وصدر أصفر .
الذغرة	Wagtail	(طائر صغير ذو ذنب طويل جدا) ويشبه طائر الكناريا .
ويوجد ايضا طائر يشبه السمنة	Thrush	وله ذنب طويل وهو مفرد .

الحمام البرى والمستأنس ، الاخير يهاجر فى أغسطس الى كل من بورنو وبلدان التبو

الحجل	Partidges	يوجد شمالى سوكنه
الدجاج	Domestic fowls	ليس كثيرا جدا
الاوز	Goose	قليل فى زويله

(١) وهو طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل (المعرب) .

الانتــاج الزراعى فى فــزان

قافولى مصر	Gafooly Masr	الذرة الهندى
قافولى أبيض	Gafooly Abiad	له حبة صغيرة
القصب	Gussub	حبوبه بنية صـغيرة تشبه الذرة المصرية
قصب تمزاوى	Gussub Tamzawi	نوع آخر من الذرة
القمح	Gummah	القمح المعروف
الشعير	Shir, (Barley)	ـــــــ
تاريدى	Tareedi	نوع من الشعير أحمر اللون
البشنه	Bishna	حبوب صغيرة
لوبيا	Lubia	حبوب صغيرة
جلجلان	Gilgillan	بازلاء صغيرة
لاتيله	Latila	نوع من البازلاء الصغيرة
كروية	Kerawia	حبوب الكراوية

وهم يأكلون أيضا حبوب ثمار عباد الشمس

خضروات فزان : ـ

العنب	Grapes	ينمو بالقرب من الآبار ، وموجود فى كل حديقة تقريبا ·
الرمان	Pomegranate	ممتاز وليس كثيرا
المشمش	APricot	لا يكتمل نضجه أبدا
الخوخ	Peach	نادر ومن نوع ردىء
التفاح	Apple	نادر ولا طعم له
البطيخ الأحمر	Water Melons	ممتاز ونادر
القادون	Musk Melons	
التين	Figs	صغير وطيب
كورنا	Corns.	فاكهة صغيرة مســتديرة ، تشبه التفــاح رائحة · وهى فى حجم البندقية ولها ثلاث نوبات ، وهى حلوة وتؤكل طازجة ، وتنمو على أشجار ارتفاعها يبلغ ثلاثين قدما ويعتقد السـيد ريتشى انهـا هى اللوتس أو النبق ·

النباتات الغذائية الاخرى

بومبيون	Pompion	حجمها كبير وذات لون أصفر
كالاباش	Kalabash	ممتاز ووفير
جيرو	Geroo	تشبه الخيار رائحة وطعما ومظهرا وهى صغيرة ، وحين ينضج يشـبه البطيخ ·

اللفت	Turnip	صغير و نادر
جزر	Carrot	صغير ونادر ، وليس له طعم
فجل	Radish	جيد وحريف
ملوخية	Melochia	النبات المعروف الذى يحبه المصريون مطبوخا بالأرانب (المراجع) ٠
بامية	Bamia	
بصل	Onions	ممتاز ووفير
الثوم	Garlic	نادر وممتاز
الفلفل الاحمر	Red Pepper.	جيد ووفير
الطماطم	Tomata.	نادرة وطيبة

ويبذر الذرة والشعير فى اكتوبر ونوفمبر ، ويكتمل نضجه فى مارس وابريل وخلال تلك الفترة وحتى الشهر الاخير ، يتم سقيه مرتين كل أسبوع ٠ ويستنزف ذلك جهدا كبيرا ٠ ويتم توصيل المياه الى الحقول عن طريق فنوات تتصل بالابار أما القدب أو الصفصفة (وهو نوع من البرسيم) فيزرع فى مساحات صغيرة فى يناير وفبراير ، ويمكن حصده مرة كل أسبوعين ، وذلك حتى شهر نوفمبر حين يتوقف عن النمو ، وهو يكلف الكثير لكنه يسمن الجياد والجمال سريعا ٠ اما القصب والقافولى بنوعيه فانه يبذر فى منتصف الصيف وينضج فى الخريف ، ويقدم فى بعض الاحيان الى الجياد قبل أن يتم نضجه ٠ وعيدانه حلوة المذاق ، وتشبه قصب السكر ٠ اما العيدان الجافة فتقدم للماشية فى الشتاء ، غير أنها غالية كثيرا ٠ وتنمو عيدان القافولى فى بعض الاحيان الى ارتفاع سبعة أو ثمانية أقدام ٠ ومياه فزان مالحة بصفة عامة ، وهى مالحة تماما فى بعض الاماكن ، غير أنه بالاستعمال الدائم وبمقارنة الافضل والاسوأ ، ربما بدت مياه بعض الابار وكأنها عذبة ولا يوجد فى فزان أنهار من أى نوع ، بل يوجد مستنقعات يستخرجون منها الملح ، وتتسبب هذه المستنقعات فى تفشى الملاريا السائدة فى بعض مناطق الاقليم ٠

و (مرزق) هى عاصمة فزان ، وتقع على خط عرض ٥٤ ٢٥° شمالا وخط طول ٥٢ ١٥° شرقا ، والبلدان الاخرى الجديرة بالذكر هى سوكنه الى الشمال ، وزويلة الى الشرق وقطرون الى الجنوب ٠ ويعتمد الاهالى فى غذائهم على البلح ، وهو الغذاء الرئيسى بالبلاد ٠ وربما أضافوا الى الكميات الهزيلة من الحبوب والخضروات قطعة من لحم الجمال ٠ أما لحوم الخراف والماعز فهى

غالية جدا ولا يستطيع الفقراء شراءها • وفي اعتقادى انه حتى بالنسبة للاغنياء فليس هناك من يستطيع أن يأكل اللحم اكثر من ثلاث مرات في الاسبوع وتنحصر تجارة فزان مع بورنو والسودان ووادای ، وتقوم أساسا على تجارة العبيد ، وتسود المقايضة تعاملهم مع القوافل • ويمكن ألقول أن بعض نباتات جنوبی أوربا يمكن - دون شك - أن تزرع فی هذا الاقليم اذا اوليت نفس العناية التى تبذل فى زراعه الحدائق • كما يمكن ادخال واستخدام الادوات الزراعية الاوربية بنجاح كبير وفى تقديرى انهم سيرحبون بها كثيرا ، كما يمكن أيضا استخدام الادوات (الميكانيكية) للتذرية أو الغربلة بكفاية عالية • وربما لن يفهم الناس هذه الادوات فى البداية ، لكنهم سيعتادون عليها سريعا ويالفونها • وفى مملكة فزان لا تتوفر الاخشاب التى يمكن استخدامها فى البناء أو التى يمكن قطعها الى الواح ، فالنخيل هو الشجرة الوحيدة الموجودة، ويستخدم خشبها فى صنع الابواب والدعائم والاسوار • ويمكن قطع الشجرة الى أربعة أجزاء • وخشب النخيل مسامي جاف وقابل للعطب سريعا •

وعموما فان ملكية الارض يحتكرها طبقة الاغنياء ويزرعها لهم العبيد ، أو الفلاحون الاجراء الاحرار ، وهم يعملون معا ويتقاضون نفس الاجر • وتنتقل ملكية الاراضى بعد الوفاة الى أقرب الاقارب ، أما اذا مات أحدهم دون أن يخلف ورثة ، أو اذا حكم عليه بالموت لارتكابه احدى الجرائم ، فان السلطان يستولى على ماله • ومع ذلك فليست هناك قيود على البيع والشراء كالموجودة فى انجلترا ، ويمكن للمالك أن يتصرف فى أملاكه كيف يشاء وحينما تباع قطعة أرض أو تؤجر فان الثمن يقوم على أساس الابار والنخيل الموجودة بالارض ، ويحدث كثيرا أن يمتلك أحدهم النخيل ، بينما يملك الارض التى ينمو عليها النخيل شخص اخر • وتزرع الحدائق وتسوى بواسطة الفئوس ، ويقسمون الارض الى مربعات صغيرة (ثلاثة أقدام) وتمر بين هذه المربعات بعض القنوات تمد الارض بالماء • وتستخدم كميات كبيرة من الروث للتسميد وكنتيجة للجهد الضخم المطلوب للزراعة ، فان أى غريب عن فزان لا يستطيع أن يستفيد كثيرا من ملكيته للارض ، على الرغم من أننى مقتنع بأن ملكية الاراضى شيء له احترامه ، وكثير ممن يملكون بساتين النخيل يتركونها فى رعاية أقاربهم أو من يعملون لهم • على أنه من الصعب أن تجد

الشخص الراغب المخلص الامين الذى يمكنك أن تكل اليه أمر العناية بالارض وفى حالات كثيرة تجد أن بعض الاراضى ترعاها أسرة واحدة من العمال ولاجيال عدة .

وهم يستخدمون هنا موازين قليلة ، وهى القنطار ويزن حوالى ١٥٠ لبرة والرطل ويزن لبرة ونصف ، والاوقية ، كما يستخدمون أوزانا صغيرة لبيع وشراء الذهب ، وقد كان ذات يوم العملة السائدة فى الاقليم . ويحتفظون بهذه الموازين فى صناديق صغيرة . وأكبر هذه الاوزان هو ما يسمى القيراط Groowi ويزن ٣٣⅓ مثقال ، ويليه قطعة تزن ١٣¼ مثقال وأخرى زنتها ٦⅔ مثقال وتسمى أوقية ، وهى فى وزن الدولار الواحد . ويوجد أيضا قطعة نحاسيه وتزن ١⅓ مثقال . وتزن الاربع والعشرون خروبة مثقالا واحدا . وهناك أيضا ثلاثه موازين أخرى صغيرة من الحديد والرصاص تزن على التوالى ١٦ ، ٨ ، ٦ خروبة كما تستخدم عين الديك «كنصف خروبة» ويضم صندوق الموازين ايضا ملعقة صغيرة لتراب الذهب . أما المكاييل المستخدمة فهى «القفيص» وهو عبارة عن ٢٤ كيلة ، وهناك ايضا الويبه وتساوى أربع كيلات ، وتحوى الكيلة تسع صاعات . ويقسم الصاع الى انصاف واثلاث ، وتعد لذلك سلال صغيرة ، كما يقسم الصاع ايضا ـ بحفنة اليد ـ الى أرباع وأسداس ، والعملة السائدة فى الاقليم هى الدولار الاسبانى، فاما المبالغ الصغيرة فبذع ذرة . والجدير بالذكر أن الدولار يساوى كيلة ونصف من الذرة ، ويساوى الصاع خمسة بنسات ، وتستطيع أن تشترى أربعا وعشرين كيلة من البلح بدولار واحد .

أما الحكم فى فزان فقد كان وراثيا ، وظل فى يد أسرة سوداء قرابة خمسمائة عام . وكانت الاسرة من الشرفاء ومن قبيلة من فاس بالمملكة المغربية الا أن المكنى استطاع أن يقضى على هذه الاسرة وأن يقفز الى كرسى الحكم . والمكنى حاكم مطلق فى فزان ، وحكمه وراثى ، على الرغم من انه يعتبر فى طرابلس شخصا عاديا . ويستمد المكنى قوته وسطوته من أتباع مسلحين ، ويخدمه فى هذا أيضا الخوف الذى يشعر به الاهالى تجاه الباشا ، ويقبض المكنى على زمام الامور بيد من حديد ، ويعاقب بقسوة ، وكلمته هى العليا ، والمال هو

هدفه الاوحد الذى يسيل له لعابه • وهو لا يدخر وسعا فى الحصول عليه من مواطنيه التعساء • ولا أحد يملك أدنى سلطة عليه • ويستمد بعض رجالم منه السلطة الا أنهم جميعا أمامه ليسوا أكثر من فئران • ولا يبت فى القرارات التى لها وزنها كالحرب مثلا الا الباشا ، على الرغم من أن المكنى دائما ، يتصرف كما يحلو له قبل أن تصله أية أوامر مؤكدة •

أما القاضى فهو بوصفه أعلى سلطة قضائية ودينية فى البلاد ـ أو هكذا يجب أن يكون ـ فهو مقرب الى المكنى أكثر من غيره ، الا أن رأيه دائما يتمشى مع رأى سيده ، ويعيش فى مرزق بعض ألاسر «البيضاء» ويسمونهم المماليك وهم ينحدرون من سلالة المرتدين ، وقد بعث الباشا بمعظمهم كهدايا الى السلطان السابق • ويعتبر هؤلاء المماليك ونسلهم من النبلاء ، ومهما بلغوا من فقر وسوء حال فهم أبدا لا يتنازلون عن خيلائهم بلقبهم • ولا شيء يعادل مركزهم الرفيع فى العالم الاسلامى وان كانوا لا يفضلون الاخرين فى شيء • على أن القاضى والمشايخ والقواد والحجاج والمرابطين ، وكل من يملك مالا وعقارا فضلا عن ملابس نظيفة غالية ، يعتبرون فى نظر الجميع من علية القوم أيضا ، طالما دامت لهم الوظيفة والمال ، وحين يفقدونهما ، فأنهم فجأة يصبحون من حثالة القوم ، وتقتحمهم الاعين كالعبيد سواء بسواء •

ووظيفة القاضى وراثية ، ولقد ظلت فى أسرة واحدة طوال المائة والخمسين عاما الاخيرة • والمواهب ليست مطلوبة على الاطلاق لتقلد هذا المنصب الرفيع والمطلوب فقط هو معرفة القراءة • وحين يموت القاضى يرث وظيفته الشخص التالى فى أسرته ، ويقفز الى الوظيفة عاقلا كان أم أبله • وقاضى مرزق رجل أسود يدعى «محمد الحبيب» ، ويستطيع القراءة بطلاقة ، ومع هذا فهو شديد التطير ، ويكتب الاحجبة والتمائم أكثر من أى شخص اخر فى الاقليم ولكل مدينة كبيرة قاضيها ، الا أن الوظيفة فيها ليست وراثية كما هو الحال فى العاصمة

وتتميز الطبقة العليا من الناس أو أصحاب الأملاك عن الفقراء بالسماح لهم بالتردد على مجالس السلطان ، ويعيشون فى بحبوحة من كافة الوجوه • وللاغنياء سلطة ممارسة الضغط والقهر على من هم أرق حالا ، ومع هذا فهم يتصرفون ببساطة مع عبيدهم ، تماما كما يتعاملون مع بعضهم البعض • فالعبيد

يمكن أن يدخل على سيده ويجلس بجانبه ، ربما على حصير واحدة . ويشاركه في الحديث والدعابة والطعام ، دون أن يرتدي ، حتى ، قميصا على عهره . وحينما يلبس السيد أفضل الثياب ، فانه يمنع هذه الحرية عن عبيده . أما المواطنون فهم خاضعون تماما لسادتهم ، ولا يملكون عليهم سوى قدر ضئيل من الجرأة والحرية . ويبدون أمام حكامهم كما لو كانوا قد سلبوا كل احساس . وهم لا يعرفون شيئا اسمه الحرية ، وهم دائما هدف لنزوات الحكام . وعلى هذا فان هناك فرصة ضئيلة لقيام أي ثورة شعبية لاستعادة حقوقهم المسلوبة . وأبدا لم يحاولوا الاستفادة من موقفهم المنعزل في هذه الصحراء ، للثورة على السلطان والباشا أما بعض العرب وخاصة أولاد سليمان فقد كان لهم يوما حول وسلطان أما اليوم فلا حول لهم ولا قوة .

ويمكن أن تصل قوة المكني العسكرية – في حالات الضرورة – الى خمسة الاف رجل ، اذا جند العرب في صفوفه . ولا يسمح للفزانيين عادة بأن يشتركوا في حملات عسكرية ، فهم في نظر الحكام جبناء . وهم يقاسون كثيرا لحرمانهم من حمل السلاح ، ومجبرون على احترام من يملكه . وليست هناك حروب بالمعنى المفهوم ، ولكنها الرغبة في الغنائم ، التي تدفع بالمكني الى ايفاد حملاته على جيرانه ويساعده في ذلك جبن الاهالي في ممالك السود المجاورة . وينفذ السلطان حملة كل عام الى هذه الممالك ، لا ليحارب ، فلا يستطيع السود مقاومة الفرسان والبندقية ، وانما ليسلب هؤلاء القوم ، يسلبهم أغلى ما يملكون .. يسلبهم حرياتهم ويستعبدهم ويحرق مدنهم ويقتل المسنين منهم والاطفال ويخرب محاصيلهم ويمارس جنوده كل ضروب التعذيب والقهر ويتم كثير من الغزوات تحت قيادة المكني نفسه ، وحينما يتخلف ، يقودها بعض من رجاله وعلى أية حال فقد كبر ابنه الصغير ، ويستطيع المكني أن يعتمد عليه في قيادة غزوات كهذه . والى جانب الرجال الذين يجندهم المكني ، فان هناك كثيرا من البدو الذين يعيشون بالقرب من سوكنه وبني وليد ، يشاركون الحملة وينضم اليهم ايضا اعداد من «تبو تبستي» ومن (قطرون) طمعا في نصيب من الغنائم . ولا يوجد بين قبائل فزان أية عداوات أو حزازات متوارثة ، ولا حتى بين الأسر التي تعيش في فزان ، فلم يعد هناك ذلك الجنس العربي المولع بالحروب .

ولا يستطيع واحد من سادة العرب أو السود ، وربما الاهالى جميعا ، لا يستطيع واحد منهم أن يقاوم الرشوة (١) وعلى هذا فانه يمكن فعل الكثير باثارة حماس سلاطين ممالك دواخل أفريقيا • وربما استطاعوا ـ عن طريق الهدايا والهبات ـ أن يضعوا حدا لاغارات المكنى عليهم وأن يضمنوا أستقلالهم ويمنعون تلك الغزوات السنوية التى يفقدون فيها كثيرا من مواطنيهم • ولما كان هدف المكنى هم السود فقط ، فهم لا يفتأون يستعوضون ألخسائر ألتى يلحقها بهم بأن يبيعوا أسراهم كعبيد •

وأسلوب العقاب فى فزان ، هو نفس أسلوب العقاب المتبع فى طرابلس ، على الرغم من أن الشنق نادرا ما يطبق ، فالخنق هو النمط المفضل لدى المكنى • واذا وجد رجل مقتولا ، ولم يهتد أحد الى الجناة أو المحرضين ، فيلزم ألمكنى أهالى المدينة ، أو المدينة القريبة لمسرح الجريمة بدفع غرامة قدرها ٢٠٠٠ دولار • واذا وجدت جثة فى مكان ما بالصحراء وعليها اثار عنف ، فان أهل المكان يلزمون بدفع نفس الغرامة ، الا أن المجرم لا يستطيع أن يدفع الغرامة ، أو أى واحد من أسرته • ولقد وقع المكنى نفسه فى مأزق كهذا ، فمنذ عدة سنوت قتل أحد رجال القنصلية البريطانية فى طرابلس ، وتظاهر الباشا بأنه لا يعرف من أمر الجانى الذى ترك المدينة شيئا • وأمضى المكنى ستة شهور خارج طرابلس ثم عاد ليدخل المدينة ويستقبل استقبال الابرياء • ولا تحاسب أسرة القاتل عن جريمته • ولا يلحقهم عار أو أذى • الا أنه لو جرد من ممتلكاته فلن يجد أولاده قوت يومهم ، ولعل فى حفيدة السلطان السابق أفضل مثال على ذلك • فهى ألان من المتسولات الشهيرات ، وعلى الرغم من أن الاهالى يعاملونها كأميرة ، الا أنهم لا يستطيعون التخفيف عنها الا بقليل من ألذرة والبلح •

ان المظهر العام لرجال فزان هو البساطة والبشرة السوداء ، والنساء من نفس اللون ايضا ، وهن دميمات ، ولا نجد فى كلا الجنسين شيئا ملحوظا فيما يتعلق بالشكل أو الطول أو القوة أو النشاط والحيوية • ولهم جميعا وجه متميز عن السود الاخرين ، فخدودهم أكثر ارتفاعا وبروزا ، ووجوههم وأنوفهم

(١) لو صح ذلك ، فان الحكام المنحرفون ـ حينئذ ـ هم السبب فى ذيوع هذه الرذيلة (المراجع) •

أقل فلطحة من الزنوج . وعيونهم صغيرة بصفة عامة ، وأفواههم واسعة وأسنانهم سليمة وشعرهم خشن . وتلد الاناث فى الثانية أو الثالثة عشرة ، وفى الخامسة عشر تتدلى أثداؤهن كالعجائز ، وفى بعض الاحيان تستطيع النساء الانجاب حتى الخامسة والثلاثين . وأهل فزان قوم مغرمون بالرقص والموسيقى وتسودهم روح المحبة والوئام ومعظم الاهالى يجيدون القراءة ، الا أنهم فيما عدا ذلك أغبياء كسالى ، تسودهم طريقة واحدة فى الاستجابة للامور . وهم لا ينفعلون ولا يفلت منهم الزمام ، ولا يميلون اطلاقا الى الانتقام .

ويشرب الرجال فى مرزق ، كميات كبيرة من (اللاقبى) ، والعرب بصفة عامة كرماء ، الا أن هذه الصفة ليست واضحة فى فزان . الا أنهم - بصفة عامة - مجاملون متذللون لمن فى يدهم سلطة ، أو لمن يجزلون لهم العطاء لقاء كرمهم المظهرى . ويقول الدين الاسلامى : أنه اذا دخل واحد على جماعة وهى تأكل ، فلابد أن تدعوه لمشاركتها الطعام . والطبقات الدنيا بالضرورة كادحة والنساء والرجال على السواء يجلبون المياه ويعملون فى الحقول ويسوقون الحمير ويصنعون الحصير والسلال .. الخ .. هذا الى جانب أعمالهم اليومية العادية . أما الاغنياء أو من يملكون عبيدا يعملون لهم ، فهم على العكس تماما ، فتجدهم كسالى متبلدين . وهم لا يفعلون شيئا سوى السير بضعة أمتار حول منازلهم .. يتسامرون حول أسعار العبيد والبلح . وطباعهم لا تختلف كثيرا عن طباع أهل طرابلس ، الا أنهم أقل اخلاصا . وهنا فى مرزق لا يعتبر الكذب عملا بغيضا حتى يكتشف .

والمرابطون قوم كذابون محتالون (١) ، ومع هذا فهم فوق مستوى الشبهات . والواقع أننى رأيت بعض النماذج الطيبة والامينة ، الا أنهم يضيعون وسط نذالة الاخرين ، والكرم شىء لا يعرفه أهل المكان ، أو بمعنى أوضح ، يمكن أن يقال أنه يكاد لا يوجد . وأهل فزان مسلمون متعصبون على مذهب الامام مالك ، وهو أحد الائمة الاربعة ، أما المماليك فهم من الاحناف . ويسود بينهم الاعتقاد فى الشياطين والحسد ويؤمنون بالعفاريت والارواح ، ويعتقدون أن الرقى والتعاويذ تمنع الأذى وترد الحسد .

---

(١) التعميم غير مقبول (المراجع) .

ويؤم المصلين القاضى ، وفى غيابه ينوب عنه الامام • أما المؤذن فيقوم بالاذان يدعو الناس للصلاة • ولا يملك القاضى أو الامام أو المؤذن أية مميزات ، وهم جميعا ـ فيما عدا القاضى ـ كالاخرين من كل الوجوه ، ويتزوجون بأكثر من واحدة ، ويعاشرون المحظيات ويلبسون ما يلبسه ألاخرون • ولقد كان السلطان السابق يختصهم ببعض المال ، أما السلطان الحالى فلا يتبع تلك القاعدة ، ومن لا يملـك حقـلا منهم فهو يعيش على الاحسان والهبات ، وهم لا يتدخلون فى الحكم ، وليس لهم أى تأثير على بعضهم البعض أو على الاخرين • وكل ماهنالك انهم يعتبرون من الاتقياء ، ولهذا فان الاهالى يثقون فى أحجبتهم ويدفعـــون لهم مقابلا • والثقافة والعلم شىء لا وجود له ، فلا يملك واحد من المســـلمين فى هذه البقعة من العالم ، كتابا • ولا يوجد سوى بعض الكتب الدينيــة وكتب الخرافات • ويقف تعصبهم وتحيزهم حائلا أمام أى جديد وأمام أى فرصـــة للتطـور •

ويرتزق الفقهاء (جمع فقيه) من كتابة الخطابات أو قراءة الرسائل التى تصل الى الوجهاء الذين يدفعون لهم قليلا من الذرة • أما خطابات الباشا فهى تمـــر بين أيدى رجاله الذين يعتبرون من علية القوم ، على الرغم من أن بعضـــــهم من العبيد •

ولا شك أنهم يشعرون بأهميتهم حينمـا يقرءون خطـابا للسـلطان الذى لا يستطيع تمييز حرف واحد • وقليل من الناس من يستطيع قراءة كتاب غـــير كتابه الذى تعود منذ الصغر ، وجارنا العجوز الحاج محمد ، يقرأ نفس الكتاب كل صباح طوال أربعين عاما ، ولهذا فربما حفظ بعض صفحاته عن ظهر قلب ، وحينما أسمعه يقرأ أجده يقف عند بعض المقاطع ويهلل صائحا ويقـول اللهم بارك لى •• رائع •• هائل •• الله أكبر •• وكأنه يقرأ الجملة للمـرة الاولى فى حياته • ولدى كثير من الفقهاء ذاكرة جيدة ويحفظون القرآن كله عن ظهر قلب •

وتجيد الطبقات الدنيا أشغال الجلود ونسج الاردية الخشنة وأعمال الحدادة • أما أعمال البناء فلا تتطلب مهارة كبيرة ، فهم يبنون بيوتهم من الطين وخشـــب النخيل ، وهم يطلقون لفظة «أسطى» على أصحاب الحرف ، فهذا أسطى حداد واخر أسطى نجار وهكذا •• ومهما كانت مهارة الرجل فهو أبدا لا يفضـــل

الاخرين ، فيما عد المرابطين فهم مهيبون ومحترمون • وحينما يموتون يصلى الناس على أرواحهم ، وهم هنا يتكلمون العربية ، ولكنها تختلف كثيرا عن اللهجة المصرية ونتيجة لمعاملاتهم التجارية مع بورنو والسودان ، فانهم يتكلمون لغاتهم أيضا • ولقد لاحظت ايضا أن كثيرا من المفردات الغربية قد تسربت الى اللغة العربية • وأسلوبهم فى الكتابة هو الاسلوب المغربى الشائع فى غرب أفريقيا ، ويختلف كثيرا عن أسلوب الكتابة فى الشرق • وتوجد اختلافات فى نطق بعض الحروف أيضا ، فالقاف ينطقونها جيما(١) • وهم لا يعرفون الحساب وطريقتهم فى الاحصاء هى رسم نقاط على الرمال ، كل عشرة فى صف واحد• وقليل منهم يستطيع أن يعرف حاصل جمع اثنين زائد اثنين ، وهم يبدون دهشة كبيرة لقدرتنا على الجمع دون استخدام الاصابع • وهم وعلى الرغم من ولعهم بالشعر لا يستطيعون كتابته ، ويستطيع بعض العرب نظم بعض الاغانى التى يرددها الاهالى • وتغنى النسوة أغانى زنجية حين تشغلهن أعمال المنازل •

ويعمل العبيد وسواد الناس معا ، والرجل الحر لا يوجد لديه الا دافع واحد للعمل ، وهو الجوع • وحين يعمل فهو لا يوفر شيئا لاسرته أو شيخوخته • وحين يكسب مالا يظل دون عمل حتى يأتى على كل ما كسبه ، حينئذ يعود مكرها الى العمل •

وتتمتع النساء بحرية أكبر ومعاملة أفضل من نساء طرابلس • وظاهرة تعدد الزوجات موجودة بوضوح ، ولهذا فان نساء فزان لسن فوق مستوى الشبهات وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التى تلقاها نساء فزان بالنسبة لنساء طرابلس ، فحياتهن ما زالت نوعا من العبودية • فالرجل لا يتحدث مطلقا عن زوجاته ، ويحتقر اذا أمضى معهن وقتا طويلا • وهو لا يشاركهن الطعام ، بل يقفن على خدمته حتى ينتهى من طعامه ، ومع هذا فتجدهن سعيدات - نسبيا - وهذا ليس بمستغرب فهن لم يجربن حلاوة الحرية •

وسلطة الوالدين على الابناء عظيمة ، ولا يسمح بعض وجهاء القوم لاولادهم بالاكل أو بالجلوس فى حضرتهم حتى يصبحوا رجالا ، أما العامة فيسمحون لابنائهم بممارسة حريات أكبر •

---

(١) حسب اللهجة المصرية أو « الكاف » الفارسية (المراجع) •

ولا توجد فى فزان أية مراجع مكتوبة عن ماضيها ، وتقاليدهم شـــوهاء مليئة بالخرافات ، ويكن أهل فزان احتراما خصا لمن يحفظ حكايا ألاولين • اهناك أيضا بعض «التقاليد» المتوارثة التى تحظى باحترام كبير لديهم • فهنـاك «تذكرة داود» وأسفار موسى الخمسة ، وكتب سليمان ومقتطفات كبيرة من أقوال الانبياء • وهم يقرءون الانجيل ـ العهد الجديد ـ المترجم الى العربيـة ، الذى نحمله معنا ، بشـغف ، ولا اعتراض عليه أبدا ، الا فيمـا يتعلـق باعتقـادنا أن المسيح هو ابن الله • وهم يعتقدون أنه ورد بالانجيل آيات تبشر بمحمد ، ولكن القديس بطرس والقديس بولس قد حذفا هذه الاشارات ، ولهذا فانهم يتهمون هذين القديسين بالكفر •

الرق وتجـارة العبيـد

يشكل العبيد عشر أهل مرزق (على الرغم من ان كثـيرا منهم جلبـوا وهم صغار) ولا يوجد فرق كبير بين الاحرار وبين العبيد الذين يعملون بالمنازل ، بل أن سادة العبيد يثقون بهم كثيرا ، ونادرا ما يباع هذا ألنوع من ألعبيد•وحين يموت واحد من الاسرة المالكة فقد جرت العادة على أعتاق عبد أو أثنين ، وحين لا يود العبد المعتق العودة الى بلاده ، فانه يتزوج ويستقر ويعامل كواحـد من المواطنين العاديين • والاسترقاق،فى العادة استرقاق مطلق ، ويحدث فى كثير من الاحيان أن يعتق العبد اما بوازع دينى أو فى مناسبة معينة ، عند موت واحد من أفراد أسرة سيده مثلا أو اعرابا عن تقدير لخدمات العبد •

ولقـد كانت عادة اعتـاق عبد أو جـارية سـائدة فى العيد الصغير عندما كان الناس أوفر مالا الا أنها نادرة الحدوث هذه الايام •

وفيما يتعلق بذرية العبيد ، فان العادات المتبعة فى فزان ، هى نفس العـادات السائدة فى كل الاقطار الاسلامية•فالخادم التى تحمل من سيدها لا تباع أبدا(١) ولابد أن تظل بقية حياتها معه أو مع أى شخص آخر يزوجها أياه وطفلها حر أيضا ، والجارية التى تحمل من رجل آخر غير سيدها تلد عبدا ، وتظل أمـة

---

(١) ويطلق عليها فى الاسلام « أم ولد » ٠٠ وتصبـح حرة بمجرد وفاة سيدها (المراجع) ٠

واذا حملت جارية أحد السادة من عبد سيد آخر فان الطفـل فى هذه الحالة ، يكون ملكا لصاحب الجارية ويمكن أن يباع • وطفل المرأة الحرة من عبد تكون له حرية أمه •

ويحدث أحيانا أن يسمح السادة لعبيدهم وجارياتهم بأن يتزوجوا دون أن يعتقوهم الا أن أطفالهم فى هذه الحالة يظلون عبيـدا ، ومن غير المسـتحب أن يبيع السيد أولاد عبيده • وتسمى ذرية ألعبيد هذه بـ « شوشـان» •

الفصل الثامن

خلال الايام القليلة التى قضيتها فى مرزق ، بعد عودتى من رحلة الجنوب ، قضيت وقتا طويلا فى علاج طفل مسكين يشكو من انطباق فكه ، (١) وعندما رأيته للمرة ألاولى كانت حالته ميئوسا منها ، وكانت احدى يديه مصابة نتيجة لوقوع ثقل عليها ، وتلوثت وأهملت وباتت رائحتها لا تطاق . ولعدة ساعات مضت لم يكن الطفل قد ذاق أى طعام . وأفلحت فى أن أفتح فكه عنوة ، وشرب قليلا من الحساء واللبن . ولم يستطع المسكين أن يقاوم طويلا ، فمات فى الخامس من فبراير على الرغم من رعايتى له ، وعلى الرغم من عشرات التمائم التى يحملها !! والغريب فى ألامر أن (الفقيه) ألذى كتب هذه التعاويذ ، أكد أنه من الخطر أن يقرأ أى واحد ما كتب أو أن ينقل سطرا منه ، وحتى يتجنب الفزانيون أى فرصة لقراءة هذه الرقى ، فانهم يضعونها فى كياس من الجلد أو القماش .

والمعروف خطأ عن المغاربة والعرب ، انهم يحرمون الرسم طبقا لتعاليم القرآن المأخوذة دون شك عن الوصية الثامنة من وصايا موسى العشر . وفيما يتعلق بى فأننى لم أجد أى اعتراض عندما كنت أحاول رسم أى شخص ، سوى انهم كانوا يقولون هذا حرام .. فالمسيحيون يعبدون هذه التصاوير .. وشرحت لهم أن ما أرسمه ليس لاى غرض دينى .. وليس أكثر من رسم بعض الاصدقاء ــ حينئذ زالت كل مخاوفهم وتركونى أفعل ما أشاء . ولطالما كانت قدرتى على رسم الاشخاص على الورق ، محلا لدهشتهم ونقاشهم وكانوا يلاحظون وجه الشبه بين ما أرسمه وبين أى واحد من الحضور ، على الرغم من اختلاف لون البشرة أو السترة التى يلبسها . وفى احدى المرات أثرت غيرة السلطان حينما لم أستطع أن أقنعه أن الزنجية التى رسمتها لم تكن واحدة من محظياته .. وسألنى بطريقة لبقة كيف رأيتها ؟ فان أحدا غيره لايستطيع

(١) أى مرض التتانوس .

أن يراها • وحينما يطالع أحدهم الصورة لا يدهش لها كثيرا بادىء الامر ، ولكن ما ان يكتشف العينين حتى تقفز الدهشة على وجهه ، وينطلق فى الضحك ويصيح •• الله •• الله •• !! ويرفعون أيديهم الى جباههم من شدة المرح •• الا أن بعضهم لم يكن يعبر عن دهشته بهذه الطريقة ، ويطيب لهم أن يشيروا بأصابعهم الى الوجه صائحين •• أنظر •• هذه عينه •• ويتجاذبون الصورة ويصيحون انه عبد الله ، أو محمد ، أو أى واحد من الرفاق •• انظروا •• ان له عينين •• بسم الله الرحمن الرحيم •• رائع •• آ لم أكن أتصور أبدا أن رجلا يمكن أن يرسم على ورقة •• أنظر ألا ترى القفطان الذى اشتراه من الحاج محمد ؟ انظر •• ان له أنفا وفما •• أوه •• أوه الله •• الله • !؟!

وكان صديقنا الفقيه سالم •• يلح فى أن أعطيه بعض الدواء يعينه على الانجاب ، وعبثا حاولت الاعتذار ، واضطررت فى النهاية أن أعطيه بعض الدواء ، مؤكدا له انه سيساعده على الانجاب •• وأوصيته ـ حينما يأخذ الدواء ـ أن يغلق عينيه ويسد أذنيه ، ووعدنى أن يفعل ما أريد •

وأعددت بعض الدواء وقدمته هدية للمكنى ، ورجوته أن يقبل (المقطر) الذى اقترضه منى كهدية ، وكنت أعلم أن لن يفكر فى اعادته الى أبدا ـ وكان قد اقترضه ـ كما قال ـ ليصنع كوبا من الكراوية •

وبعت حصاننا الصغير بعشرين دولارا ، واستأجرت جملا لحمل الامتعة حتى سوكنه بما يساوى دولارين الا قليلا •

وأهديت الحاج محمدا «صينية» شاى يابانية ، وكانت تعجبه كثيرا ، وكلما أحضر صديقنا لزيارتنا رجانى أن أريها له ، وطلبها فى النهاية ليريها لزوجته الزنجية الحامل ـ وكان ذلك مدعاة لفخره ، فقد تجاوز الخامسة والسبعين ـ حتى تلد له طفلا جميلا ، فكل أولاده غاية فى القبح والقصر كأبيهم • ووعدنى أن يهدينى خروفا وشاه من سلالة سودانية أحملها معى الى انجلترا • أما «عليوة» فقد أهدانى جملا من جمال المهارى وكان أبيض تماما وذا شعر ناعم •

وحضر الى حتيتة .Hateeta وهو طوارقى من قبيلة بنغاسة .Benghrasa بغات ، حضر ليودعنى وطلب منى حينما أعود لافريقيا مرة ثانية ، أن أزوره فى بلاده وأن أصطحبه الى بلاد السود • وأضاف انه سيكون شاكرا لو اننى

استطعت أن أحضر له سيفا كسيفي • وكان «حتيتة» هو الطوارقي الوحيد الذى رأيته يعطيني هدية دون أن ينتظر مقابلا ، ولم يكن شحاذا ولا يلح فى طلب شيء • وأعطاني الرجل بعض شرائح غريبة صنعت من جلد الظباء ، كما أعطاني ـ دليلا على المودة ـ خنجره الذى يحمله ، كما أهداني سرجا لجملي المهارى ، وعلمني كيف استخدمه • أما (أم يوسف) فقد بعثت الى بكمية كبيرة من «الدويدة» والكسكسي والتكرة .Tikkery وهي كعكة مصنوعة من البلح الجيد ، لاحمله معي هدية لاصدقائي في انجلترا •

وحينما كانت تزاولني الحمى ، كنت أضيع الوقت في زيارة سوق العبيد ، ولقاء بعض التجار الاصدقاء ، ووعدتهم بزيارتهم في بلادهم اذا عدت لافريقيا مرة أخرى • وأعددنا كل شيء للرحيل ، وأذن السلطان للازهري ـ بصعوبة ـ بأن يصطحبني ، وودعنا الرفاق ويممنا شطر طرابلس •

الرحلة من مرزق الى طرابلس

الاربعاء ٩ فبراير درجة الحرارة ٣٠ ١° تحت الصفر •

اليوم •• هو يوم الرحيل ـ وفي التاسعة صباحا ذهبت الى السلطان لاودعه ، وكان بالغ التأثر ، ودمعت عيناه ، وهو يشد على يدى كما لو كنت واحدا من أبنائه •• وأخبرني بأنه ذاهب الى (بورنو) خلال بضعة أشهر حيث ينوى أن ينصب نفسه سلطانا هناك •• ورجاني أن أعود ليصطحبني معه لاعلم رجاله التصويب •• وحينما لوحت له بيدى مودعا ـ قال : أرجو أن تعود ، لاراك مرة ثانية••فقد كنا دائما أصدقاء ، كما كنت صديقا ليوسف،وأنا واثق انك ستخبر «سلطانك» بأننا فعلنا كل ما في وسعنا طيلة فترة وجودك معنا ـ وأردت أن أضع حدا لهذا النفاق بأن أعربت له عن عدم تصديقي له ورفعت يدى مودعا،وغادرت قلعته واحتضنني الطريق واحساس يراودني بانه ربما حاول قتلي •• تماما كما حدث للحاج عثمان •• وليسمح لى القارىء أن أسرد حكايته •• حينما تولى المكني زمام الامر فى فزان ، حدثت مشادة بينه وبين الحاج عثمان ، وكا من كبار المماليك،وتظاهر المكني بأنه نسى كل شيء ، وأكد له صداقته من جديد،وحينما غادر المملوك عثمان مجلس السلطان ، أرسل من يقبض عليه حيث أعدم هو وولداه • ولقد كان خروجي من مملكة هذا الرجل الخائن ، ودون متاعب ،

مدعاة لدهشة الاهالى جميعا ، خصوصا حينما عرفوا أننى أثرت حكاية الشيخ الازهرى وقضيته مع السلطان •• وعلى أية حال فقد أفلحت فى الوصول الى منزل ألازهرى ، ورحلنا سويا عن المكان ورافقنا بعض وجهاء المدينة حتى «جليم» .Dgleim حيث بلغناها مع غروب الشمس ، بعد أن قطعنا مسافة عشرين ميلا شمال شرق مرزق • قافلتنا قوامها ستة رجال ، أنا وبلفورد وأربعة اخرون وثمانية جمال محملة وجملان من جمال المهارى وخروفان وحصانى • أما قافلة الازهرى فقد كانت تضم ست عشرة جارية وثلاثة من العبيد ، وجاريته الخصوصية ، وأربعة جمال محملة ، وجملا مهاريا يركبه ألازهرى نفسه ، واثنين من العرب • وكنا جميعا نتمتع بروح عالية ، وأمل العودة يراودنا ، وفرحة بنجاة الازهرى من براثن السلطان تجد طريقها الى قلوبنا جميعا •

١٠ فبراير درجة الحرارة «صفر»

وغادرنا الرفاق الطيبون ، وبكى يوسف والحاج محمود ، وبدا محمد حزينا ، أما «بركة» الصغير المسكين ، الذى أقرضه لنا يوسف منذ مدة طويلة ، فقد كان بادى الاسف • وكم وددت أن اخذه معى ، الا أن صاحبه رفض أن يبيعنى أياه على الرغم من انى عرضت عليه حصانا • وكم أحسست بالالم وأنا أودع الاصدقاء •• وقد كانوا نعم الرفاق المخلصون وبذلوا لنا كل ما فى وسعهم ، واليهم ندين بكل فضل • كان الصبح صحوا •• وجمالنا نشطة •• وبدأنا المسير بخطوات واسعة •• ولحقنا الشريف « صديق» الذى كان يعسكر على مسافة منا ، وأصبح رفيق الطريق الجديد • وكانت قافلته تتكون من أربع فتيات وثلاثة رجال وأربعة جمال وثلاثة من العرب • ومن مؤننا المتواضعة ، كانت جارية الازهرى واسمها «رحمة » تعد لنا وجبة شهية كل ليلة • ولو كنت قد اعتمدت على وعود السلطان لهلكت فى الطريق دون شك • فقد طلب منى السلطان ألا أحسب حسابا للطريق ، فقد أمر عبيده باعداد كمية كبيرة من الكسكسى والدقيق واللحم المجفف ، وأكد لى انه سيعطينى «التذكرة» لكل المناطق التى أسافر اليها ، ليمدنى أهلوها بكل ما يلزمنى ، ويلزم دوابى من طعام وماء •• ويؤسفنى أن أقول أن واحدا من هذه الوعود لم ينفذها المكنى •• ولم تكن سوى وعود أضفتها الى وعودة الاخرى الكاذبة ، وكانت على أية حال تؤكد سوءنية المكنى وعدم اخلاصه ،

الطريق يتلوى عبر صحراء عارية لا حياة فيها ولا نبت ، وريح شرقية باردة عاتية تكاد تطوح بنا ، وتحمل أطنان الرمال الى الانوف والشفاة .. ولبست الجوارى لباس السفر النظيف الانيق ، وقد غطين رءوسهن بغطاء أخضر ولبسن قمصانا زرقا أو بيضا من القطن ، وصديرية ، ورداء فضفاضا يلفهن . والملاحظ أن السادة لا يعتنون بالجوارى بنفس الدرجة دائما ، ففى الشتاء يكونون أكثر حرصا عليهن ، فربما أفسد الطقس البارد جمالهن وصحتهن ، مما سيبخس أثمانهن بطبيعة الحال . ولا يلقى العبيد الرجال عناية تذكر ، ويكفيهم قميص طويل وعباءة .. ويلبس كل من العبيد الرجال والاناث «صنادل» من جلد البعير وتمشى الجوارى بمفردهن ، أما الرجال فيسيرون خلف الجمال . أما العبيد الاطفال فهم عادة يركبون الجمال الى جانب الاحمال . هذا اذا لم يكونوا قادرين على السير ، أما من بلغ منهم الخامسة أو السادسة ، فهو مضطر لان يسير طوال الطريق دون راحة على الاطلاق . ومررنا بقافلة من طرابلس قوامها عشرون جملا تحمل ذرة الى مرزق ويرافقها رجال الباشا . وأخبرنا أن الباشا أنفذ جيشا الى أوجله ، وأن الوباء قد انزاح عن تونس وجربة . وفى الرابعة تركنا الطريق ، واتجهنا ناحية بئر «غرودة» وكنا قد سرنا آنذاك تسعة عشر ميلا شمال ٤٠° شرقا . وفى السابعة والنصف بلغنا النشوع .Neshoua وهى واد يمتد شرق شمال الشرق ، بعد أن قطعنا سبعة أميال الى الشمال الغربى .

وأمضينا بعض الوقت وسط النخيل بالقرب من بئر ماؤها طيب ، وبينما كنا نحط الاحمال عن الدواب ، جمح جمل بلفورد وجرى بعيدا ، وسقط عنه رجله . وشاهدنا بعض العرب بعد الطعام ، فأتوا الينا وأصابوا بعضا من طعامنا. وفى العادة يقدم العشاء للسادة قبل العبيد ، وتتكون وجبة العبد من حجم قبضتين من البازين وقليل من الشحم والفلفل ، يغمسون فيها بين الحين والاخر قطعة البازين . وكل ما يصيبه العبد طيلة النهار لا يتعدى حفنة من التمر وقطعة البازين هذه ، ولا يسمح بعض السادة لعبيدهم بالشرب بعد الغذاء ، الا اذا كان بالقرب من بئر ماء . وحينما تنتهى القافلة من الطعام يستلقى الجميع ، الاناث فى ناحية ، والرجال فى أخرى ، حتى الصباح .

١٢ فبـــرايـر

درجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر(١) وتجمد الماء وعاش العبيد يوما باردا رهيبا • وفي الثامنة والثلث تابعنا السير تجاه حافة الوادي • واضطر بلفورد الى أن يسير على قدميه بعد أن تورمت أقدام جمله •

مضينا شمالا بميل ٧٥ درجة ناحية الشرق • وبلغ عرض الوادي حوالى ميل وحاد تتآخمه الصحراء من الجانبين وفي الواحدة بعد الظهر توقفنا عند (عدوة) بعد أن سرنا قرابة اثنى عشر ميلا • ويوجد بالمكان مسجد أنيق تعلوه قبة بيضاء نظيفة وفي الضريح يرقد ثالث اخوة سيدي بشير ، وهو المرابط الذي تحدثت عنه آنفـــا •

اشتريت هنا خروفا ودفعت فيه دولارا ونصف •

رحلنا في الثامنة ، ومضينا عبر الوادي ، وعند التاسعة والنصف بلغنا نهـاية الوادي حيث بئر يسمى «بير وشكة» .Whishki والتقينا هنا بأحد رجال الباشا قادما لتوه من طرابلس على رأس قافلة قوامها ثلاثون جملا محملة بالحبـوب ، وأخبرنا أن القنصل الانجليزي قادم للقائي في بني وليد • وتركنا الواحة لنمضي مرة ثانية عبر صحراء صخرية • وفي السادسة والربع هبطنا ممرا وعرا يسمى تانيه .Taneia ووطئت أقدامنا واديا تحيط به التلال الرملية من كل ناحية • وفي السابعة الا ثلثا توقف الركب بعد أن سرنا ستة وعشرين ميلا شمال ٣٣° شرقا •

ومرت بنا قافلة كبيرة من مواطني وادي الشاطيء في طريقها الى مرزق تحمل الحبوب للسلطان ولتهنئته على عودة ابنه • وحينمـا كان يجمعنا المساء حـــول النيران ، كنت أشهد كثيرا من الالعاب التي يقدمها العرب ، والحق أن هـــذه الجلسات جعلتني أكثر قربا من هـؤلاء الناس ، فكنت مضـطرا لان أعطى كل واحد منهم اذنا صاغية • الوجوه جميعها تتهلل سعادة وبشرا ، ويمضي الركب بخطى ثابتة ، وجاءني واحد من رجال قافلتنا ويدعى ابراهيم فطيمة ، وهو عربي من هون وقص علينا قصصا مسلية •

الاحد ١٣ فبراير درجة الحرارة ٣° •

---

(١) جاءت هـكذا في النص الانجليزي ، وأغلب الظن أن هنـاك خطأ مطبعي - لعلها ثلاثة تحت الصفر (المعرب) •

استأنفنا المسير في الثامنة الا ربعا عبر الوادي ، وفي التاسعة تباعدت الجبال لتفسح الطريق امام واد عريض تحده التلال على مسافة عشرة أميال الى الشرق وهي امتداد للتلال التي مررنا عليها من قبل . وفي الواحدة وأربعين دقيقة بلغنا «سبها» ، بعد أن قطعنا خمسة عشر ميلا شمال ٣٣° شرقا . وهبت ريح جنوبية عاتية . وبلغنا أسوار المدينة لنجد قافلتين في انتظار قدومنا ، واحدة للحاج محمد تركي ، وتضم اثنتين وثلاثين جارية وخمسة عبيد ، والاخرى لرجل عجوز تركي أعرج ، يسمى بابا حسين .. وتضم احدى وعشرين جارية وسبعة من العبيد . وكانت القافلتان قد غادرتا مرزق قبل رحيلنا بيومين . وفي المساء تجمع أهل القرية جميعا خارج الاسوار ، يحملون عروسا الى منزل زوجها . ويتقدم الركب جمل مطهم يحمل هودجا تغطيه البسط والشيلان وريش النعام ، والعروس تتربع داخله وتهتز مع خطوات الجمل الواسعة . ويسير بعض أقارب العروس يصيحون ويطلقون النار ، ويهرولون الى ألامام والخلف أمام الموكب . وتقدم العريس الجميع ومروحة في يده ، وأصابعه مصبوغة بالحناء ، وكان يلبس ملابس صارخة ، وملامح الصرامة والجد بادية عليه . وطاف موكب العروس حول المدينة ، وفي النهاية ضمها عش زوجها . وطوال الليل لم تهدأ القرية ، فالكل يرقص ويغني ، وتطلق النسوة زغاريد الفرحة ، وأرسل أهل العروس الينا طعاما كثيرا ابتهاجا بالمناسبة السعيدة .

ومادمت قد تعرضت للاشارة الى وادي الشاطيء ، فانه يطيب لي أن أتحدث عنه قليلا ـ والوادي عبارة عن منطقة تقع غربي سبها ويضم الوادي العديد من المدن . ويمتد شرقا وغربا وينقسم الى واد شرقي وواد غربي .

ويضم الوادي الشرقي (من ناحية الشرق) المدن الاتية :

أشكدي Ashkiddi ، وقدي Ghiddi وقلوس Gelwas وبراك ، وتبعد ثلثي يوم من سبها . وعشرة أيام من غريان ، وهي أكبر هذه المدن جميعا ، ثم زويات Zooiat وتمزاوه .Tamzawa ، وقصر سلام Gusser' Sallam وأقار Aggar ، ومحروقة .Mahrouga والقرد El Gerghen ، وطروت Tariot وقوتة Gootta وبرغن Berhen (توجد مدينتان تحملان ذات التسمية) ، وتمسان .Temissan وادرى Iddri وهي قرية كبيرة وتقع أقصى غربي الوادي

الشرقى ، على بعد يومين من براك وثمانية من غدامس . ويوجد واد آخر يسمى العقال El Agaal ويمتد فى محاذاة الوادى الشرقى ، ويقع على بعد يوم من سبها ويضم المدن التالية .. أبيض Abiad الحمرا Tl Hamra ، وخليفة Khalifa ، وبن دوبيه .Bendoobaia وزوية Zueia ، والرقيبى Ergabi وطنامى Tenahmi وقصر سعد Gusser, Saad ، وقصر زبيدة .Shaida وقصر Gusser, وخريق .Kharaig .

ويبدأ الوادى الغربى من الشرق عند أدرى فقيق .Iddri Fegaige وقرطبى Kertibi. ، وقرقارة .Garragarra وطواش .Tuash وطويوه .Ghrarifi وجرمه وهى العاصمة القديمة لفزان ،وغرايفى .Oubari وأوبارى وتبعد سبعة أيام عن غات التى تبعد بدورها عن « الابيض » مسافة يومين الى غرب جنوب الغرب وتبعد أبيض عن سبها رحلة يوم واحد .

وأهل الوادى بين سود ومولدين كأهل مرزق ، وتضم كل قرية ما بين ثلاثين ومائتى منزل ، ومعظمها مشيد من جذوع النخيل . والاهالى فقراء بعد أن عاشوا عهود رخاء أيام أولاد سليمان . وتوجد بالمنطقة بعض المستنقعات الراكدة تغص بديدان فى حجم حبة الارز ، وتجمع هذه الديدن بكميات كبيرة ، وتدق مع قليل من الملح حتى تستحيل الى عجينة سوداء وتقطع الى قطع فى حجم قبضة اليد وتجفف فى الشمس . ويشكل هذا الدود وجبة شهية فى فزان حين يضاف اليه قليل من الصلصة ، وتؤكل مع العصيدة . وطعم هذه الوجبة يشبه الكافيار الردىء ، ورائحتها لا تطاق الا أن العادة والضرورة لها الغلبة فى هذه البلدان ، ولابد أن تشاركهم فى كل شىء . ولا بأس فى أن تجد فى الطعام رمالا ، فالاهالى يأكلونها بشهية فهى على حد قولهم مفيدة للصحة ، وتشتغل عائلتان باعداد هذه الديدان ، وتصدرها الى مرزق والمدن المجاورة .

الاثنين ١٤ فبراير درجة الحرارة ٣° .

رافقتنا قافلة أخرى قادمة من مرزق ، ويملكها مواطن من طرابلس يدعى «خليفة» أما القوافل التى تحدثت عنها من قبل ، فقد اتجهت صوب « تمنهنت » . واستأجرت جملا آخر لبلفورد لقاء دولارين ، وذلك حتى سوكنة ، واتفقنا أن نحمل قربتى ماء حينما نمر على (جبل السوداء) .

لم أجد شيئا أتسلى به فى الطريق ، ولهذا فقد ركبت جملى المهارى مستخدما رحلا طوارقيا (رحلة) .Rahela ، وحاولت أن أقلد طريقة ركوبهم الصعبة وهى ليست شائعة فى فزان ، ولحسن الحظ فقد نجحت الى حد بعيد .. توجد قرية قردة .Gurda جنوب جنوب الشرق ، على بعد ميل واحد من سبها .

الثلاثاء ١٥ فبراير .

بدأنا المسير فى السابعة والنصف ، بعد أن أمضينا وقتا طيبا فى ضيافة أحـــد أصدقاء الازهرى ، وحتى الثامنة والنصف صباحا امتد الطريق عبر واد عار ، حين صعدنا جبلا يســمونه بن عريف .Bn Areif وعبرناه خــلال ممــر يدعى «خرمة بن عريف» . وفى التاسعة هبطنا الجبل لنبلغ واديا صخريا تحده بضعة تلال جيرية . وفى الحادية عشرة أصبح الوادى أكثر وضوحا .. وعلى مــدى البصر كانت التلال تحد الوادى يمينا بينما تنبسط الصحراء العريضـــة عن يسارنا . وفى الواحدة والربع تضامنت الجبال وشكلت ما يشبه الهلال ينتصـب منه زوج من التلال السود تلوح لنا من على بعــد نصــف يوم من الطريق . ويسمون هذه المنطقة «رأس الغراب» .Raas Ghraab ، وفى الثانية بلغنـــا (تمنهنت) بعد أن قطعنا خمسة عشر ميلا شمال ٥٦° شرقا . وفى المساء ابتعنا تينا للجمال ، ولقد كانت طريقة الشراء شيقة للغاية ولم أشهد لها مثيلا من قبل. وشرحها لى الشريف صديق قائلا ، يحدد البائع نوع السلعة التى يريدهـــا مقابل البضاعة التى يعرضها فيقول مثلا ، أريد زيتا أو زبدا سائلة أو شحما ، فان كان يريد زبدة سائلة فانه يصب ماء فى وعاء بقدر كمية الزبدة التى يريدها اما اذا كان ما يريده شـحما صـلبا فانه يحضر قطعة من الحجر توازى حجم الشحم الذى يطلبه ، أو أى سلعة أخرى ويفرغ المشترى ماء رويدا رويدا فى اناء ، أو يعرض قطعا أصغر من الحجر حتى يلتقى الطرفان ، حينئذ يأخـــذ البائع كمية من الشحم أو قدرا من الزيت يساوى قدر ما اتفق عليه من حجر أو مـاء .

« تمنهنت» قرية صغيرة تحيط بها أشجار النخيل من كل ناحية ، ويعتبرهـــا التجار أقل بلدان فزان كرما وحسن ضيافة .

الاربعاء ١٦ فبراير درجة الحرارة ١° .

استأنفنا السير فى السابعة والنصف ، وصحراء صخرية تحيط بنا شمالا ويمينا ، وتظهر بعض بقع من الكلأ والعشب بين الحين والاخر . وفى العاشرة الا ربعا هبطنا واديا رمليا يسمى «حطيـة قرميدة» Hatia Garmyda. وفى الرابعة والنصف بلغنا «زيغن» Zeghen بعد أن قطعنا اثنين وعشرين ميلا شمال ٧٥° شرقا . وكومنا أحمالنا بجانب الاسوار ، واستلقينا طلبا للراحة . ولطول ما اعتدنا رؤية الوجوه السود ، فقد بدت لنا وجوه السكان البيض ، وكأنها مريضة . نساء المدينة مشهورات بجمالهن ، ولكنى لم أدخل المدينة ، وحتى لو دخلتها فلم يكن من المستطاع أن أراهن . وجاءنا كثير من الزوار ، وأصبنا كثيرا من الطعام ، ووفر لنا أصدقاء الأزهرى كل ما نريد . وعرفنا أنه كانت هنالك حفلة عرس ، وسمعنا الكثير عن جمال العروس ، وحينما ذكر اسمها امامنا ، اكتشفنا انها نفس الفتاة التى كان الازهرى ينوى خطبتها بعد عودته من طرابلس . وبدا الأزهرى حزينا واجما ، ومع هذا فقد تقبل نكاتنا بصدر رحب ، وعرفنا أن العريس كان على علم بما يعتزمه الأزهرى ، وحينما عرف أن الازهرى غادر مرزق ، سارع العريس المحظوظ الى خطبة الفتاة .

الخميس ١٧ فبراير درجة الحرارة صفر .

رحلنا عن المكان فى الثامنة ، وعبرنا واديا وعرا الى صحراء حجرية وهبت علينا ريح شمالية باردة . وبعد أن مررنا ببضع تلال بلغنا حتية Hatia وآبار أم العبيد ، بعد أن قطعنا أثنى عشر ميلا شمال ٥٠° شرقا . وقابلنا بعض أهالى سوكنة وأخبرونا أن سيدى محمد (شعيب أو شايب) Ssaib قادم من طرابلس ، وفى طريقه الى ملك بورنو يحمل اليه هدايا الباشا . وفى المساء ملأنا قرب الماء استعدادا لرحلة خمسة أيام فى الصحراء . وراح العرب يرفهون عن أنفسهم بالتصويب على جمجمة جمل وضعوها على ربوة عالية ، ولم يستطع سوى واحد أن يصيبها ، وكانوا يسندون البندقية على شىء ثابت ، وحينما سددت على الهدف وأنا واقف ضحكوا كثيرا لاننى لم أرح البندقية على شىء ، وعلى أية حال فقد أصبت الجمجمة مرتين .

لم يؤد بابا حسين ، الذى التقينا به مرة أخرى فى زيغن ، البوزفز أو الضريبة كتلك التى أديناها حينما مررنا بسوكنه أو بجبال السوداء على وجه

التحديد • ويحضر أهل المكان ، حينما لا يصيبون البوزفز هذا هيكلا عظميا لحيوان أو بعض من جثته ويدفنونها وهم يصرخون ويولولون • وطوال الليل يعوون كذئاب أو ضباع جوعى ويصرخون قائلين •• أين صدقاتنا •• أننا جوعى •• اين البوزفز • ويرمز الدفن هنا الى أن عزيزا لديهم قد مات من الجوع وهو لن يهدأ فى قبره حتى يأكل رفاقه •

ولما لم يعر الرجل العجوز - بابا حسين - صراخهم التفاتا حفر الرجال قبرا صغيرا له واستهدفته لعناتهم •

وحينما تجمعنا النيران الصغيرة فى الامسيات الباردة خلال مسيرتنا الطويلة ، كنا نتسلى بكثير من الالعاب العربية ، وبعض الحيل البارعة باستخدام نوى البلح • وتمر الامسيات بين مرح وصخب حتى يثقل النوم الجفون ونسترخى على الرمال حتى الصباح •

١٨ فبراير درجة الحرارة ٢° •

المكان غنى بالكلأ والعشب ، ولهذا فقد قرر الركب أن نمضى يوما كاملا به على الرغم من توسلاتنا • وعرض أحد الرجال جملا للبيع ، ولم يكن ككل الجمال يأكل البلح وكان من الصعب أن نوفر له طعاما آخر ، ولهذا فقد عرضت عليه دولارين أو ما يساوى ست شلنات وثمانية بنسات !! •• وذبحته وأكلت القافلة كلها سادة وعبيدا من لحمه • وكان الجمل من جنس المهارى موطنه بورنو وربما لا يقل وزنه عن ستمائة رطل •

لم أر من قبل كيف يخرج العرب الماء من بطن الجمل لتشرب القافلة العطشى ويتجمع الماء فى معدة «كاذبة» تضم الماء والطعام غير المهضوم ، ويصفى هذا الماء ويشربونه ، وعلمت ممن جربوا هذا الشراب أن طعمه مر •

السبت ١٩ فبراير درجة الحرارة ١° •

مضينا عبر تلال صخرية سوداء تحدها صحراء رملية على مسافة ميل واحد شمال غرب الطريق • وفى التاسعة مررنا بتل صغير غريب الشكل يشبه البرج ويسمونه أميمة سعد Amaymet Saad واتجهنا صوبه حين هبت علينا ريح شرقية عاتية • والتقينا بعربى قادم من سوكنه وأخبرنا أنه رأى القنصل فى بنى وليد •

ومررنا بقبر تزينه قرعة مقلوبة ، ويرقد بالقبر رجل سكير من أهالى سوكنة ، يقال انه كان يحمل خطابات السلطان عبر الصحراء • وكان يستطيع السير على قدميه ثلاثة أيام متواصلة بمعدل أربعة عشر ميلا فى اليوم الواحد • ويحكى أن الرجل كان ينقل خطابا من (سوكنة) الى (زيغن) وكان سكران وقتها، وأصر على أن يحمل قرعته مملوءة «باللاقبى» بدلا من أن يحمل ـ كالمعتاد ـ قربة ماء وذكر انه شرب كفايته من «قطيفة» .Gutfa وبها بئر عند اقدام الجبل • ومضى وهو على هذه الحال •• ولم يصل الخطاب الى زيغن فقد وجد الرجل ميتا وقرعته فارغة الى جانبه ، على مسيرة ساعة من البئر •• ودفن بنفس المكان ووضعت القرعة على قبره عبرة لمن يعتبر •

وفى الثانية عشرة مساء ، بلغنا منطقة رملية ، مضينا نخب عليها حتى الواحدة والنصف حتى بلغنا منطقة تلال رملية عالية ، ووجدنا صعوبة هائلة فى صعودها وتعثرت الجمال مرارا • وبعد أن انتهينا من هذه التلال صعدنا واديا عن طريق ممر يسمى كنير .Kenaire وفى الثالثة وأربعين دقيقة ، عبرنا بضع تلال رملية تسمى رمل شرايا Shraiy ، أو الرمال الصغيرة • وفى الرابعة والربع بلغنا منطقة صخرية سوداء مستوية ، وفى الخامسة الا ربعا مررنا بصف طويل من الصخور يواجه المشرق ويسمى «مصلى السلطان» ويحكى أن السلطان السابق تعود أن يصلى بالمكان أثناء سفره • وفى السادسة والنصف بلغنا منطقة تسمى غرنفاتة .Gheranfata ويستريح فيها المسافرون •

الاحد ٢٠ فبراير درجة الحرارة ٣٠° تحت الصفر •

استأنفنا السير فى السابعة والنصف صباحا ، وعبرنا الوادى والافق أمامنا مستو كأفق المحيط • ويعج الوادى بجثث الحيوانات التى نفقت فى الطريق ، والمكان رغم هذا لا تزوره الطيور الجارحة الا نادرا ، ولهذا فمن النادر أن نرى جثة تجردت من لحمها وفى الواحدة والنصف مررنا «بالرمل الكبير» وهو عبارة عن عن سلسلة من التلال الرملية تمتد لمسافة بعيدة ناحية الشرق ، وعلى يمين الطريق • وفى السادسة والنصف توقفنا بعد أن قطعنا خمسة وثلاثين ميلا شمال ٣٥° شرقا • وحل التعب بالعبيد تماما • ووضعت طفلين على حصانى وركبت أحد الجمال • وبلغنا تلال «القاف» .Gaaf وهى تحف بالطريق الممتد أمامنا يمينا ويسارا • وخيم المساء وهبت معه عاصفة رملية ملأت أنوفنا بالرمال•

الاثنين ٢١ فبراير درجة الحرارة ٣° .

غادرنا المكان فى السابعة والربع . وفى التاسعة عبرنا تلال القاف الشرقيـة وعند العاشرة عبرنا تلال القاف الغربيـة . وفى الحـادية عشرة والثلث بـدأت ملامـح جبـال السـوداء فى الظهور . ونزلت عن دابتى وتركتهـا لاثنتين من الجوارى ، بعد أن عجزتا عن المسير . ومررنا بواد من الاحجار البيضاء يسـمى «المرتبة البيضاء» .Mayttaba Baida ثم بلغنا منطقة صخور سوداء تسمى المرتبـة السوداء وتغطيها صخور كبيرة من البازلت ، وفى الثانية والربع هبطنا واديـا فسيحا تنتصب منه بضع أشجار الطلح .Talhh ويمتد الوادى شـمالا وجنـوبا ويسمونه طمشين .Aamsheen وفى الرابعة صعدنا بصعوبة ظهر جبـل آخر . وفى الخامسة هبطنا منحدرا شديد الوعورة الى واد صغير يسمى «فنقر» .Finger حيث توقفنا للراحة . وأمضينا الليلة بالمكان بعد أن قطعنا ثلاثين ميلا شمال ٣٥° شرقا ، سقط خلالها جملى المهارى أكثر من مرة وأصابه العرج ، بفعل الصخور الحادة المدببة . وخففت عنه الاحمال ولم أسمح لاحد أن يركبه . وعلى بعـد عشرة أميال الى الشمال الغربى لاح جبل عال أسود يسمونه «كحل» .

الثلاثاء ٢٢ فبراير درجة الحرارة ٥° الصباح مشرق .

رحلنا عن المكان فى السابعة والثلث ، وعند الظهر عبرنا واديا يسـمى زيـرا تنبت فيه بعض الاعشاب .. وقضينا ما بين الساعة الثانية والثالثة الا عشر دقائق فى عبور قمة جبل يسمونها «ظهرة المؤمن» . وفى الخامسة توقفنا فى واد ، بعد أن قطعنا أربعة عشر ميلا شمال ٣٥° شرقا . وكم أمضينا من أمسيات مبهجـة ومسلية ، وكان بطلها دون شك صبيا فى الخامسة من عمره ، من التبو ، ويدعى موسى ، وكان سيده يسافر فى قافلة أخرى تسير بالقرب منا . وتعلم الصـبى سريعا بضع كلمات عربية ، وكانت له لكنه حلوة . وكثيرا ما طلب منه بعض المسافرين أن يرقص أو أن ينازل صبيا آخر فى ضعف عمره ، فكان يمسـك كل منهما زميله فيجبن الصبى الاخر الكبير عن أن ينـازل موسى ، ولا يلبث الصغير أن ينهال عليه بالشتائم ويصفه بالجبن بل ويسب أباه وأمه ، ويستعرض كل الشتائم التى تعلمها . وحين ينهض الطفل الاخر للانتقام ، يهجم موسى عليه ويضربه بالعصا على ساقيه ، ليفوز موسى دون مجهـود كبير . والمضحك أن قافلته لم تكن تحمل هم جمع الحطب ، بل كانت تنتظر حتى تجمع القـوافل

الاخرى ما يلزمها من وقود وترسل موسى ليسرقها ، وكان موسى يقوم بهذه المهمة وبراعة ، نظرا لصغر حجمه وخفته ، والغريب انه على الرغم من أن موسى كان يسرق كل فرد فى القافلة لم يسرقنى أنا مرة واحدة ، بل انه كان يمنحنى بعض الحطب اذا كنت فى حاجة الى وقود • وكثيرا ما عرض على صاحبه أن يهبه لى ولكننى للاسف لم أقبل وطوال المسير كنا نركب دابتى سويا وأريحه على ركبتى ، ليحكى لى كيف أسروه ، وقصصا أخرى طويلة ومشوقة • واذا جمح جملى أو جمل سيده ، فان موسى يتسلح بعصا صغيرة ويهرول خلف الدابة ، ولا يعود الا وهو يمتطيها •

الاربعاء ٢٣ فبراير درجة الحرارة ٤° •

رحلت الجمال فى السابعة ، ومضيت أنا وبعض العبيد عبر جبل وعر يسمى نوفداى .Nufdai نقصد بئرا عند اقدامه تسمى قطفة .Gutfa وأمضينا ساعة بجانب البئر وشربنا وشربت الجياد من مائها الرائع • وتركنا البئر وقطعنا ستة أميال الى الشمال الشرقى حين بدأت الجبال تتطاول عن يسارنا •

ولقد كان (بابا حسين التركى) العجوز صاحب احدى القوافل ، مادة خصبة للسخرية اذ كان أعرج ويتحدث عربية ركيكة ، ويحتاج دائما الى أن يستند على اثنتين من جواريه • ولقد كان ذلك ـ أيضا ـ مجالا رحبا دائما لنكات الرجال • وكان قاسيا على عبيده وسائس الجمال ، ولم يكن يدعهم يشربون سوى مرة واحدة فى اليوم ، على الرغم من انه كان يحمل كمية كبيرة من الماء • وكان يمسك بين شفتيه نرجيلة صغيرة ، يدخن منها طوال الوقت ، وهو مستريح على دابته • وكان يفتعل الدهشة اذا اشتكى واحد من عبيده من التعب • والمعتاد أن يحضر الرجال معهم ذرة مطحونة ليتغذى عليها العبيد ، أما بابا حسين فقد أصر على أن يحمل ذرة صحيحة • وكل مساء تضطر الجوارى بعد مسيرة مجهدة الى طحن الذرة فى هون خشبى أحضره معه • ويحكى أن احدى قوافل طوارق الحقار .Haggar داهمته منذ ست سنوات وسلبته كل ما يملك ، بينما كان يسير على حدود مملكة كاشنا قادما من تونس • ووصل ساكاتو .Sakkatoo وهى مقر بللو Bello سلطان فلاتة .Fellatta (وهو ابن عثمان دانفودى) (Hatman Danfodi) وقدم له نفسه على انه شريف ، وحكى له قصصا مبالغا

فيها عما فقده، وصدق «بيللو» أن بابا حسين من الشرفاء ، وأعد له هدية سلطانية قوامها مائة جارية ، وأعطاه بعض مال . وتاجر العجوز فى الجوارى وأصاب ربحا كثيرا .

وحين توقفنا بـ «زيغن» .Zeghen رافقنا عربى عجوز كان يقضى طول وقته فى الصلاة ، وينام بمعزل عن القافلة . وحسبت انه ربما كان آبا لاحد أصحاب الجمال ، ولهذا فقد كنت اعطيه طعاما كثيرا حتى عرفت انه ليس قريبا لاحد من رجال القافلة ، وانه ليس له أى هدف من مصاحبتنا سوى أن يعيش على ما تعطيه له القافلة من طعام . وكانت له شهية غريبة المطعام ، ويبدو أنه اكتشف انه لابد أن يعمل كثيرا حتى يستطيع أن يشبع نفسه ، ولهذا فقد قرر منذ سنوات أن يرافق القوافل ويقطع معها الصحراء ، حتى بات معروفا للجميع ، ولا يستطيع واحد من العرب أن يرفضه خوفا من لسانه . وحين توقفت القافلة بالقرب من أحد الابار ، ذبحت جملا وأعطيت له طعام يومين ، لكنه التهمه على الفور وراح يتسول الطعام من الاخرين فشارك رجال الشريف صديق طعامهم بل وراح يتسول بعض الطعام من العبيد . وكان نهما لا يشبع ، يبلع الطعام بلعا ، فلم تكن له أسنان يمضغ بها .

الخميس ٢٤ فبراير درجة الحرارة ٤° .

قابلنا شيخ سوكنة ، وكان فى طريقه الى تهنئة السلطان وأعطانى خمسين دولارا وخطابا من القنصل وآخر من الدكتور ديكسون .Dickson وأخبرنا بموت أكبر أبناء الباشا سيدى مراد ، متأثرا بمرض الطاعون . ولبسنا أفضل ما لدينا ، واصطحبنى الشيخ والازهرى ، وسبقنا القافلة الى المدينة لنعد ترتيبات المبيت . وأمضينا ساعتين عبر أحد الوديان ، وقبل أن نبلغ المدينة خرج الينا مئات من الاهالى يرحبون بالازهرى . وعلى الفور أعد لنا « منزل مريح» ووصلت القافلة بعدنا بقليل . وعلى الرغم من الحفاوة التى استقبلنا بها بعض الاهالى ، فقد كان هناك آخرون طاب لهم التحرش بنا . وبلغ الاطفال ـ على وجه الخصوص ـ درجة من الصفاقة لم الحظها حتى فى أولاد اسوأ شوارع لندن . وحينما عرفوا أننا أغراب عن مدينتهم كانوا يندفعون بالعشرات الى حجراتنا يحملقون فينا ، ويسلبوننا بعض المتاع ان واتتهم فرصة . وحينما بلغت مضايقاتهم حدا لا يحتمل ، تكفل السوط بردهم على أعقابهم ، وثارت ثائرتهم

وتجمعوا أمام الباب يكيلون لنا الشتائم ، ويصيحون ساخرين .. اعطنى السوط .. اعطنى السوط يابن الـ ..

ولابد أن أسجل هنا أن بعضا من أهل سوكنة ، كانوا غاية فى الفضول والازعاج ، وكانوا يتزاحمون على منزلنا بأعداد كبيرة ، ولا تفارقنا جماعة الا لتعطى مكانا لاخرى ليست أقل فضولا ولا ازعاجا . واحد سألنى بعض البارود ، وآخر سكينا ، وثالث مقصا ، وكل ما يخطر ببالهم ، وفى البداية أحسست بالخجل حيال الحاحهم ، وكنت أعاملهم باللين ، ولكن ذلك لم يزدهم الا عنادا واصرارا ، واضطررت فى النهاية الى أن الوح لهم بخطاب المكنى ، وتحقق لهم اننى أستطيع أن أردهم بالقوة .. هنا فقط نظر كل منهم الى رفيقه، وانسحبوا واحدا اثر آخر .

الاحد ٢٧ فبراير .

هاجمتنى الحمى مرة أخرى .

اضطررت اليوم لان أنحر جملى المهارى بعد أن أصيب فى احدى قوائمه وقل نفعه وكم أحسست بالالم وأنا أنحره ، فقد كان أجمل جمل رأيته ، فطوله يبلغ ثمانية أقدام ، وعرض على أحدهم دولارين ثمنا له ولكننى رفضت أن أبيعه ، وفضلت أن أذبحه لنأكل من لحمه ، ونطعم القافلة كلها . واستبدلنا جمالنا المتعبة التى رافقتنا من مرزق ، استبدلناها بأخرى أكثر حيوية ونشاطا . وتنفست الصعداء فقد استطعت فى النهاية ، أن أتخلص من أصحاب الجمال القدامى ، وكانوا من سوكنة .

والتقينا بأحد رجال الباشا جاء على رأس قافلة صغيرة قوامها ثمانية جياد ، جميعها من ممتلكات ابن الباشا المتوفى ، وجاء بها الرجل ليتخلص منها فى فزان . ومن يشتريها لابد أن يبيعها فى الدواخل حتى لا يراها الناس فى طرابلس مرة أخرى . وأخبرنا الوافدين من طرابلس بأن ثمة حدادا عاما فرض على طرابلس ، وخرج الاهالى كلهم يبكون ويلطمون الخدود ، على الرغم من أنهم كانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن تنقرض أسرة القرةمانلى عن بكرة أبيها .

يعمد كل أصحاب منازل سوكنة تقريبا ، الى رسم خط على جدران الغرف

الرئيسية على ارتفاع متر من الارض تقريبا ، ويرسمون الخط بمعجون البارود • وهم يفعلون ذلك حتى اذا أنجبت سيدة الدار غلاما ، فان هذا الخط «البارودى» يمنع أبليس من دخول هذه الحجرات ، ولا يتسنى له ايذاء الصغير ، أو اصابته بالحول ، وهذا اسوأ فى نظرهم !

وانقضت بضعة أيام قبل أن يغادرنا — مع الاسف — رفيق سفرنا الصديق (صديق) ، فى طريقه الى «ودان» مسقط رأسه • وقبل أن يمضى ألح على أن يصطحبنى معه ، ووعدنى بأن يعد لى أفضل طعام وألا أشرب سوى (اللاقبى) ، واللبن •

قضت الامهات ، بل وكل اهالى البلدة ، وقتا عصيبا ، بعد أن سمعوا أن واحدا من قبيلة ورفله — أو عرب بنى وليد — جاء فى البحث عن طفل يقتله ويأكله • وكان هذا التعس قد فقد أنفه بعد مرض خبيث ألم به • ووصف له أحدهم أو لعله تصور انه اذا قتل طفلا وأكله ربما شفى من مرضه • ومنذ بضعة أيام هام المريض على وجهه بحثا عن دوائه • وسمعنا أن فتاة صغيرة لم تتجاوز عامها الثالث كانت منذ وقت قريب قد أنقذت من بين يديه بالقوة ، وأنه ألان يتجول فى المناطق المجاورة بحثا عن فريسة جديدة • واتفق رجال سوكنة جميعا على قتله بمجرد ظهوره ، كما وعد الازهرى بالقبض عليه اذا التقى به •

ولغة سوكنة — كما ذكرت من قبل — هى ذات اللغة التى يتكلمها الطوارق • وهى لا تستخدم الا فى سوكنة ولا يفهمها الاهالى آلذين يعيشون فى القرى المجاورة كهون وودان وسأورد هنا بعضا من مفرداتها ، كما سمعتها من أحد المواطنين •

Idgen	ادجن	واحد	Agherdi	آغردى	فأر
Sunn	صن	اثنين	Amketarr	أمكتار	بغل
Shard	شارد	ثلاثة	Laghrum	لاغرم	جمل
Erba	أربعة	أربعه	Taskha	تاسكها	منزل
Khamsa	خمسة	خمسة	Tamoort	تامورت	مدينة
Setta	ستة	ستة	Jadeer	جادير (١)	جدار
Sebbah	سبعه	سبعه	Tomda	تامدا	حديقه
وكل الارقام التى تلى عربية أيضا			Tesdai	تسداى	نخيل
Foos	فوس	يد	Lasheb	لاشعب (١)	اعشاب
Ighrof	اغريف	رأس	Akhooli	أخولى	تيل

(١) واضح أن هذه المفردات من أصل عربى ، ولعلها عربية تماما (المعرب) •

Tefookf	تيفوكت	الشمس	Melf	ملف	ملابس
Edee	ادى	كلب	Ghkkoot	جوكوت	قميص
Edeat	اديت	كلبه	Wijjar	وجرا	وعاء
Yatoos	ياطوس	قطه	Yehamma	يحما (١)	ساخن
Aksoon	اكسون	لحمه	Tasunti	تاسونتى	بارد
Tagilla	تاقيلا	لحم	Achel	آشل	يمشى
Tajeeri	تاجيرى	قمر	Uzzel	أوزل	يجرى
Itch	اتش	يأكل	Utus	اتوس	خراف
Soo	سو	يشرب	Ell	ال	يبكى
Temuzzeet	تموزيت	بنت	Floozukh	فلو تزخ	جوعان
Aghemar	أغيمار	حصان	Foodukh	فودخ	عطشان
Moozain	موزين	ولد	Eran	ايران	نجوم
Lebgurr	ليبقر	بقره	Mar	مار	رجل
Teele	تيلى	خروف	Tamtoot	تامطوط	امرأة
Teaghsee	تى اعزى	ماعز	Isghraran	ازغراران	نار
Eghraid	اغراد	طفل	Shejjer	شجر	خشب
Teghradot	تغرادوت	طلفه	Teghrooghan	تفروغان	احجار
Tagaghreet	تاج أغريت	عصا	Omlal	أوملال	رمال
Aman	أمان	ماء	Aish Haalek	ايش حالك (١)	كيف حالك
Izgarun	ازجارن	بلح	Taib	طيب	بئر
Eghruss	اغروس	عظام	Mattawa	ماتاوا	ما هذا
Floos	فلوس (١)	نقود	Kanno Dener	كانو دنيك	ذلك
Enick	انك	فلكك	Ennoo	انو	ملكى
Shik	شك	أنا	Neish	نيش	انت
Netta	نتا	هو	Oodan	آودان	نحن
Ttene	ايتن	هم	Da	دا	هنا
Ghradi	غردى	هناك	Maneela	مانيلا	آين
Gootunn	جونن	كثير	Reehassan	ريحاسان	قليل
Awoos	أووس	سيف	Iigder	لى قدر (١)	القدر
Majeer	ماجير	سجاده	Settuf	سى تف	أسود
Agrag	أزرق (١)	أزرق	Wurrugh	وورج	أخضر
Asfar	أصفر (١)	اصفر	Zuggo	زوجو	أحمر
Zuggo	زوكو	عجوز	Muzzee	موزى	صغير
Yeghulla	يغلا (١)	غالى	Erkheese	ارخيص (١)	رخيص
Yekkoor	يغور	صلب	Murkhee	مركه	ناعم
Smeen	سمين (١)	سمين	Daif	ضعيف (١)	نحيف
Eemi	ايمى	فم	Tamazookh	تاما زوج	آذان
Takaroomt	تاكارومت	رقبه	Sudder	صدر (١)	صدر
Zain	زين (١)	حسن	Afaan	عفن (١)	سيىء
Azill	آزيل	يوم	Yettee	ييتى	ماء

(١) انظر الحاشية (المعرب) .

اللاقبى	آمان تسديد	Aman Tesdeed
ذقن (لحيه)	تامارت	Tamart
يحضر	آويط	Aweet
يأخذ	آخ	Akh
يأتى	آ ايد	Aeed
قطن	تاب درخت	Tabdookht
العسل	العسل (١)	Ei Assll
باب	تاورت	Tawert
حذاء	اركاس	Erkaas
ذبابه	ايزان	Eezaan
طائر	از ديه	Ezdeah
نعام	أصيد	Aseed
ريش	ترقالم	Terjaalen
بيض	تردالين	Terdaaleen
لغة	أوال	Awali
زبد	ليمان	Lemman
زيت	أودى	Odi
فلفل	ا فلفل (١)	A fillfill
قلب	أوول	Ool
جلد	الوم	Illum
قدم	تشكونت	Tishkunt
أنف	لو خشم (١)	Luckshum
عين	تى آت	Teeat
سكين	أو زال	Oozall
دم	اديمان (١)	Eddaman
حقيبه	تاكاريت	Takhareet
نار	تمس	Timsi
لبن	أخى ، أو أشفاى	Akhi, or Ashfai
غدا	تى فوت	Teefoot
أمس	دولين	Dullain
شهر	يور	Yoor
عام	عام (١)	Aam
شعر	زا أو	Zaoo
صوف	دوفت	Dooft
خبز	تيقارى	Tegrari
دقيق	أرونا	Aruna
يذهب	مات	Maat
ينصت	سل	Sill

(١) انظر الحاشية (المعرب) .

Nitta	نيتا	أخ
Ootima	أو تيما	أخت
Williseen	ولى شين	غبى

وواضح أن بعضا من المفردات التى أشرت اليها ، من أصل عربى أو مشتقة من العربية • ويسمى الاهالى هذه اللغة ب (رطانة)

الاثنين ٢٨ فبراير درجة الحرارة ٩° •

وافق اليوم بداية فصل الربيع — عند الاهالى — وهو عيد يحتفلون به • وقد جرت العادة أن ينصب الاهالى خياما صغيرة على أسطح المنازل ويزينونها بالبسط وسعف النخيل والشيلان ، ويرفعون عليها رايات ملونة • ويبتهج الاطفال كثيرا بمقدم الربيع ويأكلون ويشربون ويغنون الاهازيج •• مرحب •• ياربيع بالفرحة هل علينا • وتغنى النسوة أغانى حلوة ويبدو اليوم وكأنه عيد حقا • وترى الخيام وقد غطت الاسطح جميعها • وهم يسمون هذه الخيام الصغيرة «جوبا» Goobba. •

ولقد شاهدت اليوم أربعة كيزان من الذرة ، ناضجة تماما وقد كان ذلك استباقا لموعده • والحقول هنا مزهرة ورائعة اذا قورنت بحقول فزان • ويحيط بكل حقل حوائط من الطين • ولقد أحضر الاهالى مؤخرا بعض أشجار الليمون من طرابلس ، كتجربة ، وواضح أن استنباتها هنا يبشر بالخير • والبلح هنا من نوع ممتاز وتشتهر سوكة بعدة أنواع جيدة • قضيت شطرا طويلا من النهار — مع الاسف — فى سريرى بعد أن داهمتنى الحمى مرة أخرى •

الاهالى هنا لا يعرفون اللبن الطازج ، ولا يستطيع واحد منهم أن يقتنع انه اذا شرب اللبن طازجا فسيكون أفضل مما لو شربه متخثرا • ولما لم أكن — ارضي — قادرا على أن آكل مما يأكلون ، فقد بذلت محاولات يائسة للحصول على كوب لبن طازج ، وللاسف فقد كان كل ما يجيئون به متخثرا • وحينما أبديت اعتراض قال أحدهم لقد حلبناه من الشاه منذ دقائق • وخلطناه بلبن متخثر ليصبح أطيب مذاقا • وكانوا هكذا دائما •• يحلبون الشاه ، ويخلطون لبنها بلبن رائب •

ويوجد فى الحقول نوعان من الفئران ، وبعد طول ما سمعته من حكايا وأوصاف غريبة • أرسلت رجلا ليأتى لى ببعضها واعدا اياه بدولار اذا عاد بأربعة فئران•

ويوجد على أية حال نوعان كما ذكرت منذ قليل احدهما أسود ، ويحتفر حفرة في الارض ، والاخر أصفر ، وله بطن بيضاء وعينان حمراوان ويعيش بين سعف النخيـل .

الثلاثاء ٢٩ فبراير عام ١٨٢٠ .

قدم رجل من طرف صديقي الشريف صديق يحمل خطابا منه وآخر من أخيه الشريف عبد اللطيف ، يعبران فيهما عن تمنياتهما الطيبة ويدعوان لى بالتوفيق في مهمتي لاعود الى بلدى سالما . كما أحضر الرجـل معه كميـة من البلح الممتاز وأربع بيضات من بيض النعام .

ولم يحدث قط أن نفذ صبرى كما حدث مع أهل هذه المنطقة . وطـوال الليل والنهار تجدهم يتجمعون أمام الدار ، لا المساكين فحسب،بل وعليةالقوم أيضا . وحسدت بلفورد على صممه ، وتمنيت أن يصيبني ما أصابه حتى أنعم ببعض راحة . وحين يدخل واحد منهم عنـدى ، فهـو لا يريد أن يتحرك ، ويظل جالسا ساعات وساعات ، ولا ينفك يتسول وينافق . وكنت مريضا وفي أحـوج ما أكون الى الراحـة . وبلفورد لا يحسـن العربية ولا يسـتطيع أن يجالسهم ، وكنت مضطرا لان أجيب على كل سؤال ، وحل بي التعب ونالت منى الحمى أكثر من اى وقت مضى . ورغم مرضى فقد ذهبت الليلة الماضـية مع أحدهم لرؤية زوجته ، وكانت تشكو من لثتها المتقرحة . كانت أنيقة حلوة لها عينان سوداوان واسعتان وبشرة بيضاء كبشرة الانجليزيات . ووصفت لها أن تنظف لثتها وتضع عليها من دواء أعطيته لها . وتماثلت السيدة للشـفاء وأهدتني لحما ، وعسلا من السودان ، وفضلا عن ذلك كله . كمية من اللبن الطازج . بلغتنا انباء تفيد وصول صديقنا بوقصيصة Bouksysa. الى « هون » على رأس قافلة كبـيرة .

الاربعاء ١ مارس .

العملة المستخدمة في سوكنة هي العملة الطرابلسية ، وتسبب لهم خسـارة كبيرة ، فعليهم أن يدفعوا الخراج للمكنى بالدولارات الاسبانية التي يشـترونها بسعر فاحش لان عملة الباشا لا تساوى كثيرا .

ليس من عادة الاهالى هنا أن يدفنوا البلح ، ولهذا فانك تجده أطيب مذاقـا

ونظيفا من الرمل • وهم يحفظونه فى أبنية صغيرة فى المنتصف وبها درج يؤدى الى حجرة كبيرة ، أما الحجرات الاخرى فهى فى مستوى الارض • ومن بين الحجرات توجد اثنتان أو ثلاث خالية من النوافذ ، وتؤدى الى الحجرة الكبيرة سالفة الذكر ، وتتلقى هذه الحجرات الضوء من الابواب فقط ، والابواب مدهونة بطلاء أسود يصنعونه من رماد الخشب مضافا اليه بعض صمغ •

أحضر لى أحدهم فارا صغيرا أسمر غاية فى الغرابة فرأسه أشبه برأس الغرير (Badger) وله نفس العلامات المميزة على صدغيه ، وذيله طويل وكث • واشتركت أنا وبلفورد فى صنع قفص صغير ووضعنا به الفأر • وظل الفأر يتسلق قضبان القفص ويتشقلب •• كان شرسا ولكنى آمل أن أستطيع نقله الى انجلترا هو وثلاثة حيوانات أخرى يسميها العرب دب (Dthub) وهو يشبه السحلية من عدة نواح الا أنه أضعف بنيانا منها وأبطأ مشية ، له ذيل عريض يغطيه الشوك ، ويستطيع الاعتماد على يديه ، أما رأسه وأنفه فيشبهان رأس وأنف سلحفاة البحر الى حد ما ، ويستطيع هذا «الدب» أن يغير لون جلده كما تفعل الحرباء •

دلكت جسدى اليوم بوصفة عربية ممتازة ، وتفيد كثيرا فى حالات الحمى ، ولقد أراحتنى كثيرا على الرغم من أن جسدى اتسخ كثيرا • وتتكون هذه الوصفة من حبوب صغيرة نفاذة الرائحة — نسيت اسمها — مضافا اليها اللافندر ويحضرونه من طرابلس ، وبرسيم •

وتطحن هذه العناصر معا ويخلط المسحوق بقليل من الزيت والخل ، ويدهن بها الجسد كله وحتى الرأس • وكانت طبيبتى امرأة بيضاء من طرابلس وكانت قد فرت من تلك المدينة خوفا على حياتها •

قبل حوالى ثمانية عشر شهرا فاجأ الباشا زوجاته السود ولفيفا من صديقاتهن ذات مساء وهن سكارى يتسامرن وحينما رأينه هربن جميعا ولم تبق سوى زوجته والمرأة القادمة من طرابلس وعبدة سوداء • وكان جزاء العبدة أن ذبحت أمام سيدتها على الفور وأقسم الباشا أن يقتل زوجاته بينما جلدت المرأة البيضاء واسمها سليمة وهى طبيبتى التى تحدثت عنها سابقا ، جلدت خمسمائة جلدة على قدميها قبل أن يؤذن لها بالرحيل • ورأى الباشا فيما بعد أن يبعث

الرجال فى أثرها لتشنق • واستطاعت لحسن الحظ أن تهرب بعيدا وأن تلتحق فى خدمة «الليلا» فاطمـة التى كانت قد نفيت ووهبت الى الشيخ بارود حيث وصلت المرأتان سالمتين الى فزان • وكانت المرأة ابان اقامتها فى مرزق على شفا حفرة من الموت ، ورغم هذا فقد قررت مغادرة المكان الى طرابلس رغم ما فى ذلك من مخاطرة • ولدى رحيلى طلبت حمايتى ووعدتها بأن أتوسـط لدى الباشا ليصفح عنها •ولما كانت غاية فى الاجهاد والتعب سمحت لهاَ أن تركب جمـالى •

وعنيت باطعامهـا طـوال الرحلة • ولم تكن المرأة مسلية وهى بوجههـا الملىء ببثور جدرى قديم كانت تبدو كرجل سمين صـغير • ولقـد اسـتحقت المرأة بحق عطفى وحمايتى • وقد عملت المرأة فترة فى خدمة «الليلا» فاطمـة ورغم هذا فقد تركتها باسمالها البالية خالية الوفاض •

الخميس ٢ مارس

غادرنا سوكنة ، وبلغنا منطقة نخيل تحيط بها تلال رملية ، ويسمون المكان «حمام» وهو على مسيرة أربعة أميال شمالى سـوكنة • والتقينـا برفاق الطريق القدامى ، وكانوا يعدون العدة للرحيل • وقبل أن نغادر سوكنة أعطانى صديقنا عبد الرحمن وعاء من اللبن وكمية من البلح •

وكنت قد استأجرت جمالنا بواقع دولارين لحمولة القنطار الواحد ، ولم أكن مسئولا عن اطعام الجمالين ويستطيع بعض الجمال حمل ستة قناطير وكانت جميعا فى حالة حسنة ولها مظهر طيب • واكتشفت أن أحد جمالى المهارى قد جرح فى قدميه ، وكنت قد تركته يرعى مع بقية الجمال ، واصبح عاجزا من جديد • ولم يسمح الجمالون لسليمة ـ المرأة البيضاء التى هربت من طرابلس ـ بـأن تركب رغم اننى عرضت ثلاثة دولارات ، فقد كانت الدواب تحمـل أكثر من طاقتها • واضطرت المرأة لهذا أن تعود الى سوكنة وأعطيتها ثلاثة دولارات هى كل ما استطعت أن أهبها ، ووعدتها أن احدث القنصل فى أمرها اذا ما فكرت فى الحضور الى طرابلس لتطلب الحماية •

وتركتنا المرأة باكية الى منزل صديقة لها تعرفت عليها فى طرابلس ، كانت قد استضافتها أثناء اقامتنا بسوكنة •

الفصل التاسع

الجمعة ٣ مارس

أحضر لى الحاج محمود فتاة مريضـة ، كانت تشـكو من الحمى والدوار ، وتعانى ألما شديدا فى صدرها • وأعطيت لها بعض الادوية المهدئة • واستأنفنا المسير فى السابعة صباحا بعد أن ملأنا قرب المـاء بما يكفينـا ثلاثة آيام ، فالبئر القريبة ماؤها غير صالح والطريق يمتد عبر صحراء قاحلة • وفى الثانية عشر والربع تقاصرت الجبال عن يسارنا ، وسرنا عبر درب تحيط به الجبال عن كثب حتى كانت الساعة الثانية بعد الظهر حين توقفنا انتظارا للمريضة التى عدتهـا فى الصباح ، فقد تركها صاحبها القاسى تمشى على قدميها رغم مرضها ، بينما كان يمتطى هو جملا رغم صحته • وبلغتنا المسكينة بعد ساعة ، مجهدة تماما • ولا شك انها كانت ستقضى نحبها لولا تدخلى ، واعطيتها قطنة مبللة بعصـير الليمون ، لتشربها مع قليل من الماء • وانتعشـت على أثر ذلك قليـلا • وهبت عاصفة رملية غريبة ، ولم نملك حيالها الا أن نستلقى على الارض ، وبين الحين والاخر نتحرك قليلا كى نزيح أكوام الرمال التى كانت تنهـال علينـا • وفى المساء خفت حدة العاصفة قليلا • وتوقفنا بالمكان بعد أن قطعنا قرابة سبعة عشر ميلا الى الشمال الشرقى •

السبت ٤ مارس صبح صـحو •

عمدنا الى بئر على بعد ميلين ، يقال له تميد .Temedd ورفض حصانى أن يشرب من مائه الاسود ، ومع هذا فقد خصصت كمية كبيرة ليشرب منها العبيد المساكين • وفى التاسعة والنصف تركنا البئر ، وسرنا بين جبلين ينتصبان الى الشمال الشرقى •

ويمتد الوادى الذى تركناه منذ قليل ، عبر ثلاثة أميال شمال بئر «تميـــد» ويسمى تار .Tarr وقادنا الطريق الى واد عريض ، وفى الخامسة توقفنا قليلا

للراحة بعد أن قطعنا أربعة عشر ميلا • وطوال اليوم لم تهدأ العاصفة الرملية التى كانت تهب علينا طوال ذلك اليوم من جهة الغرب •

تحسنت صحة الفتاة قليلا بعد أن ركبت جملى ، لكنها ظلت على ضعفها وشحوبها • وأعطيتها ماء عذبا وكسكسى •

الاحد ٥ مارس •

رحلنا فى السابعة والنصف ، وكان الوادى الرملى مازال يمتد تحت أقدامنا تتخلله بضعة أعشاب • وهبت عاصفة رملية هوجاء من ناحية الشمال الغربى • وهذه العواصف تهب فجأة ، ودون سابق انذار • وخلال العاصفة لم تكن الجارية المريضة تستطيع أن تنصب قامتها على ظهر الجمل فربطناها اليه • وكانت دائمة السؤال عن الماء ، وتشكو من ألم شديد فى جنبها • ولم يشغل سيدها نفسه كثيرا بها ، وكان صوتها منخفضا من الالم ، ولولا أننى اخترت أن أسير بجانبها لاعطيها جرعة ماء بين الحين والاخر ، لقضيت نحبها عطشا دون أن تدرى •

الاثنين ٦ مارس

ورغم رعايتى للفتاة فقد قضت نحبها ولم تتعد الرابعة عشرة من عمرها • ودفنت بالقرب من الطريق • وفى السابعة والنصف عبرنا ممرا يسمى «خرمة توزيز» Hurmit Tuziz ويمتد الممر مسافة خمسة أميال • وفى العاشرة مررنا بتل يشبه الخيمة وهم يطلقون عليه نفس التسمية ومضينا عبر الدرب الى الشمال ٢٥° غربا ، وهبت عاصفة أخرى جنوبية • وفى الواحدة والربع بلغنا صحراء صخرية وعرة تحدها عن اليمين جبال من الرمال تسمى وادى بوتيلا .Boatila أو بوعطيلة • وفى الثانية والنصف بلغنا ممرا عريضا وطوال رحلة اليوم تخليت عن دابتى لطفلين ، وطفقت أقودها لهما ، وكانا غاية فى السعادة وعبرا لى عن امتنانهما العظيم ، وقدم الى أحدهما حفنة من البلح كهدية • وفى السادسة الا ربعا مررنا عبر «خرمة المحلة» .Mohalla أو ممر الجبس • وبلغنا واديا عريضا حيث توقفنا عند السادسة وقد حل التعب والارهاق بالجميع ولقد لاحظت أن الجوارى لا يصيبهن قدر ما يصيب الرجال من التعب فهن يسرن فى جماعات ويغنين طوال الطريق ، ولعل ذلك هو السبب فى

احتفاظهن بحيوتهن . وسعدنا كثيرا بصحبة أحد العبيد الاطفال وكانت القافلة كلها لا تتمالك نفسها من الضحك ، حين راح الصبى يقلد السمسار الذى باعه .. وبعضا من رجال مرزق ..

الثلاثاء ٧ مارس .

رحلنا فى السابعة والنصف ، ومضينا عبر صحراء صخرية وعرة وخلال تلال رملية صغيرة أخذت تزداد حجما ناحية الشرق ، وتشكل حزاما من الرمال ، طوله تسعة أميال . وعلى البعد تبدو الجبال ناحية الشرق وتملأ الافق . والطريق يمتد عبر تربة من الجبس تغطيها الرمال والقواقع البيضاء فى مناطق عديدة . وفى الثالثة عبرنا ممرا يسمى «بزين» ، وبلغنا واديا يقال له وادى «القين أو الكلين» . وفى السابعة توقفنا عند آبار وقلعة «بونجيم» بعد أن قطعنا خمسة وثلاثين ميلا . وساد قافلتنا القلق ، حينما عرفنا أن فريقا من رجال ورفلة ـ من عرب بنى وليد ـ يعسكر بالقرب منا . وهم يسطون على كل القوافل التى تمر بالطريق . وكانوا قد قاموا بتقطيع كل أشجار النخيل حيث يعيشون على اللاقبى ولحم الجمال الضالة . وتسلل الى موقعنا صبى من أهل ورفلة ، وتظاهر بأنه جاء يملأ قربته من البئر القريبة ، وحينما سألناه أجابنا اجابات غامضة . وعلى أية حال فقد تحقق من اننا جميعا مستعدون ومسلحون ،ولا شك أن سينقل الى أهله كل ما رآه ، وذلك ما طمأننا كثيرا .

الاربعاء ٨ مارس .

ملأنا قرب الماء ، ومضينا لنعسكر على بعد أربعة أميال ، شمال غرب (بونجيم) ، وتركنا الجياد والجمال ترعى ، فقد كانت المنطقة غنية بالاعشاب والكلأ . لاحظت أنه يوجد بالقرب من آبار (بونجيم) اعداد كبيرة من حشرة (القرادة) ، وهى حشرة تمص دم الحيوان والانسان وتسبب لدغتها ألما كبيرا .

الخميس ٩ مارس

غادرنا المكان فى الثامنة ، وكان الضباب كثيفا يتعذر معه تمييز الاشياء على على مسافة بضعة ياردات ليجعل الرؤية مستحيلة ، وكان طريقنا يمتد عبر صحراء غنية بالتلال . وعبرنا واديا أو اثنين تكثر فيهما شجرة الطلح Talhh. هاجمتنى الحمى مرة أخرى ، وتأخرت عن الركب واستلقيت خلف جوادى

طلبا للراحة . وفى الواحدة ظهرا تحسنت حالتى قليلا فامتطيت جوادى وتتبعت آثار الجمال ، لكنها ضاعت فى الارض الحصوية ومضيت على أمل العثور على القافلة ولا أمل ، فالمكان تحيط به التلال من كل ناحية ، ولم أكن أدرى أين الطريق .. وصعدت أعلى التلال لالقى نظرة أكثر شمولا ، وأمعنت النظر فى كل اتجاه دون أمل . وعدت الى المكان الذى فقدت فيه أثر القافلة ، وأطلقت طلقة فى الهواء ، ولا مجيب .. وأصغت السمع علنى أسمع صوتا يكسر حزام الصمت الذى يخيم على المكان . وبت فى موقف لا أحسد عليه ، وانخفضت معنويتى ، وطفقت أفكر فى المصير الذى ينتظرنى .

وفتشت فى حقيبتى ولم أجد أى طعام ، ولكنى وجدت ـ لحسن الحظ ـ مذكراتى ، وحينما تفحصتها عثرت على ورقة فى غاية الاهمية ، كنت قد دونت عليها علامات الطريق . وكانت أقرب بئر على مسيرة يومين ، سواء تقدمت أم تقهقرت ، ولكن حتى لو استطعت بلوغ الماء ، ففى تصورى أننى لن أكون قادرا على استخراج قطرة ماء من العين . ولم يكن حصانى أيضا يستطيع الصبر على الماء يومين كاملين .. وفى هذا الضياع لم اكن أدرى أين الطريق .. ولقد كانت فرصة الحياة الوحيدة المتاحة ـ هذا ان وجدت الماء بالطبع ـ هى أن اذبح حصانى المسكين وأعيش على لحمه .. وانتظر الى أن يعثر على مسافر فى الطريق .. الا أن ذلك كان ضعيف الاحتمال .. فطريقنا قليل من يعبرونه ولكن هل هناك حل آخر ؟ .

ومر الوقت متثاقلا ، والتفكير فى مصيرى المحتوم مسيطر على ، وفجأة واتتنى فكرة وهى الاسترشاد بحصانى الذى اطلقت له العنان .. وتركته يسير على هواه .. والامل يراودنى أن يكون لهذا الموقف العصيب نهاية .. وبينما كنت ماضيا فى طريقى ، واليأس قد اخذ منى كل مأخذ .. اكتشفت اننى أسير على آثار أقدام .. تتبعتها لاجدنى فى النهاية فى واد غنى بأشجار الطلح Talhh. وكان المكان يوحى بأن قافلتنا قد غادرته منذ قليل .. وتلمست هذا الخيط الواهى ، وتابعت الطريق لاجد نفسى أخيرا فى الطريق الصحيح .. ومهما كتبت فلن يستطيع قلمى أن يصف حقيقة ما كنت أشعر به .

وبينما كنت أسير متباطئا ، رأيت جارية زنجية تنام وسط الاعشاب ، وقد هدها المرض والاجهاد .. تركت هكذا تقضى نحبها .. وتحركت كل دوافع

الشــفقة فى أعماقى ، فلم يمض على ضــياعى سوى القليــل •• وناولتها يدى ورفعتها على حصانى ، وهرول الجواد حتى لحقت بالركب •• لاجد القافلــة كلها فى غاية القلق على ، وكانت قد تصــورت أننى ربما ســقطت من فــوق حصانى مجهدا أو اننى فقدت الطريق •• وكانوا قد بعثوا بجمل يحمل طعاما وشرابا وغطاء يقوده رجلان يبحثان عنى فى كل اتجاه •

وعندما أخــذت الجارية الى ســيدها لم يعر ألامر التفــاتا بل لعله لم يشــعر بضياعها •• ولم يشكرنى الرجل •

الجمعة ١٠ مارس :

رفض الحاج محمد صاحب الجارية التى وجدتها بالطريق ، رفض أن يعطيها جملــه لتركبه ، واضــطررت أن أتنــازل لها عن حصانى • ومررنا بعدة وديان تزخر بالكلأ وعند الظهر أمطرت السماء مطرا خفيفا ، وهبت ريح شمالية • وعند الخامسة توقف الركب ، بعد أن قطعنا عشرين ميلا شــــمال الشرق •• اشتد المرض على الجارية المسكينة ، ومع هذا فقد ضربها صاحبهــا ظنا منه أنها تتمارض •

السبت ١١ مارس •

استأنفنا المسير فى السابعة والنصف صباحا ، وعند الظهر بلغنا واديا يقال له «وادى زمزم» حيث بئر اعتقد أنه رومانى ، وعمقه ٨٤ قدما وماؤه مالح فاسد • و «وادى زمزم» واد عريض يمتد ناحية شمال الشرق ، وجنوب الغرب •

الاحــد ١٢ مارس •

بدأنا المسير فى السابعة والنصف ، ومعنا ماء يكفى ثلاثة أيام •• وفى الرابعة بلغنا واديا صخريا به بعض الشجــيرات القصــيرة •• وتوقفنــا فى الســادسة بعد أن قطعنا عشرين ميلا شمال غرب الى شمال •

الاثنين ١٣ مارس •

استأنفنا المسير فى السابعة والنصف ، ومضينا عبر واد صخرى حتى منتصف النهار • وبلغنا أحد الابار لنجده جافا ،وكنا قد أسرفنا فى استعمال الماء اعتمادا عليه • ولقد سبب ذلك ذعرا كبيرا بين أفراد القافلة كلها ، ولكن أهل المكان دلونا على بئر حفرت حديثا على بعد ميل واحد من موقعنا •

الثلاثاء ١٤ مارس •

رحلنا عن المكان فى السابعة والصف صباحا ، وتوقفنا فى الخامسة والنصف بعد الظهر ولم نقطع سوى خمسة عشر ميلا • وخلال مسيرتنا مررنا ببعض الاراضى المزروعة يملكها عرب ورفلة ، ويسمى الموقع بوادى سوفجين •

الاربعاء ١٥ مارس

حينما نهضنا فى الصباح اكتشفنا أن ثلاثة جمال هربت أثناء الليل ، اثنان منها يملكها الازهرى ، والاخر لى • وبعثنا ببعض العرب يقتفون اثرها وانتظرنا حتى الظهر دون جدوى وحملنا أمتعتنا ورحلنا عن المكان ، فقد كنا بحاجة الى ماء العبيد • وفى الثالثة تجمعت السحب وأمطرت السماء مطرا غزيرا على التلال القريبة ، مصحوبة ببرق ورعد • قاربت مؤن القافلة كلها على النفاذ ، ولم ينل معظم الرجال سوى حفنة من البلح طول النهار •

الخميس ١٦ مارس :

أحاطت بنا سحب ثقيلة سوداء وغادرنا المكان فى السابعة والربع ، ولكننا اضطررنا للتوقف عند الثامنة ، بعد أن قطعنا ميل ونصف فى اتجاه الشمال وهطلت ألامطار مدرارا فأنزلنا أحمالنا ونصبنا خيامنا على ربوة عالية بالقرب من الوادى ،وازدحمت خيمتى حيث أويت بها ست وعشرين من الفتيات المسكينات المرتعدات وأربعة أولاد • وتوقف المطر عند الظهر ، ومن الماء الذى تجمع أثر الامطار شربت أنا وبلفورد ماء نقيا لاول مرة منذ تركنا طرابلس ، وما أحلاه • لقد فاقت حلاوته أطيب نبيذ شربناه فى حياتنا •

الجمعة ١٧ مارس :

فى الليلة الماضية ماتت الزنجية المسكينة من شدة الارهاق والبرد والمطر • وهطلت الامطار طوال الليل • وفى السابعة وكان الجو صحوا استأنفنا الرحيل عبر أرض رملية مستوية تغطيها الحشائش والاعشاب • ولقد لاحظت أن رقعا كثيرة تحمل اثار الممرات • وعند الظهر لم نكن سرنا سوى عشرة أميال ، وفى الخامسة عاد المطر أكثر غزارة ، وأوينا الى خيامنا التى نصبناها على عجل •

السبت ١٨ مارس :

صبح صحو ، رياح شمالية شرقية •

استأنفنا المسير فى التاسعة ، وعبرنا واديا خصبا ، لنبلغ حقول زليطن المزروعة المستوية .

ويعتقد العرب أن عاصفة الامس وأمطاره . سببها عدم رضا الله ، ولعدم تصدقهم بالبوزفز وهم يعزون أيضا كثرة تأخرنا الى قلة البركة..ويقولون.. «ما فى بركة» .

ويجدر بى أن اذكر اننى رأيت اثرين رومانيين بالقرب من آخر مكان توقفنا به . ويبعد الواحد منهما عن الاخر حوالى ميل واحد . ولقد شاهدت فى أحد هذه الاطلال بقايا ثلاث حجرات كاملة ، وقواعد بضعة اعمدة ، أما الاثر الثانى فما زال احد حوائطه قائما ، وبه بضع كوات مربعة ، ويبلغ طول الاحجار التى بنيت بها هذه الاثار ، سبعة أقدام وعرضها ثلاثة ، وواضح أن البناء متقن .

وصعدنا قمة احد الجبال ، وطالعتنا صفحة البحر الزرقاء ، ولم نستطع أن نرى الشاطىء ، فقد حجبته عنا رمال زليطن . لقد كانت فرحتى برؤية البحر هائلة ، ودهش الرفاق حينما صحت بأعلى صوتى «حفظ الله الملك» .. و «احكمى يا بريطانيا» .

ومنازل زليطن مبعثرة بين اشجار النخيل والزيتون التى تغطى مساحة قدرها ثلاثة أو اربعة اميال . وهم يزرعون الذرة بكميات كبيرة هنا .

الاحد ١٩ مارس :

يحظى هذا المكان باحترام كبير ، فهو يضم رفات مرابط عظيم ، وهو مدفون فى مسجد رائع انيق ، تحليه المآذن والقباب ، وحوائط الجامع مدهونة بطلاء ابيض .

وشيخنا المبجل اسمه «سيدى عبد السلام» ، وتحظى ذريته باحترام وهيبة أيضا ، ويسمون بأولاد الشيخ .

المكان غنى بالذرة والبلح وارضه مستوية تماما . ونزلنا بقلعة بنيت على النمط العربى ، فحوائطها من الطين والحصى ، وتعج بالحشرات والهوام . ويعقد هنا سوقان كل اسبوع . واحد يوم الجمعة ، ومكانه امام القلعة ، ويعقد الثانى يوم الثلاثاء أمام ضريح ألشيخ عبد السلام . ويحكم الاقليم مملوك معين

من قبل باشا طرابلس ، ويحمل لقب «قائد» واذا قدر لى أن احكم على السكان من خلال عدد السكارى الذين رأيتهم فى السوق فبوسعى أن أقول انهم جميعا يدمنون شرب «اللاقبى» • واشتريت خروفا رائعا ودفعت فيه دولارا وربع دولار وهنا فى زليطن ــ تماما كما طرابلس ــ كل شىء فى يد اليهود ، فهم اصحاب الحرف والتجارة ، ومعاملاتهم تبدأ من المليم الواحد الى مئات الدولارات ، ويصنع اليهود نوعا من الخمور بتقطير البلح ، ويجدون له سوقا رائجة • وتحضر قوارب لتنقل البضائع ، الا أنها ترسوا بعيدا لعدم وجود مرسى مناسب •

الاثنين ٢٠ مارس :

لم تكن حبوب الذرة معدة للطهو فاضطررنا الى التوقف بالمكان طوال النهار وكم استمتعت بغناء الجوارى وهن يطحن الذرة ، وينطلق صوتهن فى مجموعات ، ينطلق عفويا فطريا رائعا ، وكن يصاحبن اللحن بصليل حليهن ودقات الهاون المنتظمة • وسأشرح لكم احدى الاغنيات ، على قدر ما استطعت أن أفهم من شرح محدثى • بدأت الاغنية ثلاث فتيات يطحن فى هاون واحد وكن ينظمن دقاتهن تبعا لحركات اللحن ، وفى البداية بدأن فى الدق ببطء • وتلتفت واحدة لاخرى تشجعها وتقوى من عزيمتها وتقول : ان الرجال المحاربين سيعودون عما قريب ، وسيعود رجالهن بغنائم أكثر من الاخرين ثم يعلو اللحن ، وتختلط الكلمات بقوة ، فاللحن أصبح لحن الانتصار ، والمفروض أن المحاربين عادوا من غزواتهم ، وتعلو صرخات دقاتهن المسرعة ، كما لو كان أحد رجالهن قد لقى حتفه •• حينئذ ينقطع الدق فجأة ، ومرة واحدة يعود اللحن حزينا •• والمفروض أن رجل واحدة منهن قد مات •• وتواسيها الاخريات •• ويبدو على امرأة الفقيد أن فجيعتها اقوى من أن تواسى •• وفى النهاية يقررن أن يلجأن الى العرافة لتتأكد من صحة الخبر • وتمثل النسوة كما لو كن يذبحن ماعزا ، ويخرجن أمعاءها وهم يتمتمن بالتعاويذ حتى تظهر علامة يستبشرن بها أخيرا •• حينئذ يستأنفن دقهن ، وتعلو صيحاتهن الجميلة فى ترديدة منتظمة والمؤسف أن صاحب الفتيات عمد الى منعهن أكثر من مرة من الغناء ، على الرغم من انى الححت عليه أن يتركهن • ولكنه قال : انهن يغنين أغنية وثنية ، وهن يرتكبن اثما بذلك ، كما كانوا يفعلون أيام الجاهلية قبل بعثة الرسول محمد •

الثلاثاء ٢١ مارس :

تركنا القلعة فى الثامنة ، ومضينا عبر صحراء رملية مستوية ، ولم نستطع أن نرى البحر فتلال الرمال تخفيه عنا • وعند الظهر عبرنا مجرى ماء ، وشاهدنا هنا بقايا القناة العظيمة التى كانت تصل الى لبدة ذات يوم • وفى الثانية تركت القافلة ومضيت لتفقد آثار «لبدة» • وتنتصب أطلالها – ان صح التعبير – بالقرب من البحر وتحيط بها تلال الرمال من كل جانب ، وخلف الرمال تنبسط منطقة خصبة يستغلها الاهالى استغلالا طيبا • ولم استطع لارهاقى ، ولسوء حظى ، أن أزور أكثر من ثلاثة أطلال ، ولعل منارة السفن كانت أروعها على الاطلاق ، أما البقايا الاخرى فلم تكن اكثر من اكوام من الحجارة (١) •

وكانت بقايا اسوار المدينة القديمة باقية شامخة عملاقة ، وعديد من الاعمدة الرخامية تستلقى بعد طول انتصاب ، تغطيها الرمال ، وهى من نفس طراز الاعمدة التى يضمها متحف «وايموث» بانجلترا • ولما كنت متعبا ، فضلا عن أن المكان قد زاره الكثيرون ممن هم أكثر منى علما وقدرة ، وكتبوا عنه القدر الكافى ، فلم أحاول أن اتفقد الكتابات والنقوش • وعلى أية حال فقد أسعدتنى هذه الزيارة القصيرة الى حد بعيد وأوليت ظهرى للبحر واستدرت عائدا الى رفاقى حيث لحقت بهم فى السابعة ، بعد مسيرة قدرها ثلاثون ميلا شمال الغرب •

الاربعاء ٢٢ مارس : صبح صحو

تحسنت صحتى كثيرا ، واستأنفنا السير فى السابعة صباحا عبر صحراء تغطيها الخضرة • وفى التاسعة بلغنا بئرا رومانيا عند أقدام قلعة قديمة ، ويبدو أن بها ممرا سريا يصلها بالبئر يستخدم وقت الحاجة • والبئر ذاتها تقع فى اخدود سحيق تهيمن عليه القلعة • وهناك وجدنا التركى العجوز وجواريه فى انتظارنا • وكان العجوز فى كرب عظيم ، فقد داهمه اللصوص فى الليل ، وسرقوا منه حمولة جمل كاملة من البلح وكان يشك فى رفقائه العرب ، وأمرهم أن يناموا على مسافة بعيدة من أكياس البلح ، وصلى الرجال الامناء لكى ينتقم الله من الرجل • وحينما رأوه يندب حظه لم يأسفوا وعلت عيونهم

(١) اقرأ المغرب العربى فى القرن التاسع عشر – ترجمة الاستاذ مصطفى محمد جودة – منشورات دار مكتبة الفكر طرابلس – ليبيا ، فيه حديث عن آثار لبدة •

نظرات الشماتة • وكان اللصوص جماعة من البدو، وقد شاهدتهم جارية الرجل العجوز ، وخشيت أن توقظه ، فقد ضربها مرة لانها أقلقته من نومه • وحينما اشتكى لى الرجل حظه العاثر • لم أواسيه ، وقلت له : أن مهارة اللصوص تعجبنى ، وسخر منه كل الرفاق العرب وقالوا انه يستحق ما جرى له •

ومررنا بعديد من حقول الذرة ، وبدت أشجار التين والكرم مزدهرة مورقة وقطعان الخراف والماعز ترعى فى الوادى •• وعند الثالثة توقف الركب حين سقط أحد جمال الازهرى تعبا ، واطاع الرجال الازهرى ، وذبحوا الجمل وأكلت القافلة لحما كثيرا • والمضحك أن بعضهم لمح لى أن أذبح جملى الاعرج • ولكنى تظاهرت بعدم الفهم اقتناعا منى أنه مازال به رمق وحضر كثير من البدو الذين يسكنون المناطق المجاورة وشاركونا الطعام • وحينما حل الظلام حذرنا البدو ، وقلنا لهم : أننا سنقتل أى غريب يقترب من القافلة ••

لقد كان الطريق لفافا فلم أستطع أن أحدد موقعنا بدقة ، ولكن على قدر ما أستطيع يمكننى القول بأننا سرنا ثمانية عشر ميلا غرب شمال الغرب •

أصابنى التعب والارهاق هذا الصباح ، واضطررت الى أن أنزل من فوق جملى ، واستلقيت على الرمال ، وأبى أحد الرفاق العرب الا أن يلازمنى • وانتابتنى رعشة وهياج واضطر الرفيق العربى الى أن يمسكنى بقوة حتى لا أوذى نفسى • وألم بى حزن داهم واحسست بالعطش ، وتقت الى جرعة ماء • وهرول الصديق الى نبع قريب ليحضر لى ما أريد ، وغاب الرفيق طويلا حتى يئست من عودته ، والحمى تزداد لحظة بعد أخرى ، والعطش يتعاظم ، وحانت منى التفاتة الى جملى ، وكان يقف على مقربة منى •• يتبول •• ولم أتمالك نفسى حينما رأيت ماءه •• ودون تفكير •• الا فى جرعة ماء •• أى ماء تدفع عنى مخالب الموت •• زحفت اليه •• الى الجمل •• والماء ينساب منه ، وتحتويه الرمال العطشى •• وأنا حياتى معلقة على قطرة منه •• وظللت أزحف نحو الجمل ضعيفا واهنا ولا بديل سوى الموت •• ودنوت بفمى ، وباتت شفتاى قاب قوسين أو أدنى من الماء •• حين رأيت صديقى العربى الوفى يتسلق التل — ويهرع الى •• أعرف انه لا يمكن لاحد أن يشاطرنى احساسى الا من على الماء القذر الذى أتى به صاحبنا فى قربة جلدية •• ومع هذا فقد خلت هذا الماء عسلا فى فمى •• واستمتعت بأول رشفة منه ، وكأنها احلى نبيذ •• !!

ومضت ثلاث ساعات ثقيلة ، زاولني المرض قليلا ، وأمسك بي رفيقي ، ورفعني على جملي ، ومضينا الهوينا حتى التقينا بالقافلة ، وكانت في انتظاري .. وخيم الرجال في وادي المسد على ضفاف نهير صغير يجري عبر منحدر رملي .. قطعنا ذلك اليوم عشرين ميلا غرب شمال الغرب .

الجمعة ٢٤ مارس :

ما زلت متعبا ، الا انني بصفة عامة أفضل من أمس . أما بلفورد فقد ظل على صممه . ولكننا كنا سعداء فالرحلة قد قاربت على الانتهاء .. وعما قريب سنلتقي بأصدقائنا . وعاودنا المسير في السابعة صباحا ، وكان معظم الطريق يمتد بحذاء البحر . وفي الحادية عشرة ، مررنا بوادي الرمل ، وبه نهير يتلوى بين تلال الرمال ، وعلى جانبيه تمتد رقع مزروعة .. وفي الثالثة عاد الرجل الذي كنت قد حملته برسالة الى القنصل ، وأفادني أن قنصلنا سيكون بانتظاري ... وفي الرابعة مساء بلغنا «تاجوراء» ، وتلفت أبحث عن القنصل لاراه يقف بعيدا مع ولديه ودكتور ديكسون .Dr. Dickson والسيد كارستنسن .Carstensen وتقدموا نحونا ، ونزلت من فوق ظهر دابتي ولم يفطنوا الينا باديء الامر ، فقد تغير مظهرنا كثيرا . ونصبنا خيامنا بالقرب من المسجد الكبير وأمضينا أمسية سعيدة .. وبقي ولدا القنصل معنا ، واضطر الباقي الى الرحيل الى طرابلس على وعد أن يلتقوا بنا في الغد . وأعدت لنا جارية الازهري وجبة رائعة ، وانتهزت أنا وبلفورد فرصة غياب الازهري وأكلنا لحم خنزير وشربنا نبيذا حتى الثمالة .

السبت ٢٥ مارس ١٨٢٠ .

انصرم عـام كامل منـذ غادرنا طرابلس ، وهـا نحن عائدون اليهـا مـرة ثانيـة بصـحبة القنصـل والسـيد كارستنسن واستقبلنا الاصدقاء بحفاوة بالغة . وفي المساء بعثت برسالة الى اللورد باثرست .Bathurst أحيطه علما بعودتنا سالمين . وأودعت حاجياتي بالقنصلية البرتغالية ، وكان العقيد وارنجتون قد أعد لنا بها حجرة ، بعد أن الح علينا أن ننزل في بيته .

وعلى الرغم من سعادتي التي لا توصف بلقائي للاصدقاء «المسيحيين» ، فقد كنت آسفا على فراق رفاق السفر «المساكين» ، وكان كثير منهم في طريقهم الى تونس بينما مضى آخرون الى تركيا . وكم سعدت برفقتهم ، وكم خففت على

اغانيهم وروحهم المرحة ، فذابت الامى ومخاوفى • ولقد كانت «الخـدمات» البسيطة التى استطعت أن أقدمها لهم مصدرا لامتنانهم وعرفانهم • فحينما كان يشتد عليهم التعب والارهاق ، ويعجزون حتى عن المسير كان يكفى أن ينطق أحدهم ببيت من الشعر حتى ينسى الجميع ألمهم وقنوطهـم ، ويسـتغرقون فى الاغنية ويردد كل الرفاق كلماتها فى صوت واحد • ولقد كان صبرهم على التعب ، وقدرتهم على تحمل العطش شيئا يدعو الى الدهشة •• فلم يكن يسمح لهم الا بجرعة ماء واحدة كل أربع وعشرين ساعة ، ومع هـذا كنت تجـدهم راضين قانعين •

وكان يحلو لى أن أراقب الجوارى ، وهن يتحملن كل مشقة ، ليتزين ، فقد كان حبهن للتبرج وولعهن بالتزين لا يفوقه حد •• حتى حينما لا يوجد أحد الى جانبهن يطرى جمالهن •• وعلى الرغم من فقرهن وفاقتهن ، وعلى الرغم من الاجهاد الذى يلحق أجسادهن بعد رحلة يوم كامل ، كن ينشـــغلن فى «نظم» العقود ، ويصنعن حليا أنيقة من القواقع والثمار أو أى شىء آخر تقـع عليه أيديهن •• ومن كان لديها عقد تنشغل فى صنع حلية للرأس ، أو قـرط فضى ـ وحين يتوقف الركب فى المساء تغتسـل الفتيـات ويدلكن أجسـادهن بالزيت كلما حانت لهن فرصة ، وكن دائما يضعن «الكحل» على أجفانهن ، ويضعن المساحيق الاخرى على وجوههن •

وحملت احدى نساء «الفلاتا» طفلها الرضيع طوال المسير ، وحين توقف لبنها وجف ثديها ، لم ينل الصغير سوى ملعقة أو اثنتين من ماء ودقيق ، أو حفنـة كسكسى أعطيتها لامه •

وكثير من الفتيات كن يحملن معهن ما يسمى بال •• زانتو Zentoo وهى عبارة عن قرعة طويلة مجوفة لها فتحتان عند نهايتها • وحين ينطلقن فى الغناء تصاحبهن احداهن على «الزانتو» تضرب القرعة من ناحية وتوقفها باليد الاخرى وحينما تلهو الفتيات يتعالى صليل الحلى فى أيديهن ليصنع خلفية رائعة لاصواتهن العذبة • ولا تكاد مجموعة منهن تجلس ، ولو لبضع دقائق ، حتى تتناول احداهن الزانتو ، ويعلو صوتها ، وينخرط الجميـع فى الغناء •• ولقـد كان غناؤهن ورقصهن شيئا مبهجا ونادرا ما كنت أمر بمجمـوعة منهن دون أن يتـوجهن بالغناء لى ، وتعلو أصواتهن الحلوة تداعب أذنى •

وتوجد فى الصحراء أعشاب صغيرة يسمونها Wussawussa ووساووسا ولها مذاق مالح ، ويجمعها العبيد كلما استطاعوا ، وحينما يجلسون الى العشاء يغسلونها ويأكلونها ، وطعمها لا بأس به .

وفى بعض الوديان ، توجد الكثير من أعشاب شوكية ، لها ثمرة صغيرة سوداء يسمونها «دماغ» ، وطعمها حلو وقابض . وتجمعها الفتيات دائماً ويقدمنها الى لقاء ما أسديه اليهن من معروف ، حين يلم بهن العطش والارهاق . وفى الواقع لم يكن هناك من يحسن معاملتهن غيرى وبلفورد ، واشتهرت بين الجميع بمواهبى التى يقدرونها حق قدرها ، لدرجة أن أى عبد رجلا كان أم امرأة ، لا يقصد غيرى .. لاصلح له حذاءه .. مثلا .. وكنت أحمل معى خيطا وابرة ، وهكذا فقد أصبحت «اسكافى» القافلة بأسرها .

ولا يتحرك – فى الغالب – واحد من السادة دون سوط فى يده ، يلهبون به ظهور عبيدهم المساكين على الدوام . وكان سوط الحاج محمد يكاد لا يستقر فى يده ، ويجد طريقه دائما الى أجساد عبيده ، حتى اضطررت أن أجرده منه مرارا . وكان الاسراف فى شرب الماء ، أو احضار حطب غير كاف ، أو النوم قبل أن يعد الطعام .. كان ذلك يعتبر جريمة لا تغتفر – ولا يستطيع واحد من العبيد ان يتذرع بالتعب حيث لا مفر من استخدام السوط .. وحينما يموت العبد مرضا والما ، يجد أصحابه ألف مبرر .. ويقولون لابد أنه كان يشكو من علة فى بطنه .. ويأسفون كثيرا لانهم لم يفكروا فى كيه على بطنه بقضيب من الحديد المتوهج .

وبقيت برفقة أصحاب الجمال طيلة اليوم التالى لوصولنا طرابلس ، واضطررت الى أن أبقى فى طرابلس لارعى بلفورد فلم تكن حالته مطمئنة على الاطلاق . وظل بلفورد تحت رعاية الدكتور ديكسون .. وطوال الستة شهور الماضية كان بلفورد نهبا للدوسنتاريا ، وأصابه الصمم والحول ، حتى هزل جسمه وأصبح أقرب ما يكون الى الهيكل العظمى .

الصـــحراء

لقد أمضيت وقتا طويلا فى الصحراء، منذ تركت طرابلس ، الى أن عـدت اليها بعد زيارتى لفزان • وسأحاول فيما يلى أن أصف بعض ملامح الصحراء أو كما نسميها فى خرائطنا بـ «صحارى» •• والتى تميز تلك المسـاحـات الشاسعة التى تعرف أيضا باسم «الصحراء الكبرى» •

ولنبدأ بلفظة واحة ، وهى تعنى الرقع الخصبة أو الجزر التى يقال انها تقع فى الصحراء • ومن المفروض أن فزان واحـدة من هذه الواحـات ، الا أنه أتضح لى بعد رحلتى اليها •• أنها لا تختلف كثيرا عن الصحراء المحيطة بها ، باستثناء بساتين النخيل والحقول الصغيرة التى تتطلب زراعتها منهم مجهـودا هائلا • ولا توجد فى منطقة الصحراء أية نباتات تنمو بصورة تلقائية أو شيطانية كما يقولون ،باستثناء بعض الاعشاب التى تجد لها مكانا بين الصخور ، ولا يمكنك ، مثلا ، أن تجد رقعة خضراء تفوق مساحة منضدة صغيرة الا بالقرب من طرابلس •

ويطلق العرب تسميات مختلفة تصف أى منطقة فضاء أو منطقـة تـلال او صخور •• وفيما يلى بعض هذه الاسماء :

١) صحره	Sahar
٢) غرود	Ghrood
٣) سرير	Sereer
٤) وعر	Warr
٥) حطيه	
٦) وشكة	Wishek
٧) غابة أو جزيرة	Ghraba or Jezeera
٨) سبخة	Soobker
٩) وادى	Wadey
١٠) جبل	Gibel

وكلمة «صحرة» أو صحراء هى اللفظة السائدة ، تصف المساحات الرملية فقط ، ذات السطح الاملس دون صخور أو آبار أو أية نباتات (أعشاب) تتغذى عليها الدواب •

أما «الغرود» فتعنى التلال الرملية ، ولعلى ذكرتها مرة أو مرتين • وهـم يطلقون اسم «الغرود» ، على أية تلال مهما كان ارتفاعها ، سواء أكان شاهقاً

يتعذر صعوده ، أم معتدل الارتفاع • وفى بعض المواقع تنمو أشجار النخيل على هذه التلال وتوجد غالبا على حدود الوديان الصخرية •

أما «السريرى» فيقصد به الوديان التى يفرشها الحصى ، والحصى بصفة عامة صغير ، وفى بعض الاحيان يوجد على هيئة كرات مستديرة أو ذات نهايات مدببة ، كما لو كان قد كسر حديثا • كما يوجد نوع آخر ، وهو الحصى اللامع ، على إنه لا يوجد بوفرة •

أما «الوعر» فهو الوادى الوعر ، تغطيه الصخور الكبيرة الحجم ، ويصعب المسير عليه • وتطلق هذه التسمية أيضا على قمم الجبال،وخصوصا جبل السوداء وعموما فان كلمة «وعر» تطلق على كل الاماكن التى يصعب السير فوقها نتيجة للعقبات التى تعترض الطريق من صخور ورواب •

أما «حطية» فهو الموقع الذى يوفر حدا أدنى من الكلأ الذى يعتمد عليه الجمال طعاما ، والرجال حطبا •

أما «الوشكة» فهى التلال الرملية ، أو الوديان التى تنمو بها أشجار النخيل البرية ، وهى ما تسمى «بالوشكة» •

أما «الغابة» فيقصد بها الاماكن التى تنمو بها أشجار النخيل المثمرة ، والتى لا توجد مدن بالقرب منها • ويأتى اليها أصحابها فى المواسم لجمع البلح • وهناك تسمية أخرى لما تعنيه لفظة «الغابة» وهى جزيرة ، ولكنها لا تستخدم الا فى فزان على ما أعتقد •

أما «السبخة» فيقصد بها وديان الملح التى تغرقها الامطار فى الشتاء • وحين يحل الصيف تجف وتتكسر بفعل الشمس • ويوجد مثل هذه الوديان فى فزان ، ما بين «تراغن» و «معفن» ويبلغ عرضها فى العادة ثلاثة أو أربعة أميال ، وطولها أكثر من خمسة وعشرين ميلا •

أما «الوادى» فهو التسمية التى استخدمتها كثيرا ، وفيما يلى سأعرض وضعا مبسطا للكلمة •

يقصد بالوادى ، الموقع الذى تنبت فيه الاعشاب ، وحيث تصنع الامطار أنهارا صغيرة قصيرة الاجل • وبالقرب من طرابلس تكون الوديان ـ أحيانا ـ

مجرى للسيول الجارفة ، أما فى فزان ـ حيث لا يعرفون المطر ـ فهى عبارة عن وهاد منخفضة ناعمة مستوية لا تعطى نبتا الا فيما ندر .

أما «الجبل» فهو غنى عن التعريف بكل تأكيد .

وعلى هذا فان لفظة «الصحراء» تطلق فقط على المناطق الرملية ، ويستخدم العرب لفظة «بر» كتسمية عامة للارض تمييزا لها عن البحر . ولا يوجد فى أى منطقة من الصحراء ـ على قدر ما أعرف ـ لا يوجد ماء يتفجر قريبا من السطح ، وعلى هذا فأنه يبدو من غير المعقول أن تعيش عليها أية حيوانات برية ومع هذا فتوجد الظباء والجاموس ، وبعض الحيوانات الاخرى بوفرة . وتوجد الفئران كثيرا فى الوديان ، ولا أدرى ماذا تأكل هذه لفئران ؟ فلا يوجد طيور البتة ، أما السحالى والثعابين فهى أقوى من أن يصيدها فأر بكل تأكيد . وفى بعض المناطق ، وربما لايام عديدة ، لا ترى سوى بعض الحشرات الصغيرة تشبه العنكبوت أحيانا ويسمونها «ناقة الله» . كما توجد الخنافس حيث تتوقف القوافل أو بالقرب من الاعشاب .

لا شىء أكثر هولا من الصمت الذى يغلف الصحراء فى المناطق الرمليه على وجه الخصوص . وقدر لى أن أمضى فى الليل بعيدا عن القافلة لاصبح بمنأى عن الضوضاء .. حينئذ يخيم صمت قاتل من العسير وصفه .. أما بالقرب من المدن فان عواء الذئاب والضباع تتناهى الى أذنك وتصلك أصواتها الحزينة الكئيبة .

وكثيرا ما يظهر الماء فى البقاع الرملية والخصبة ويسميه العرب «شرابا» . ولقد تحدث الكثيرون قبلى عن هذه الظاهرة،وربما بدا وصفى لها غير ضرورى وحين تكون الشمس فى أوجها يبلغ خداع النظر مداه ، نتيجة لتصاعد الابخرة من الرمال الملتهبة ، ويصبح تحديد الاشياء من مسافات قصيرة أمرا صعب المنال . وحينما كنت أترك القافلة ، وأتجول بعيدا كنت أستريح لرؤية الاشجار ، وحينما تبدو احداها كبيرة امامى ، أتصور اننى سأجلس فى ظلها عما قريب واستعجل جوادى وأسرع الخطى ، وحين أبلغها أجدها من الصغر بحيث لا يكفى ظلها لان يغطى قبضة يدى . أما التلال الرملية فخداعها أكبر ، وحينما تتوسط الشمس كبد السماء ، تبدو هذه التلال بعيدة بعيدة ، وكثيرا ما أدهش حينما أجد نفسى فجأة قريبا منها . ويبلغ الجفاف المتطرف فى

بعض المناطق ، وخصوصا فى جنوب جبال السوداء ، يبلغ حدا من الصعب تصديقه ، وخلال رحلتى من والى فزان لاحظت أن الملابس وذيول الجياد تحدث شررا كهربائيا من شدة الجفاف .

ولا يمكن العثور دائما على الماء عن طريق الحفر بل يتعذر وجوده فى جوف الارض بصفة خاصة فى المواقع التى يسمونها «سريرا» . وكثيرا ما صادفت فجوات عمقها مائة قدم ، حفروها بحثا عن الماء . والابار التى توجد بالصحراء توجد دائما فى الوديان والاماكن الرملية ، وحتى هذه نفسها ، يكون ماؤها عادة مالحا ورديئا ، ولكنه يتحسن بعد أن يستخرج منه قدر معقول . وكثير من هذه الابار صغير حتى لا تكفى خمسة أو ستة جياد مرة واحدة ، ويمضى وقت طويل حتى يتجمع بها الماء مرة ثانية . والجدير بالذكر أن الابار شحيحة المياه ، تكون فى التربة الطينية الناعمة ، أما الابار الغنية فتوجد فى التربة الطينية الصفراء . ويتراوح عمق البئر ما بين ستة وسبعة أقدام ، وسبعين وثمانين قدما .

ومن المألوف أن ترى عبر الصحراء ، أكواما صغيرة من الصخور بناها المسافرون كعلامات للطريق ، أو حينما يفقدون الطريق حتى يسهل عليهم العودة حيث كانوا .. وهم يطلقون على هذه الأكوام لفظة «علم» . وتشتهر هذه المواقع حتى لا تحتاج الى تسميات أخرى وهى الاماكن التى تفضلها القوافل لتنصب فيها الخيام بعد رحلة يوم مجهدة .

مع بداية شهر أبريل انتشر وباء خطير ، ومات كثير من أهالى طرابلس . وحينما بلغت المدينة حاولت أن التقى بالباشا لكنه على ما يبدو لم يكن فى حالة تسمح لى بلقائه . وانصرمت أربعة عشر يوما قبل أن أتمكن من لقائه ، وذهبت اليه بصحبة القنصل الانجليزى ، وعبرت له عن شكرنا على ما لقيته البعثة من تعاون أهل الدواخل نتيجة لرعايته لنا وحدبه علينا .

وسر الباشا كثيرا لاكتسابى لغة ولهجة فزان ، وتحادث معى طويلا ، وسألنى كثيرا عما حدث لى خلال رحلتى ، وأبدى استعداده لرعايتى اذا ما فكرت فى العودة الى افريقيا مرة ثانية . وقبل أن أغادره حملنى تحياته الى الملك .

ربما بدا غير ضرورى بل وبعيدا عن الاثارة ، أن أسرد بقية ما حدث لى خلال اقامتى فى طرابلس . على أنه يجدر بى أن أذكر أنه فى الرابع عشر من مايو ،

ركبت أنا وبلفورد عائدين الى ليجورن ، ومعنا جوادى الذى أهداه الباشا الى ، وجمل من جمال المهارى ، أنوى أن أقدمها هدية الى جلالة الملك جورج الرابع •

ولم يوافق دكتور ديكسون - بادىء الامر - أن يسمح لبلفورد بالسفر خوفا على حياته ، فقد كان ضعيفا منهكا • ولكن بلفورد كان مقتنعا بأنه قادر على السفر • وكنا بالطبع نتوق للعودة الى انجلترا •• وعلى هذا فلم نشأ أن نؤجل رحلة العودة • ولا يسعنى هنا الا أن أعبر عن عظيم امتنانى للعقيد وارنجتون القنصل الانجليزى وعائلته ، على ما قدموه لى من مساعدات وخدمات لا تنسى • فلم يدخر الرجل وسعا فى تقديم يد المساعدة الينا مستغلا سلطته الرسمية والشخصية ، وذلل بذلك كثيرا من الصعوبات التى واجهتنا • كما يسعدنى أن اتقدم بالشكر لكل الاصدقاء ، على ما قدموه لنا من مساعدات قيمة•

وغادرت طرابلس أنا ورفيقى المريض فى التاسع عشر من مايو عام ١٨٢٠ ، وبعد رحلة عشرة أيام بلغنا ليجورن • وهناك عاود المرض بلفورد واضطررت الى أن اطلب له طبيبا ، وعاده كثيرا حينما كنا بـ لازاريتو Lazaretto وقضينا خمسة وعشرين يوما فى الحجر الصحى ، فى منطقة جميلة • وهناك سارعنا بتغيير لباسنا وحلق شعورنا ولحانا حتى لا نكون هدفا لفضول الكثيرين الذين جاءوا الينا يتفرجون على هيئتنا المغربية •

وجاءنا ، ونحن نقضى فترة الحجر الصحى ، مبعوث من محمد على باشا والى مصر ، يدعونا للزيارة • وبعد أن تبادلنا معه الاسئلة وتأكد من معرفتنا للغة العربية ، أخبرنا أن الباشا يعتزم انفاذ حملة علمية حربية جنوبى مصر وغربها• وعلى هذا فقد كان يهمه كثيرا أن يستخدم بعض الاوربيين ليصحبوا الحملة وذلك لدراسة الاقاليم التى ينوى اكتشافها •

ولمح الى المبعوث ، الى أنه فى حالة قبولى ، فان الباشا سيجزل لى العطاء • وكان شهر نوفمبر هو الموعد المحدد للقيام بالحملة • ولكنى اعتذرت نظرا لارتباطى بخدمة البحرية الانجليزية ، وربما طلبت منى أن أعود ثانيا الى افريقيا •

ولقد كان واضحا أننى اذا ما صاحبت حملة محمد على ، فأنه سيكون فى

مقدورى أن أتفقد منابع النيجر ، كما ستتاح لى فرصة التعرف على الطريق الذى سآخذه اذا ما عدت مرة ثانية الى افريقيـا ٠

وفى التاسع والعشرين من يونية ، غادرت ليجورن ، ووصلت لندن فى التاسع والعشرين من يولية عام ١٨٢٠ ٠ وخلال سفرى عبر فرنسا ، أصيبت عينـاى برمد ، وكدت أن أفقد بصرى ٠ ولكننى شفيت سريعا لدى وصولى انجلترا ٠ أما بلفورد فقد ظل على صممه وضعفه ، وأشك فى أنه يستطيع أن يستـعيد سـمعه وصـحته ٠

وانصافا للرجل ، لابد أن أسجل هنا ، أنه كان بالنسبة لى نعم الرفيق سواء قبل وفاة «ريتشى» أو بعدها وعلى الرغم من علمه القليل فقد عوضه عن ذلك هدوءه وقدرته على الترتيب والتنظيم ٠

وعندما عدت الى انجلترا ذهبت لزيارة ايرل باثرست Bathurst. ، لاضـع بين يديه نتائج البعثة ، ولاسلمه كل الأوراق التى تركها المأسوف عليه السيد «ريتشى» ٠